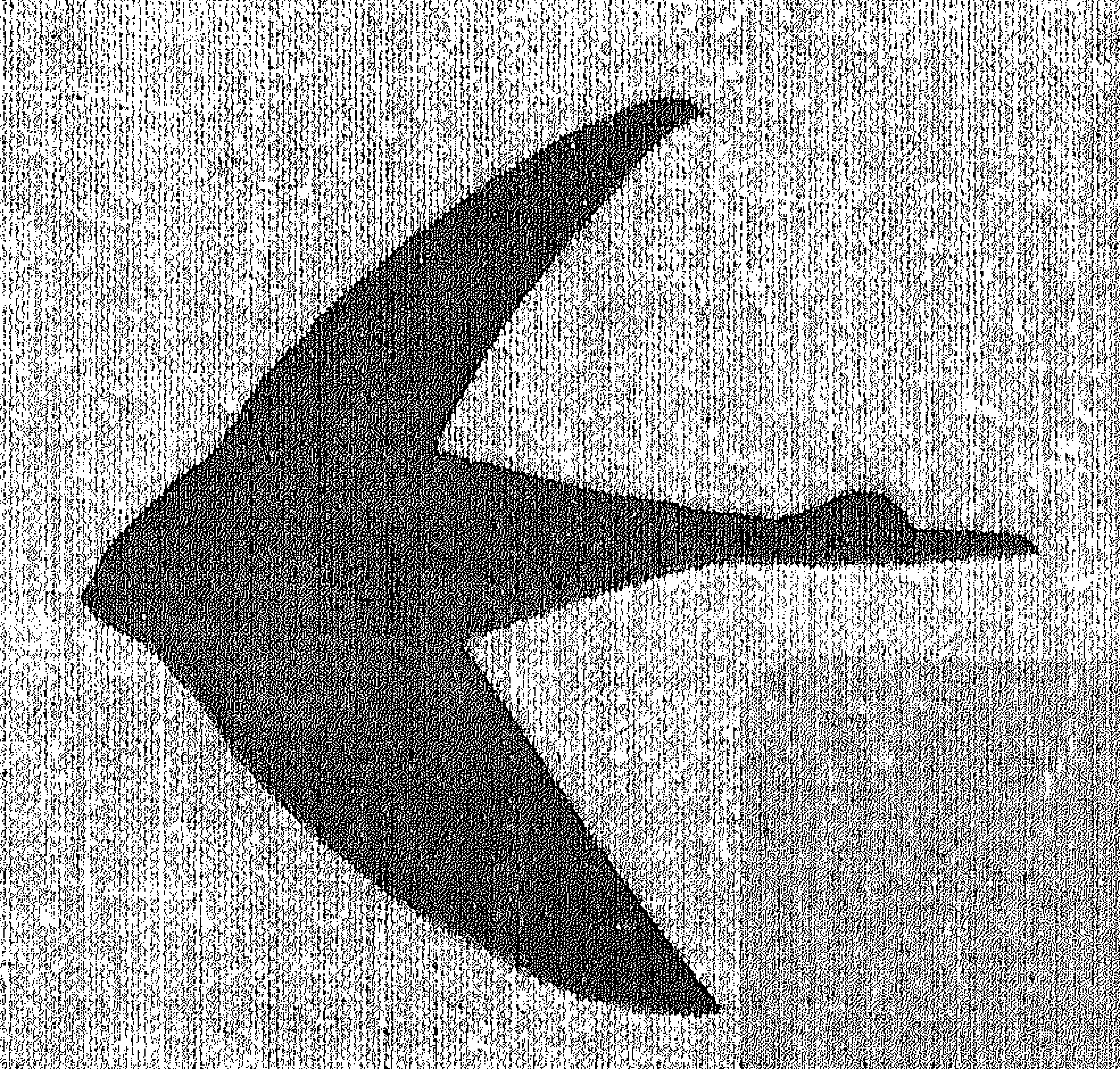
جنكيز آيتماتوف

السفينة البيضاء



قصتان

دار التقدم
موسكو

جنكيز آيتماتوف

السفينة البيضاء

الكلب الابلق الراكض عند حافة البحر

ترجمة : د . أبو بكر يوسف

رسوم يورى كوبيكو

Чингиз Айтматов

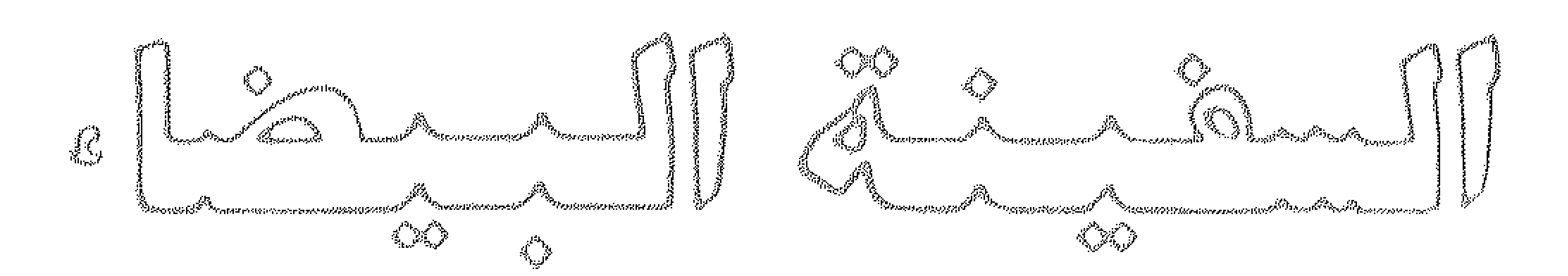
БЕЛЫЙ ПАРОХОД
ПЕГИЙ ПЕС, БЕГУЩИЙ КРАЕМ МОРЯ

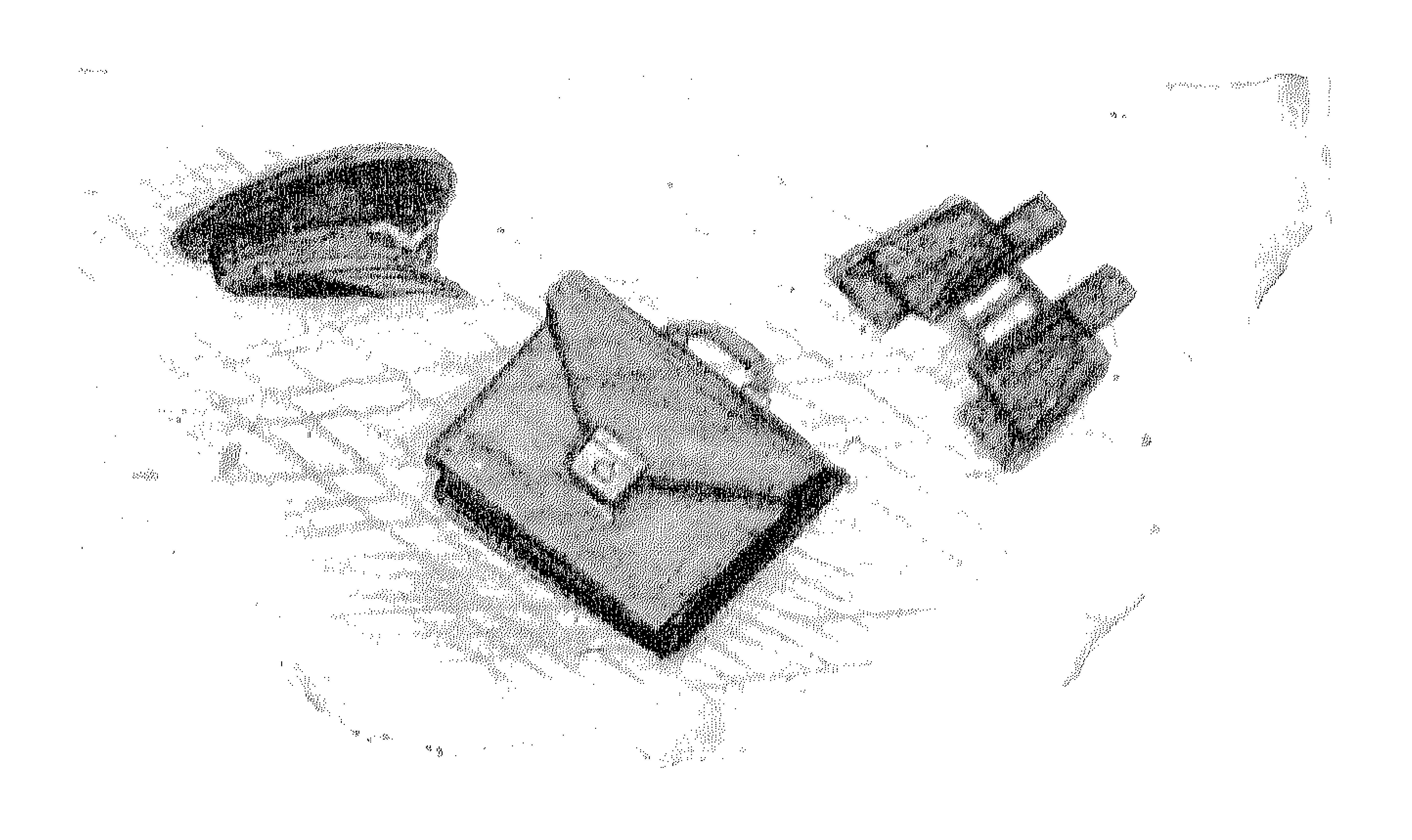
ПОВЕСТИ

На арабском языке

$A\frac{70303-002}{016(01)-81}$ 512—80

4702280200





ما بعد الحكاية

١

كان لديه حكايتان . الاولى حكايته التى لم يدر بهـــا أحد . والثانية تلك التى رواها له جده . ثم لم تبق لديه ولا واحدة . وعن هذا سنقص .

فى ذلك العام بلغ السابعة وبدأ عامه الثامن .

فى البداية اشتروا له الحقيبة المدرسية . حقيبة سوداء من المشمع ، بقفل معدنى براق ذى ترباس ينزلـق تحت الرزّة ، وجيب اضافى للنثريات . وباختصار حقيبة غير عادية مثل ايـــة حقيبة مدرسية عادية . ومن هنا ، على الأرجح ، بدأ كل شيء .

اشتراها الجد من سيارة بيع متنقلـة . كانت هذه السيارة-المتجر تطوف بالرعاة فى الجبال وتأتى اليهم احيانـا فى كوردون الغابة ، فى وادى سان-تاش .

ومن هنا ، من الكوردون امتدت غابة جبلية محمية * صاعدة الى اعلى عبر الشعاب والسفوح . ولم يكن يعيش فى منطقة الكوردون سوى ثلاث عائلات . ومع ذلك كانت السيارة-المتجر تأتى بين الحين والآخر الى حراس الغابة هؤلاء .

وكان ، وهو الصبى الوحيد فى الدور الثلاث ، اول من يلمح السيارة-المتجر ، فيصيح راكضا الى الابواب والنوافذ :

— قادمة ! السيارة-المتجر قادمة !

---

* المحمية هى منطقة طبيعية يحرم فيها الصيد وقطع الاشجار لحماية البيئة والحيوانات . **المعرب** .

كان الطريق يمتد الى هنا من شاطئ بحيرة ايصيق-كول ، شاقا مجراه عبر الشعب ، بحذاء شاطئ النهر ، مليئا بالحفـــر والاحجار . ولم يكن من السهل ابدا السير فى هذا الطريق . فما ان يصل الى جبل الحراســـة حتى يصعد مـــن قاع الاخدود الى الجرف ، ثم يهبط من هناك طويلا فوق سفح أجرد شديد الانحدار نحو بيوت حراس الغابة . كان جبل الحراسة قريبا جدا . . وفى الصيف كان الصبى يركض اليه كل يوم تقريبا ليتطلع بالمنظار الى البحيرة . ومن هناك كان كل شيء يبدو على الطريق واضحا كأنما فوق راحة اليد ، سواء كان راجلا ام راكبا ، ام بالطبع سيارة .

فى تلك المرة — وكان ذلك ذات صيف حار — كان الصبى يستحم فى حوضه ، ومن هنا رأى الغبار الذى اثارته السيارة فوق الجرف . وكان هذا الحوض على حافة منطقة ضحلة من النهر مفروشـــة بالحصى . وقد شيده جده من الاحجار . ومـــن يدرى فلولا هذا الحوض لربما لم يعد الصبى على قيد الحياة منذ زمن طويل ، ولغسل النهر عظامه من زمان — كما كانت جدته تقول — والقى بهـا فى إيصيق — كول مباشرة لكى تحملق فيها الاسماك وغيرها من المخلوقات المائية ، ولما بحث عنه احد أو حزن عليه ، لأنه لا داعى لنزول النهر ، ولأن احدا ليس فى مسيس الحاجة اليه . ولكن ذلك لم يحدث بعد . ولو حدث ، فمن يدرى ، ربما بالفعل لم تهرع الجدة لانقاذه . قد تفعل لو كان حفيدها حقا ، ولكنها تقول انه غريب . والغريب دائما غريب ، مهما أطعمته ورعيتـــه . غريب . . . ولكن ماذا اذا كان لا يريد ان يكون غريبا ؟ ولماذا ينبغى ان يعتبر هو بالذات غريبا ؟ أليس من الجائز ان الجدة هى الغريبة وليس هو ؟

ولكننا سنقص عن ذلك فيما بعد . . وعن حوض الجد ايضا فيما بعد .

وهكذا ، فقد لمح الصبى آنذاك السيارة ، وكانت تهبط من الجبل ، وخلفها على الطريق تصاعدت سحب الغبار . وغمرته الفرحة وكأنما كان يعرف انهم سيشترون له حقيبة . قفز من الماء على الفور ، وشد سرواله بسرعة على فخذيه النحيلتين ، وانطلق وهو

لا يزال مبللا ، أزرق الجلد – فقد كانت المياه باردة – عبر الدرب الى البيت ليكون اول من ينبئ بمجيء السيارة‌ـ‌المتجر .

ركض بسرعة وهو يقفز عبر الخمائل ويدور حول الصخور التى يعجز عن القفز من فوقها ، ولم يتوقف ثانيـة واحدة ، لا بجوار الاعشاب العالية ، ولا بجوار الاحجار ، رغم انه كان يعرف انها ليست ابدا مجرد اعشاب واحجار . بل انها قد تغضب منه او حتى تشنكله . «السيارة‌ـ‌المتجر وصلت . سآتى فيما بعد» – قال وهو يركض «للجمل الراقد» ، هكذا سمى ذلك الحجر الجرانيتى الاحمر الاحدب الغائص فى الارض حتى الصدر . وعادة لم يكن الصبى يمر بجوار «جمله» دون ان يربت على سنامه . كان يربت عليه ربتة السيد ، كما يربت جده على حصانه القصير الذيل ، بلا اكتراث ودون توقف ، وكأنما يقول له : انتظر قليلا فلدىّ بعض الاعمال . وكان لديه ايضا حجر «السرج» . . حجر نصفه أبيض ونصفـه أسود ، أبلق ، به مجلس كالسرج ، يمكن الجلوس عليه وكأنك على ظهر حصان . وكان لديه كذلك حجر «الذئب» الذى يشبـه الذئب الى حد كبير ، وهو حجر بنى ، أشيب ، ذو لبدة قويـة وجبهة ثقيلة . . كان يصل اليه زحفا مسددا نحوه بندقية وهمية . ولكن احب الاحجار اليه كان «الدبابة» ، تلك الكتلة الجبارة عند حافة النهر مباشرة على الشاطئ المنحدر . كان يبدو وكأن «الدبابة» ستنقض من الشاطئ وتتقدم فيفور النهر ويغلى بزبد أبيض . أليس هكذا تسير الدبابات فى الافلام : تنقض من الشاطئ الى المـاء وتمضى . . . لم ير الصبى افلاما الا فيما ندر ، ولذلك كان يذكر جيدا ما رآه . كان الجد يأخذ حفيده أحيانا الى السينما فى مزرعة تربية سلالات الابقار ، فى المحمية المجاورة وراء الجبل . ولهذا ظهرت على الشاطئ «الدبابة» المستعدة دومـا للانقضاض عابرة النهر . وكانت لديه احجار اخرى : «خبيثة» او «طيبة» ، بل وحتى «ماكرة» و«غبية» .

وبين الاعشاب ايضا كانت لديه اعشاب «محببة» ، و«جريئة» و«خوافة» و«شريرة» وغيرها . فالحسك الشائك مثلا كان العدو الاول . وكان الصبى يبارزه عشرات المرات فى اليوم . لكن لم تبد نهاية لهذه الحرب ، اذ كان الحسك ينمو ويتكاثر بلا هوادة .

اما اللبلاب البرى ، فرغم انه من الاعشاب الضارة ، فزهوره من اجمل الزهور وأبهجها . فهى تستقبل شمس الصباح أحسن الجميع . الاعشاب الاخرى الا تفقه شيئا ، وسيان لديها الصباح ام المساء . لكن اللبلاب ، ما ان تدفئه اشعة الشمس حتى يفتح عينيــــه ويضحك . يفتح فى البداية عينا ، ثم عينه الثانية ، وبعد ذلــك تتفتح كل اكمام الزهور الواحدة تلو الاخرى . . البيضاء ، والزرقاء الفاتحة ، والبنفسجية وغيرها . . . ولو جلست بقربها فى سكون تام ، لخيل اليك انها بعد ان تستيقظ تتهامس فيما بينها . حتى النمل يعرف ذلك . فهو يركض صباحا فوق اللبلاب ويزر عيونه من الشمس ويصغى الى ما تقوله الزهور لبعضها . ربما كانــت تروى احلامها ؟

فى النهار ، فى الظهر عادة ، كان الصبى يهوى التوغل فى اعشاب الشيرالجين الطويلة السيقان . وهى اعشاب عالية ، بلا أزهار ولكنها عطرة ، وتنمو على شكل جزر ، وتتجمع حلقات ولا تسمح للاعشاب الاخرى بالاقتراب منها . انها صديق مخلص . خاصة اذا كنت قد أهنت وتود ان تبكى قليلا دون ان يراك أحد ، عندئذ فالشيرالجين أفضل مخبأ . ورائحتها كرائحة غابـــة الصنوبر . ووسطها تشعر بالحر والهدوء . وأهم شىء انها لا تحجب عنك السماء . فلترقد على ظهرك ولتنظر الى السماء . فى البداية لن تميز شيئا تقريبا من خلال الدموع . ولكن فيما بعد ستعبر السحب ، وسوف تصنع هناك عاليا كل ما تريده منها . فالسحب تعرف انك تعانى ، وأنك تريد أن ترحل الى مكان ما او تطير فلا يستطيع أحد أن يجدك ، حتى يتحسر الجميع فيما بعد ويندموا فها هو الصبى قد اختفى فأين نجده ؟ . . ولكى لا يحدث هذا ، ولكى لا تختفى ، لكى تستلقى فى هدوء وتتأمل السحب ، سوف تتحول السحب الى كل ما تريده . ومن السحب المتشابهة ستتشكل اشياء مختلفــة للغاية . يجب فقط ان تعرف كيف تميز ما تصنعه السحب .

نعم ، فى الشيرالجين الهدوء ، وهى لا تحجب السماء . تلك هى اعشاب الشيرالجين التى تفوح منها رائحة الصنوبر الساخن . . .

وكان يعرف ايضا شتى الاشياء عن الاعشاب . كان ينظــر باستعلاء الى اعشاب الريش الفضية التى كانت تنمو فى المرج .

كم هى غريبة الاطوار اعشاب الريش ! انها طائشة ، هوائية . وسيقانها الحريرية الناعمة لا تستطيع ان تعيش بدون الريح . دوما فى انتظارها ، وما ان تهب حتى تنحنى مع اتجاهها . تنحنى كلها كأنها حشيشة واحدة ، ينحنى المرج كله كأنما يصدع لامر . فاذا سقط المطر او هبت عاصفة رعدية لا تعرف اعشاب الريش الى اين تلجأ . تتدافع مذعورة وتسقط وتلتصق بالارض . ولو كان لديها أرجل لهربت على الارجح الى مدى البصر . . ولكن ذلك مجرد تظاهر . . . فما ان تهدأ العاصفة حتى تعود اعشاب الريش الطائشة الى ترقب الريح ، فتنحنى مع اتجاهها . . .

عاش الصبى وحيدا ، بلا اصدقاء ، وسط تلـــك الاشيـاء البسيطة التى كانت تحيط به ، فلم يكن هناك ما يجعله ينسى كل شيء سوى السيارة-المتجر ويركض مندفعا اليها . وهذا مفهوم ، فالسيارة-المتجر شيء آخر غير هذه الاحجار وتلك الاعشاب . فما اكثر ما تحتويه هذه السيارة-المتجر !

عندما وصل الصبى الى المنزل كانت السيارة-المتجر قد بلغت الفناء من وراء المنازل . فقد كانت المنازل فى الكوردون تطل بوجوهها على النهر ، اما الافنية فكانت تنحدر انحدارا خفيفـا الى الشاطئ مباشرة ، وعلى الشاطئ الآخر ، إبتداء من الوادى الذى نحرتـه مياه النهر تصاعدت الغابة بحدة الى الجبال ، فلم يكن ثمة طريق الى الكوردون الا من خلف المنازل ، ولو لم يصل الصبى فى الوقت المناسب لما عرف أحد ان السيارة-المتجر اصبحت هنا بالفعل .

لم يكن احد من الرجال موجودا فى هذا الوقت ، فقد توجهوا الى شئونهم منذ الصباح . وكانت النســاء يباشرن شئونهـــن المنزلية . ولكن الصبى صاح بصوت حاد وهو يقترب راكضا من الابواب المفتوحة :

– وصلتْ ! السيارة-المتجر وصلت !

وهرولت النساء فى اضطراب . وأسرعن للبحث عـن النقود المخبأة . وهرعن خارجات من البيوت تسبق احداهن الاخرى . حتى لقد مدحته جدته قائلة :

– انظروا ، ما أوسع عينيه !

وشعر الصبى بالزهو وكأنه هو الذى جاء بالسيارة-المتجر .

كان سعيدا لأنه حمل اليهن هذا النبأ ، ولأنه اندفع معهن الى الفناء الخلفى ، ولأنه تزاحم معهن بجوار باب السيارة الصغير المفتوح . ولكن سرعان ما نسيته النساء هنا . كن فى شغل شاغل عنه . فالبضائع متنوعة ، تزيغ الابصار . كنّ ثلاث نسوة : الجدة ، والخالة بيكى ، أخت أمه وزوجـــة أهم شخص فى الكوردون ، الملاحظ أروزكول ، وجول جمال الشابة زوجة العامل المساعد سيد أحمد ، التى كانت تحمل ابنتها على يديهـــا . ثلاث نساء فقط . ولكنهن تزاحمن وقلّبن البضاعة الى درجة جعلت البائع يتدخل طالبا منهن لزوم الدور والكف عن الصياح فى وقت واحد .

بيد انه لم يكن لكلماته تأثير كبير على النسوة . فى البداية تخاطفن كل ما وقعت عليه أيديهن ، وبعد ذلك رحن ينتقين ، ثم أعدن ما اخترنه . كن يضعن جانبا ما يخترنـــه ، ويقسنـــه ، ويتجادلن ، ويفصحن عن شكوكهن ، ويسألن عشرات المرات عن نفس الشىء . وكان هذا لا يعجبهن ، وذاك غال ، والثالث ليس لونه مناسبا . . . وانتحى الصبى جانبا . وأحس بالملل . اختفى شعوره بانتظار شىء غير متوقع ، واختفت تلك الفرحة التى راودته عندما رأى السيارة-المتجر على الجبل . لقد تحولت السيارة-المتجر فجأة الى سيارة عادية ، محشوة بكوم من الخرق المختلفة .

وعبس البائع ، اذ لم يبد ان فى نية هؤلاء النسوة شراء شىء ما . فلماذا جاء الى هنا ، الى هذا المكان النائى ، عبر الجبال ؟

وهذا ما حدث . بدأت النسوة يتراجعن ، وفتر حماسهن ، وبدا كأنما أصابهن التعب . ولسبب مـا رحن يعتذرن ويبررن سلوكهن لبعضهن البعض او للبائع . وكانت الجدة اول من اشتكى من عدم توفر النقود . فاذا لـم تكن لديـــك نقود فلن تشترى البضاعة . اما الخالة بيكى فلـم تجرؤ على شراء شىء غال بدون زوجها . والخالة بيكى هى أتعس امرأة فى الدنيا لأنها لم تنجب اطفالا ، ولهذا يضربها زوجهـــا أروزكول وهو سكران ، ولهذا يتعذب الجد ، فالخالة بيكى ابنته . واشترت الخالة بيكى بعض الاشياء الصغيرة وزجاجتى فودكا . وعبثا فعلت ذلك ، ما كان ينبغى ، فهى التى ستعانى . ولم تطق الجدة صبرا فقالت بفحيح حتى لا يسمعها البائع :

- لماذا تجلبين المصيبة على نفسك ؟
فردت الخالة بيكى باقتضاب :
- أنا أدرى .
فهمست الجدة بأخفت من السابق ولكن بتشف :
- يالك من حمقاء !
ولولا البائع لوبختها كما ينبغى . أوه ، كم تتشاجران ! . .
وتدخلت جول جمال الشابة لانقاذ الموقف . وراحت تشرح للبائع ان زوجها سيد أحمد سيذهب الى المدينة عما قريب ، وفى المدينة سيكون بحاجة الى النقود طبعا ، ولذلك فهى لا تستطيع أن تبذر .
وهكذا تزاحمن بجوار السيارة المتجر ، وابتعن بضاعة «بملاليم» كما قال البائع ، وانصرفن الى بيوتهن . فهل هذه تجارة ! وبصق البائع فى اثر النسوة الذاهبات وأخذ يجمع البضائع المبعثرة لكى يجلس الى المقود ويرحل . وهنا لاحظ وجود الصبى ، فسأله :
- ماذا يا أخطل ؟ - كان الصبى ذا أذنين كبيرتين نافرتين وعنق نحيل ورأس كبير مستدير . - هل تريد ان تشترى شيئا ؟ هيا اذن بسرعة قبل ان أغلق . هل معك نقود ؟
سأل البائع هكذا ، بلا قصد وبدافع الملل . ولكن الصبى أجاب باحترام :
- لا يا عمى ، ليس معى نقود .
وهز رأسه نفيا .
فقال البائع بشك متصنع :
- كنت اظن معك . كلكم هنا اغنياء ولكنكم تتظاهرون بالفقر . وماذا فى جيبك ؟ أليست نقودا ؟
- كلا يا عمى - قال الصبى بنفس الصدق والجدية ، وقلب جيبه الممزق . (كان جيبه الثانى مغلق الفتحة بالخياطة .)
- اذن تبعثرت نقودك حيث كنت تلعب . ابحث عنها هناك وستجدها .
وصمتا .
ثم عاد البائع يسأل ثانية :
- ابن من انت ؟ ابن العجوز مأمون ، أليس كذلك ؟

وأمن الصبى برأسه :

– هل انت حفيده ؟

– نعم – وأمن الصبى برأسه ثانية .

– واين امك ؟

لم يرد الصبى . لم يكن يرغب فى الحديث عن ذلك .

– لا تصل منها أية أخبار أمك هذه . ألا تعرف ذلك ؟

– لا أعرف .

– وأبوك ؟ لا تعرف ايضا ؟

وصمت الصبى .

فأنبه البائع مازحا :

– ما لك يا صاحبى لا تعرف شيئـــا ؟ حسنا ، لا بأس . خذ – وقدم له حفنة من الحلوى – شد حيلك !

احجم الصبى خجلا .

– خذ ، خذ ، لا تعطلنى فقد حان الرحيل .

وضع الصبى الحلوى فى جيبه ، واستعد للركض خلف السيارة ليودعها الى الطريق . ونادى على «بالتيك» ، ذلك الكلب الاشعث الكسول للغاية . كان اروزكول يهدد دائما باعدامه ، فما الداعى الى الابقاء على كلب كهذا . ولكن الجد كان يرجوه ان يؤجل ذلك ، فلا بد اولا من اقتناء كلب «ولف» ، ثم بعد ذلك يأخذون «بالتيك» الى مكان ما ويتركونه هناك . لم يكن «بالتيك» يبالى بشىء ، فعندما يكون شبعا ينام ، وعندما يكون جوعان يتمسح دائما بأى شخص ، لا يفرق بين قريب او غريب ، المهم ان يلقى له بشىء ما . هكذا كان هذا الكلب «بالتيك» . ولكنه كان احيانا يركض وراء السيارات من الملل . صحيح انه لا يركض الا لمسافـــة قصيرة . ما ان ينطلق حتى يتوقف فجأة ، ويعود ادراجه . كلب لا يعتمد عليه . ومع ذلك فالركض مع كلب احسن مائة مرة من الركض بدون كلب . فمهما كان فهو كلب على اية حال . . .

وخفية ، حتى لا يرى البائع ، القى الصبى بقطعـة حلوى الى «بالتيك» . وحذره قائلا : «اسمع ، سوف نجرى طويلا» . وعوى بالتيك عواء قصيراً ، وهو يهز ذيله . كان ينتظر المزيد من الحلوى . ولكن الصبى تردد فى ان يلقى اليه بقطعة اخرى . فربما

يغضب البائع ، فهو لم يعطه حفنة كاملة من الحلوى من اجـل الكلب .

وفى هذه اللحظة ظهر الجد . كان العجوز قد ذهب الى المنحل ، ومن هناك لا يمكن ان ترى ما يحدث خلف البيوت . وها قـد تصادف ان جاء فى الوقت المناسب ، قبل ان ترحل السيارة ـ المتجر . مجرد صدفة . والا لما أصبح لدى الحفيد حقيبة . لقد ابتسم الحظ للصبى فى هذا اليوم .

كان الشيخ مأمون ، الذى سماه الحكماء «مأمون الهمام» معروفا لدى جميع سكان الناحية ، وكان هو ايضا يعرف الجميع . وقد اكتسب لقبه هذا نظرا لبشاشته المعهودة التى كان يبديها لكل من يعرفه ولو ادنى معرفة ، واستعداده الدائم لأن يفعل شيئا ما لأى شخص ولتقديم اية خدمة . الا ان جهوده لم تحظ باقل تقدير كما لا يحظى الذهب بالتقدير لو انهم راحوا فجأة يوزعونه بالمجان . لم ينظر احد الى مأمون بذلك الاحترام الذى يتمتع به من هم فى مثل سنه . كانوا يعاملونه بلا كلفة . وكان يحدث اثناء مأتم كبير لاحد كبار قبيلة بوجو – وكان مأمون ينتمى الى هذه القبيلة ويعتز بذلك جدا ولا يفوته ابدا مأتم لاحد من القبيلة – ان يكلفوه بذبح الماشية ومقابلة كبار المعزين ومساعدتهم فى النزول عن ظهور الجياد ، وتقديم الشاى ، بل وحتى تقطيع الحطب وحمل الماء . فما اكثر المطلوب عمله فى المآتم الكبيرة حيث يجتمع كثير من المعزين من شتى الانحاء . وكان مأمون يقوم بكل ما يكلف به بسرعة وخفة ، والاهم من ذلك انه لم يكن يتنصل كالاخرين : وكانت نساء النجع الشابات ، اللائى كان عليهن اطعام واستقبال هذا الحشد الهائل من الضيوف ، يقلن عندما يرين مأمون يؤدى عمله :

– ماذا كنا نفعل لولا مأمون الهمام !

وهكذا ، فان هذا الشيخ القادم مع حفيده من مكان بعيد ، يجد نفسه يؤدى دور الخادم . ولو كان احد آخر فى مكانه لمات غيظا من المهانة . ولكن مأمون لا يلقى بالا لذلك !

ولم يدهش احدا ان مأمون الهمام الشيخ يخدم الضيوف ، فطوال عمره وهو مأمون الهمام . وهو وحده المذنب فى انه مأمون

الهمام . فاذا ابدى احد الغربـــاء دهشته : كيف هذا ؟ رجـــل كبير السن ويجرى كالصبى خادما لدى النساء ، فهـــل انقرض الشبان فى هذا النجع ؟ – فان مأمون يجيب : «كان المرحوم اخى . (فقد كان يعتبر جميع البوجيين اخوته . ولكنهم كانوا بنفس الدرجة «اخوة» لبقية الضيوف .) فمن ذا غيرى يخدم فى مأتمه ؟ اننا نحن البوجيين هكذا ، اقرباء من نسل واحد ، من والدتنا الغزالة أم القرون . وقد اوصتنا امنا الغزالة بالصداقـــة فى الحياة والوفاء للذكرى . . .»

هكذا كان ، مأمون الهمام !

وكان الجميع ، كبارا وصغارا ، يخاطبونه بـ«انت» ، بل وكان من الممكن ان تسخر منه قليلا ، فهو شيخ وديع ، من الممكن الا تحسب حسابه ، فهو شيخ مسالم . وليس عبثا ان يقال ان الناس لا تغفر لمن لا يعرف كيف يجبرهم على احترامه . ولم يكن هو يعرف كيف يفعل ذلك .

كان يعرف كيف يفعل اشيـــاء كثيرة فى الحياة . كان يعرف النجارة والسراجة ورص اكوام الدريس . وعندما كان اصغر سنا كان يرص اكوام الدريس فى المزرعة التعاونية بصورة تجعلـك تشفق على هدمها فى الشتاء لاستخدامها . وكان المطر ينزلق من الكوم كما ينزلق الماء من ريش الاوز ، اما الثلج فكان يكسوه كالسقف . واثناء الحرب عمل مأمون كجندى بناء ، فشيد جدران المصانع فى مغنيتوغورسك واشتهر كعامل طليعى . وبعد الحرب عاد الى الكوردون فشيد المنازل من جذوع الاشجار ، وعمـل فى الغابة . ورغم انه كان مسجلا كعامل مساعد ، الا انه هو الذى كان يرعى شئون الغابة ، اما اروزكول ، صهره ، فكان يمضى معظـم الوقت فى ضيافة المعارف . اللهم الا اذا جاءهم الرؤساء . عندئذ يقوم اروزكول نفسه بالمرور معهم على الغابة ، وينظم لهم الصيد ، ويقوم بدور السيد . وكان مأمون يرعى الدواب ، ويعني بالمنحل . وقضى حياته من الصباح الى المساء منهمكا فى العمل ، والمشاغل ، ولكنه لم يتعلم كيف يرغم الاخرين على احترامه .

وكذلك لم يكن مظهر مأمون الخارجي يشبه هيأة «الاكسكال»*. كان يخلو من الوقار والعظمة والصرامة . كان رجلا طيبا ، ومن اول نظرة تستشف فيه هذه السمة الانسانية غير المشكورة . وفي جميع الازمان يقال لامثاله : «لا تكن طيبا ، كـــن شريرا ! تستحق ، تستحق ، كن شريرا !» ، ولكنه لسوء حظه يظل طيبا بلا امل في اصلاحه . كان وجهه بشوشا مبتسما ، مليئا بالتجاعيد ، بينما عيناه تسألان ابدا : «ماذا تريد ؟ هل تريد ان اصنع لك شيئا ما ؟ حالا ، قل لي فقط ما حاجتك» .

وكان انفه طريا ، ابعج كمنقار البطة ، وكأنـــه بلا عظام . وكانت قامته قصيرة . . كان عجوزا صغيرا كصبي مراهق .

وحتى اللحية لم يحالفه الحظ فيها . ليس فيها الا ما يثيـر السخرية . فعلى ذقنه الجرداء نبتت شعرتان او ثلاث حمراوات . . وهذه هي كل لحيته !

وشتان بينه وبين ذلك الشيخ المستقيم الظهر ، الذى قـــد تلقاه في طريقك فجأة . ولحيته كحزمة السنابل ، يرتدى معطفا من الفراء بياقة عريضة ، وقبعة من الفراء الثمين ، راكبا جوادا اصيلا ، وسرجه مفضض ، فاى حكيم ، اى نبي ! ليس عيبا ان تنحني لمثله ، ومثله يحظى بالاحترام في كل مكان ! اما مأمون فلم يزد عن كونه مأمون الهمام فحسب . وربما كانت ميزتـــه الوحيدة انه لم يكن يخشى ان يسقط من نظر اى شخص (لم يركب كما يجب ، لم يقل ما يجب ، لم يجب كما ينبغي ، لم يبتسم كما يجب ، لم . . . لم . . .) وبهذا المعنى كان مأمون ، دون ان يدرى ، انسانا سعيدا بصورة نادرة ، فالكثيرون لا يموتون بسبب الامراض بقدر ما هو بسبب الرغبة الخالدة المستعرة في ان يصوروا انفسهم امام الاخرين بافضل مما هم عليه (من ذا الذى لا يريد ان يشتهر بانه ذكي ، رفيع القدر ، جميل ، وفوق ذلك رهيب ومنصف وحازم ؟ . . .)

ولكن مأمون لم يكن كذلك . كان غريـب الاطوار ، وكانوا يعاملونه على هذا الاساس .

* يطلق لقب «اكسكال» «ذو اللحية البيضاء» بالقيرغيزية على الشيوخ احتراما . **المعرب** .

شيء واحد كان من الممكن ان يهين مأمون : ان ينسوا دعوته لحضور مجلس الاقارب لترتيب مأتم شخص ما . . . هنا كان يشعر بالاهانة المرة ويعانى كثيرا من هذه الاهانة . وليس مبعث ذلك انهم نسيوه – فهو فى المجلس على كل حال لا يقرر شيئا ، وانما يحضر فقط – بل مبعثها الاخلال باداء الواجب القديم .

وكان لدى مأمون مصائبه واحزانه التى كانت تشقيه ، ويبكى منها فى الليالى . ولم يكن الغرباء يعرفون عنها شيئا تقريبا . اما الاقرباء فكانوا يعرفون .

وعندما رأى مأمون حفيده بجوار السيارة – المتجر ادرك على الفور ان الصبى محزون لامر ما . ولكن لما كان البائع رجلا وافدا فقد توجه اليه بالحديث اولا . قفز بسرعة من السرج ، ومد يديه الاثنتين دفعة واحدة نحو البائع مصافحا ، وقال بنبرة بين الجد والهزل :

– السلام عليكم ايها التاجر الكبير ! ترى هل وصلت قافلتك بسلام ، وهل تسير امور التجارة على ما يرام ؟ – وهز مأمون يد البائع ووجهه يطفح بالبهجة – كم مر من ايام ولم نرك ! اهلا وسهلا !

ضحك البائع باستعلاء من لهجته وهيأته الرثة – نفس الحذاء الطويل القديم الرخيص ، والسروال القماشى الذى حاكته له زوجه العجوز ، والسترة المهلهلة ، والقبعة اللباد الباهتة من المطر والشمس – وقال مجيبا :

– القافلة بخير . ولكن انظر ما يحدث : البائع يأتى اليكم ، وانتم تولون عنه الى الغابات والوديان وتأمرون زوجاتكم بالحرص على القروش حرصهن على الروح . ولو اغرقتكم بالبضائع فلن يفتح احد كيس نقوده .

فاعتذر مأمون محرجا :

– سامحنا يا عزيزى . لو كنا نعرف انك ستأتى لما رحلنا . وليس ذنبنا اننا لا نملك نقودا . انتظر ، فعندما نبيع البطاطس فى الخريف . . .

فقاطعه البائع :

– دعك من هذا ! اننى اعرفكم جيدا أيها الاغنياء العفنين . تقيمون هنا فى الجبال ، وعندكم من الدريس والارض ما تريدون . والغابات من حولكم لا تحيط بها ولو سرت ثلاثة ايام . أليس لديك ماشية ؟ أليس لديك منحل ؟ وتبخلون بالقرش . اشتـــر هذه البطانية الحريرية ، او ماكينة الخياطة هذه . . لم يبق غيرها . . .

فقال مأمون معتذرا :

– أقسم بالله ليس لدى هذه النقود .

– أتظننى أصدقك ؟ انت تبخل أيها الشيـــخ ، تدخـــر النقود ، فالى اين ستأخذها ؟

– اقسم بالله ليس معى ، أقسم بأمنا الغزالة أم القرون !

– حسنا ، اشتر قطيفة ، اصنع لنفسك سروالا جديدا .

– كان بودى ، أقسم بأمنا الغزالة أم القرون . . .

فأشاح البائع بيده يأسا :

– ايه ، ما فائدة الكلام معك ! عبثا جئت اليكم . وايـــن أروزكول ؟

– خرج من الصباح ، ربما ذهب الى أكساى . لديه اعمال عند الرعاة .

فقال البائع بنبرة المتفهم :

– اذن فقد نزل عليهم ضيفا .

وحلت برهة صمت محرج .

ثم عاد مأمون يقول :

– لا تغضب منا يا عزيزى . ان شاء الله نبيع البطاطس فى الخريف . . .

– الخريف بعيد . . .

– اذن لا تؤاخذنا . بالله تعال اشرب شايا .

فرفض البائع قائلا :

– لم آت من أجل هذا .

وراح يغلق باب السيارة ، وفى هذه اللحظة نظر الى الصبى الواقف بجوار الشيخ ممسكا بأذن الكلب مستعدا للركض خلف السيارة ، وقال :

– حسنا ، اشتر ولو حقيبة . سيدخل الصبى المدرسة ، أليس كذلك ؟ كم عمره ؟

وتلقف مأمون هذه الفكرة على الفور ، فبذلك يشترى ولو شيئا من هذا البائع اللحوح ، كما ان حفيده بحاجة فعلا الى حقيبة ، ففى الخريف القادم سيذهب الى المدرسة .

وقال مأمون متلهفا :

– صحيح ، عندك حق . لم أفطن الى ذلك . طبعا بلغ سبع سنوات وبدأ الثامنة – ودعا حفيده – تعال هنا .

وبحث الجد فى جيوبه ثم استخرج ورقة بخمسة روبلات كانت مخبأة .

يبدو انها كانت مدسوسة هناك منذ زمن بعيد ، فقد كانت مجعدة .

وغمز البائع بعينه للصبى وقال وهو يسلمه الحقيبة :

– امسك يا أخطل . هيا تعلّم . فاذا لم تنجح فى المدرسة ستبقى مع جدك فى الجبال طول حياتك .

فرد مأمون وهو يحصى باقى النقود :

– سينجح ! انه ولد ذكى .

ثم نظر الى حفيده الذى كان ممسكا بالحقيبة الجديدة فى ارتباك ، وضمه اليه ، ودمدم بصوت خافت :

– هذا حسن . ستذهب فى الخريف الى المدرسة .

وغطت راحة الجد القوية الثقيلة رأس الصبى .

وشعر هذا فجأة بغصة فى حلقه ، وأحس بحدة بهزال جده وبرائحة ملابسه المألوفة . كانت تنبعث منه رائحة الدريس الجاف وعرق الانسان العامل . هذا الانسان المخلص ، الامين ، الحبيب ، وربما الانسان الوحيد فى الدنيا الذى يفيض حبا للصبى ، كان شيخا على هذه الصورة من البساطة وغرابة الاطوار ، شيخا سماه الحكماء مأمون الهمام . . . فليكن . . ايا كان هذا الجد فحسن انه موجود . .

لم يكن الصبى يحدس ان فرحته ستكون كبيرة الى هذا الحد . فحتى الآن لم تجل المدرسة بخاطره . حتى الآن كان فقط يرى الاولاد الذاهبين الى المدرسة ، هناك وراء الجبال ، فى قرى

ايصيق-كول ، حيث كان يذهب مع جده الى مآتم الشيوخ البوجيين الكبار . ومنذ تلك اللحظة لم يفترق الصبى عن حقيبته . وانطلق على الفور يطوف بجميع سكان الكوردون ووهو يهلل ويفخر . فى البداية أراها لجدته : انظرى ماذا اشترى لى جدى ! – ثم للخالة بيكى ، التى فرحت ايضا بالحقيبة وأثنت على الصبى .

نادرا ما تكون الخالة بيكى فى مزاج طيب . فهى عادة عابسة وعصبية ولا تلاحظ ابن اختها . فبيكى مشغولة عنه بهمومها . الجدة تقول : لو كان لديها اطفال لكانت امرأة اخرى تماما ، ولكان اروزكول ، زوجها ، رجلا آخر وليس كما هو الآن . وعندئذ لكان الجد مأمون رجلا آخر ايضا وليس كما هو الآن . ورغم ان لديه ابنتين – الخالة بيكى وأم الصبى ، الابنة الصغرى – ومع ذلك فليس الامر على ما يرام ، ما أسوأ الا يكون لديك اولاد ، والأسوأ من ذلـك ألا يكون لاولادك اولاد . هكذا تقول الجدة . فلتحاول ان تفهمها . . .

بعد الخالة بيكى ركض الصبى ليرى الحقيبة لجول جمال الشابة وابنتها . ومن هناك اندفع الى الحقل ليريها لسيد أحمد . ومن جديد مرّ راكضا بجوار حجر «الجمل» الاحمر ، ومن جديد لم يكن لديه وقت ليربت على سنامه ، وبجوار «السرج» و«الذئـــب» و«الدبابة» ، وبعد ذلك بحذاء الشاطىء ، ثم فى الدرب عبر حرج النبق ، ثم ركض عبر الفجوة الطويلة من العشب المحصود فى المرج حتى بلغ سيد أحمد .

كان سيد أحمد اليوم وحده . فقد فرغ الجد مـن حصـد حصته منذ وقت بعيد ، وكذلك من حصد حصـة أروزكول . وفرغوا ايضا من نقل الدريس – كانت الجدة والخالـة بيكـى تجمعانه ، ومأمون يرصه ، وهو يساعد جده فى نقل الدريس الى العربة . ورصوا كومين بجوار حظيرة الابقار . وسواهما الجـد بدقة ، بحيث لا يتسرب اليهما اى مطر . كانا كومين ناعمين كأنما سويا بمشط . وهكذا كل عام . لم يكن أروزكول يحصد العشب ، بل يلقى بالعبء على حميه فأيا كان الامر فأروزكول رئيس . كان يقول : «لو أردت لطردتكما من العمل فى غمضة عين» . ويقصد بذلك الجد وسيد أحمد . ولكنه يقول ذلك وهو سكران . فلن يستطيع

طرد الجد . فمن اذن سيعمل ؟ فليحاول ان يستغنى عن الجد ! العمل فى الغابة كثير ، وخاصة فى الخريف . فالجد يقول : «ليست الغابة قطيع غنم ، لن تتشتت . ولكنها تتطلب رعاية لا تقل عن رعاية القطيع . لانه لو شب حريق او انهمر السيل من الجبل فلن تقفز الشجرة جانبا او تفر من مكانها ، بل ستموت حيث تقف . ولهذا فحارس الغابة انما هو كذلك ليحمى الشجرة من الهلاك» .
اما سيد أحمد فلن يطرده أروزكول لأن سيد أحمد مسالـــم : لا يتدخل فى اى شيء ولا يجادل . ومع انه مسالم وقوى ، الا انه كسول ، يحب النوم . ولهذا أصبح حارس غابة . فالجد يقول : «الشبان أمثالـــه فى السوفخوز يقودون السيارات ، ويحرثون بالجرارات» . اما سيد أحمد فقد ترك العلّيق يطغى على البطاطس فى قطعة أرضه . واضطرت جول جمال بنفسها ، وهى تحمـــل طفلتها على ذراعها – الى تنظيف القطعة من الحشائش .
كما تأخر سيد أحمد فى حصد العشب . اول أمس لامه الجد على ذلك . قال له : «فى الشتاء الماضى لم أشفق عليك بل على الماشية . لهذا اقتسمت الدريس معك . فاذا كنت تطمع ثانية فى دريسي انا العجوز فلتقل لى الآن حتى أحصد بدلا منك» . وأثر ذلك فى نفس سيد أحمد فانطلق منذ الصباح حاملا حصادته .
التفت سيد أحمد عندما سمع خلف ظهره وقع اقدام سريعة ، ومسح وجهه بكمه .
– ماذا بك ؟ هل أرسلوك فى طلبى ؟
– كلا . انا عندى حقيبة . ها هى . اشتراها جدى . سأذهب الى المدرسة .
وقهقه سيد أحمد :
– أمن أجل هذا جئت ركضـــا ؟ الجد مأمون هكذا – وأدار اصبعه بجوار صدغه مشيرا الى جنون الشيخ – وأنت ايضا مثله ! حسنا أرنى هذه الحقيبة – وضغط على القفل وقلب الحقيبة بين يديه وهو يهز رأسه ساخرا ، ثم هتف – مهلا ، الى ايـــة مدرســـة ستذهب ؟ أين هى مدرستك هذه ؟
– ماذا تعنى ؟ مدرسة المزرعة .
ودهش سيد أحمد :

— هل ستذهب الى جيليساى ؟ ولكن المسافة الى هناك خمسة كيلومترات على الاقل عبر الجبال .

— جدى قال انه سيوصلنى بالحصان .

— كل يوم يوصلك ويعود بك ؟ شيخ غريب . . . آن له أن يدخل المدرسة هو الآخر . يجلس معك على التختة حتى ينتهى الدرس فيعود بك ! — وانتابت سيد أحمد موجة ضحك . ضحك كثيرا عندما تصور الجد مأمون جالسا مع حفيده على التختة المدرسية .

وصمت الصبى حائرا .

فقال سيد أحمد موضحا :

— اننى اقول هكذا ، لمجرد الضحك .

ونقر الصبى على أنفه نقرة خفيفة وشد عمرة الجد حتى غطت مقدمتها عينى الصبى . لم يكن مأمون يحمل عمرة حارس الغابة الرسمية فقد كان يخجل من ارتدائها («ماذا ، هل انا رئيس ما ؟ لن استبدل بطاقيتى القيرغيزية غيرها أبدا») . وفى الصيف كان يرتدى قبعة رثة من اللباد ، عبارة عن قلنسوة بيضاء يحيط بحوافها شريط من الساتان الاسود الباهت ، وفى الشتاء طاقية — رثة ايضا — من فراء الخراف . اما العمرة الخضراء ، الزى الرسمى لحراس الغابات ، فكان يعطيها لحفيده .

لم يرق للصبى استخفاف سيد أحمد بالنبأ . ورفع مقدمة العمرة عن عينيه عابسا ، وعندما أراد سيد أحمد ان ينقر على انفه مرة اخرى دفع رأسه الى الوراء وقال مكشرا :

— لا تلمسنى !

فضحك سيد أحمد قائلا :

— أوه ، يا لك من عابس ! حسنا ، لا تغضب . حقيبتك ممتازة — وربت على كتفه — والآن امض ، فأمامى عمل كثير . . .

وبصق سيد أحمد فى راحتيه وراح يحصد .

عاد الصبى ركضا على نفس الدرب ، ومر ثانية من جوار نفس الاحجار . لم يكن لديه وقت بعد للهو معها . فالحقيبة شىء جدى .

وكان الصبى يحب الحديث مع نفسه . ولكنه قال فى هذه المرة لا لنفسه بل للحقيبة : «لا تصدقيه ، فجدى ليس هكذا

أبدا . انه ليس ماكرا ابدا ولذلك يهزأون به . لأنه ليس ماكرا ابدا . سوف يحملني واياك الى المدرسة . انت لا تعرفين بعد اين المدرسة ؟ ليست بعيدة جدا . سأريها لك . سوف ننظر اليها بالمنظار من فوق جبل الحراسة . وسوف أريك ايضـــا سفينتي البيضاء . ولكن علينا اولا ان ندخـــل الحظيرة ، فهناك أخبيء منظاري . المفروض عليّ ان أرعى العجل ، ولكنني اركض في كل مرة لكي اتطلع الى السفينة البيضاء . عجلنا أصبح كبيرا ، اذا شدك لا تستطيع الامساك به ، وقد تعود على رضع لبن البقرة . والبقرة أمه ، ولذلك لا تبخل عليه باللبن ، اتفهمين ؟ الامهات لا يبخلن بشيء ابدا . جول جمال هي التي تقول ذلك ، ولديهـــا ابنتها . . . عما قريب سيحلبون البقرة ، ثم نطرد العجـل الى المرعى . وعندئذ نصعد معك الى جبل الحراسة ونرى من الجبل السفينة البيضاء . انني اتحدث مع المنظار ايضا . والآن سنصبح ثلاثة : انا وانت والمنظار . . .» .

هكذا مضى فى طريقه الى البيت . أعجبه جدا الحديث مـــع الحقيبة . وكان ينوي مواصلة هذا الحديث ، واراد ان يحدثها عما لا تعرفه بعد عنه . ولكن حدث ما منعه . فقد سمع بجواره وقع حوافر حصان . ومن خلف الاشجار ظهر فارس على ظهـــر جواد رمادي . كان ذلك أروزكول . وكان ايضا عائدا الى المنزل . وكان على الجواد الرمادي «ألباش» ، الذي لم يكن اروزكول يسمح لأحد غيره بركوبه ، سرج عيدي بركاب نحاسي وحزام صدر وعلاّقات فضية رنانة .

انحدرت قبعة اروزكول الى مؤخرة رأسه ، كاشفة عن جبين أحمر ضيق غزاه الشعر . وكان النعاس ينتابه من شدة الحر فنام فى السرج . وكانت السترة القطيفة التي حيكت دونما اتقان على طراز تلك التي يرتديها رؤساء المنطقة ، مفكوكة الازرار كلها . وأفلت قميصه الابيض من تحت الحزام عند بطنه . كان شبعان وسكران . فمنذ فترة قريبة كان فى ضيافة شخص ما ، يشرب «الكوميس» * ويأكل اللحم حتى التخمة .

---

* الكوميس — شراب مخمر من لبن الخيول . المعرب .

كان رعاة الخراف والخيول يستضيفون أروزكول كثيرا عندما ينتقلون الى المراعى الصيفية فى الجبال . وكان لديه بينهم اصدقاء ومعارف قدامى . ولكنهم كانوا يستضيفونه لاغراض خاصة . فأروزكول شخص مطلوب ، وخاصة لمن يريد منهم ان يشيد منزلا بينما ينبغى عليه ألا يغادر الجبال ، اذ لمن تترك القطيع ؟ وكيف اذن تحصل على مواد البناء ؟ وبالدرجة الاولى الخشب ؟ فاذا رضى عنك أروزكول فربما اعطاك جذعين او ثلاثة منتقاة من اشجار الغابة المحمية . واذا لم يرض عنك فسوف تظل تضرب مع القطيع فى الجبال ويبقى بيتك طوال عمرك قيد التشييد . . .

استقر أروزكول فى السرج ناعسا ، متراخيا فى عظمة ، وقد دس بلا اكتراث طرفى حذائه الجلدى فى الركاب .

كاد أروزكول يسقط من على ظهر الحصان لوقع المفاجأة عندما ركض الصبى نحوه وهو يلوح بالحقيبة صائحا :

– يا عم اروزكول ، عندى حقيبة ! سأذهب الى المدرسة . ها هى حقيبتى !

وشد أروزكول اللجام مذعورا ودمدم سابا :

– عليك اللعنة !

وحملق فى الصبى بعينين حمراوين من اثر النعاس منتفختين ثملتين :

– ماذا بك ؟ من اين جئت ؟

فأجاب الصبى بصوت خائر :

– انا عائد الى البيت . عندى حقيبة ، كنت أريها لسيد أحمد .

فدمدم أروزكول :

– طيب ، العب .

ومضى وهو يتأرجح فى السرج مهتزا .

ما شأنه هو وهذه الحقيبة الحمقاء ، وهذا الصبى الذى تركه والداه ، ابن اخت زوجته ، اذا كان القدر قد قسا عليه هكذا ، واذا كان الله لم يرزقه بابن من صلبه ودمه ، بينما يهب الآخرين الاطفال بسخاء ، ودون حساب ؟ . .

شن أروزكول بأنفه وشهق باكيا . كان الاسف والغضب يخنقانه . كان يأسف من ان حياته ستمر دون أثر ، واحتدم غيظا

من زوجته العاقر . كم سنـــة وهذه الملعونـــة تسير ببطن فارغ . . .

«سأريك !» قال أروزكول فى سره مهددا وهو يعصر قبضتيه المكتنزتين ، وأنّ أنّة مكتومة كى يمنع نفسه من البكاء بصوت عال . كان يعلم مسبقا انه سوف يضربها عندما يصل . فهكذا كان يحدث كلما سكر . فقد كان هذا الرجل الاشبـــه بالثور يصبح كالمجنون من الأسى والغضب .

سار الصبى على الدرب فى اثره . ودهش عندما اختفى أروزكول من امامه فجأة . لقد انعطف الرجل الى النهر ، وترجل ، والقى بعنان الحصان ومضى هائما على وجهه عبر الأعشاب العالية . كان يسير مترنحا منحنيا . كان يسير وهو يعصر وجهه براحتيه ، دافنـــا رأسه بين كتفيه . وجلس القرفصاء عند الشاطئ وراح يغرف الماء بيديه ويرشه على وجهه .

وقال الصبى لنفسه وهو يرى ما يفعله اروزكول : «يبدو انه يشعر بصداع من الحر» . لم يكن يعرف ان أروزكول يبكـى ولا يستطيع ايقاف العويل . كان يبكى لان الصبى الذى خرج للقائه لم يكن ابنه ، ولأنه لم يجد فى نفسه القدرة على ان يقول بضع كلمات انسانية لهذا الصبى ذى الحقيبة .

٢

من قمة جبل الحراسة تستطيع ان ترى كل ما حولك . واستلقى الصبى على بطنه وهو يضبط المنظار . كان منظارا ميدانيا قويا حصل عليه جده فى وقت ما كمكافأة على خدمتـه الطويلـــة فى الكوردون . ولم يكن الشيخ يحب استخدام المنظار . كان يقول : «عيونى ليست اسوأ منه» . اما الصبى فعلى العكس أحبه .

وفى هذه المرة جاء الى الجبل مع المنظار والحقيبة .

فى البداية تتراقص المرئيات وتتداخل معالمها فى فتحة الرؤية الصغيرة ، ثم تكتسب فجأة دقتها وثباتها . وكان ذلك أطرف شيء . كان الصبى يكتم انفاسه حتى لا يهتز انضباط العدسة . ثم

يحول بصره الى نقطة اخرى ، ومن جديد يختلط كل شيء . ويعود الصبى ثانية الى ادارة قرص الضبط .

من هنا يبدو كل شيء . حتى أعلى القمم الثلجية التى لا يعلو عليها شيء سوى السماء . كانت تنتصب خلف الجبال كلها ، وفوق الجبال كلها وفوق الارض كلها . وتبدو ايضا تلك الجبال الواقعة اسفل القمم الثلجية ، تلك الجبال الغابية ، المغطاة فى الاسفل بالاحراش وفى الاعلى باشجار الصنوبر الداكنة . وتبدو ايضا جبال «كونجى» المواجهة للشمس . ولم يكن ينمو على سفوح كونجى شيء سوى العشب . وتبدو ايضا تلك الجبال الاصغر فى ناحية البحيرة . . مجرد مرتفعات صخرية جرداء ، تنحدر الى الوادى ، والوادى يلتحم بالبحيرة . وفى تلك الناحية ايضا تمتد الحقول والبساتين والقرى . . . ومن خلال خضرة الحقول لاحت خطوط صفراء مؤذنة بقرب موسم الحصاد . وتراكضت سيارات صغيرة كالفئران فوق الطرق وامتدت من خلفها ذيول ترابية طويلة . وفى اقصى طرف الارض ، الى الحد الذى يدركه البصر ، ووراء شريط الساحل الرملى لاح خط البحيرة المحدب المنحنى الشديد الزرقة . كانت تلك بحيرة ايصيق-كول . هناك التقت السماء بالمياه . ولم يكن بعد ذلك شيء . كانت البحيرة تستلقى بلا حراك ، لامعة وخاوية . اللهم الا عند شريط الساحل فقد تراقصت رغوة بيضاء من تكسر الموج بصورة لا تكاد تلحظ .

حدق الصبى طويلا فى تلك الناحية . وقال للحقيبة : «السفينة البيضاء لم تظهر . هيا بنا ننظر مرة اخرى الى مدرستنا» .

من هذا المكان ظهر بوضوح الوادى المجاور خلف الجبال . وكان من الممكن ان ترى عبر المنظار خيوط الغزل فى أيدى امرأة عجوز جالسة تحت نافذة أحد البيوت .

كان وادى جيليسياى مجردا من الاشجار ، ولم تبق فيه بعد قطع اشجاره الا بضع صنوبرات وحيدة . فى زمن ما كانت هنا غابة . اما الآن فقد امتدت صفوف حظائر الماشية بأسقف اردوازية مجعدة ، ولاحت اكوام سوداء من الروث والدريس . كانت تلك حظائر تربية سلالة الابقار بمزرعة الالبان . وغير بعيد عن حظائر الماشية امتد شارع قصير لقرية مربى الماشية ، منحدرا

من ربوة مسطحة . وفى طرف الشارع استقر منزل صغير يبدو من منظره غير مأهول . وكانت تلك هى المدرسة الابتدائيـة ذات الصفوف الاربعة . اما طلبة الصفوف الأعلى فكانوا يرحلون للدراسة فى مدرسة داخلية فى السوفخوز . وفى هذه المدرسة هنا يدرس الصغار .

وكان الصبى قد زار القرية مع جده قاصدين حكيم القريـة عندما كان زوره يؤلمه . وها هو الآن يحدق عبر المنظار متفحصا هذه المدرسة الصغيرة ذات السقف القرميدى البنى والمدخنـة الوحيدة المائلة ، واللوحة الخشبيـة التى خط عليهـا باليد : «مكتب» * . ولم يكن يعرف القراءة ولكنه خمن ان هذه الكلمة بالذات هى المكتوبة هناك . كانت جميـع التفصيلات الدقيقـة واضحة عبر المنظار بصورة لا تصدق . ظهرت كلمات ما مخدوشة على طلاء الجدران ، وزجاج ملصوق فى اطار النافذة ، وألواح ارضية الشرفة الخشبية الخشنة النافرة . وتصور كيف سيأتى الى هنا مع حقيبته ويدخل من ذلك الباب الذى رأى الآن فوقه قفلا كبيرا . ترى ماذا هناك ، ما الذى ينتظره هناك خلف ذلك الباب ؟

وعندما فرغ الصبى من تأمل المدرسة ، صوب منظاره ثانية نحو البحيرة . بيد ان كل شيء هناك ظل كما هو دون تغيير . لم تظهر السفينـة البيضاء بعد . وحول الصبى بصره وأدار ظهره للبحيرة ، وأخذ يتطلع الى الاسفل ، الى سفح الجبل بعد ان نحى المنظار . كان هناك تحت الجبل مباشرة ، فى قاع الوادى المستطيل نهر فضى هادر كثير الجنادل . ومع شاطىء النهر تعرج طريق ، ومع النهر اختفى الطريق خلف انحناءة الشعب . وكان الشاطىء الآخر شديد الانحدار ، مغطى بالاشجار . من هنا تبدأ غابة سان-تاش المحمية ، الصاعدة عاليا فى الجبال حتى القمم الثلجية . اما اشجار الصنوبر فكانت تصعد اعلى الجميع ، وتبرز نافرة وسط الصخور والثلوج كالفرش الداكنة على قمم السلاسل الجبلية .

تطلع الصبى باستهزاء الى الدور والحظائر وملحقات المبانى فى فناء الكوردون . كانت تبدو من أعلى صغيرة حقيرة . وفيما وراء الكوردون على الشاطىء تبيّن احجاره المعروفة . لقد رآها كلها —

* كلمة «مكتب» بالقيرغيزية تعنى مدرسة . المعرب .

«الجمل» و«الذئب» و«السرج» و«الدبابة» – لاول مرة من هنا ، من جبل الحراسة بالمنظار ، وعندها أطلق عليها هذه الاسماء .

ابتسم الصبى بتخابث ، ونهض وقذف حجرا فى اتجاه الفناء . وسقط الحجر قريبا منه ، على الجبل . وجلس الصبى ثانية وأخذ يتملى الكوردون بالمنظار . نظر اولا من خلال العدسات الكبيرة فى اتجاه العدسات الصغيرة ، فركضت المنازل بعيدا جدا وأصبحت علبا كالدمى . وتحولت الاحجار الكبيرة الى حصى . اما الحوض الذى شيده جده فى الجزء الضحل من النهر فأصبح مضحكا تماما ، لا يبلغ عمقه ركبة عصفور . وضحك الصبى ساخرا ودار برأسه ، وعلى الفور قلب المنظار وضبط العدسات . وبدت احجاره الحبيبة التى كبرت الى احجام هائلة ، وكأنما التصقت بالمنظار . كان منظر «الجمل» و«الذئب» و«السرج» و«الدبابة» مهيبا بنتوءاتها وشقوقها وبقع الطحلب البنية على جوانبها . والاهم من ذلك انها كانت تشبه بالفعل ما رآه الصبى فيها . «أوه ، يالـــه من «ذئب» ! وهذه «الدبابة» يا سلام ! . .»

لاح حوض الجد وراء الاحجار . وظهر هذا الموضع من الشاطئ بوضوح عبر المنظار . كانت المياه تعرج على هذه المنطقة الضحلة المفروشة بالحصى بصورة عابرة اثنا تدفقها السريـــع وتفور فى تقلباتها ثم ترتد ثانية الى مجرى النهر . وكان عمق الماء فى المنطقة الضحلة يصل الى الركبة . ولكن التيار كان من القوة بحيث كان باستطاعته بسهولة ان يسحب الى النهر صبيـــا مثله . ولكى لا يسحبه التيار كان الصبى يتشبث بغصون شجيرة كانت تنبت على طرف الشاطئ تماما ، وتمتد بعض غصونها على الشاطئ بينمـا يتدلى بعضها فى النهر . فكان الصبى يمسك بها ويغطس فى الماء . ولكن اية سباحة هذه ؟ كأنه حصان مقيد . زد على ذلك المضايقات العديدة والسباب ! كانت الجدة توبخ الجد : «لو سحبـه التيار فالذنب ذنبه . لن أحرك اصبعا . ما حاجتى اليه ! أبوه وأمـه هجراه ، وانا عندى ما يكفينى من الهموم ، لم تعد لدىّ قوة» .

فماذا تقول لها ؟ عجوز وتبدو محقة . ولكنه يشفق على الغلام ، فالنهر قريب ، عند الباب تقريبا . ومهما خوفت العجوز الصبى فهو ينزل النهر رغم ذلك . عندئذ قرر مأمون ان يصنع له حوضا بسد

من الاحجار عند المنطقة الضحلة من النهر ، حتى يجد الصبى مكانا آمنا يسبح فيه .

وكم من الاحجار نقلها العجوز مأمون ، وهو يختار الكبيرة منها حتى لا يدفعها التيار ! كان يحملها ، ضاما اياها الى بطنه ويقف فى الماء ويضعها الواحد فوق الآخر بحيث تمر المياه بسهولة من بينها فى الدخول والخروج . هذا الرجل الهزيل المضحك ، بلحيته الخفيفة وسرواله المبلل الملتصق بساقيه ، ظل يوما كاملا يعمل فى هذا الحوض . وفى المساء استلقى بلا حراك وهو يسعل ولا يقوى على فرد ظهره . وهنا اطلقت الجدة لثورتها العنان : «اذا كان الصغير أحمق فله العذر ، فأى عذر للكبير الاحمق ؟ اى شيطان دفعك الى هذا ؟ تطعمه وتسقيه ، فماذا اكثر ؟ تلبى له كل نزوة ! لن يعود هذا بخير ! . .» .

وايا كان الامر فقد جاء الحوض رائعا . الآن أصبح الصبى يستحم دون خوف . كان يمسك بالغصن ويهبط من الشاطئ ، ويلقى بنفسه فى التيار . وحتما بعينين مفتوحتين . لأن السمك يسبح بأعين مفتوحة . وكانت لديه أمنية غريبة . . كان يريد أن يتحول الى سمكة . ويرحل سابحا .

وتخيل الصبى وهو ينظر الى الحوض الآن بالمنظار كيف ينزع عن جسده القميص والسروال وينزل الى الماء عاريا وهو ينكمش . فمياه الانهار الجبلية دائما باردة ، تبهر الانفاس ، ولكن بعد ذلك تألفها . تخيل كيف يمسك بغصن الشجيرة ويلقى بنفسه فى التيار ووجهه الى أسفل . وكيف ينطبق الماء فى صخب فوق رأسه ، وينساب لاسعا تحت بطنه وعلى ظهره وساقيه . وتحت الماء تخبو الاصوات الخارجية ، ولا يبقى فى الاذنين غير صوت الخرير . اما هو فيحملق بعينين مفتوحتين متفحصا كل ما يمكن رؤيته تحت الماء . وتخزه عيناه وتؤلمانه ، لكنه يبتسم لنفسه باباء بل ويخرج لسانه فى الماء . . هازئا بجدته . فلتعرف انه لن يغرق أبدا ، وانه لا يخشى شيئا البتة . وبعد ذلك يترك الغصن فيسحبه الماء ويشده الى ان تصطدم قدماه باحجار السد . وهنا ينتهى تنفسه ، فيقفز من الماء دفعة واحدة ويخرج الى الشاطئ ، ويجرى من جديد الى الشجيرة . وهكذا مرات عديدة . كان على استعداد لان

يستحم فى حوض الجد ولو مائة مرة فى اليوم . يستحم الى ان يتحول اخيرا الى سمكة . وكان يريد حتما وباية وسيلة ان يصبح سمكة . . .

ومضى الصبى يتفحص شاطئ النهر ، ثم حول المنظار الى فنائهم . بدت الدجاجات والديوك الهندية بفراخها ، والفأس المسندة الى الارومة والسماور الداخن وغيرها من الاشياء فى الفناء ، كبيرة الى درجة لا تعقل ، وقريبة الى حد جعل الصبى يمد يده لاارادىا ليلمسها . وهنا رأى ، والرعب يتملكه ، العجل البنى ، وقد جعله المنظار بحجم فيل ، يمضغ بهدوء الملابس المعلقة على حبل الغسيل . كان العجل مغمض العينين من النشوة ، واللعاب يسيل من شفتيه . لقد كان مستمتعا وهو يلوك بملء شدقيه ثوب الجدة .

وصاح الصبى وهو ينهض بالمنظار ويلوح بيده :

— ايها الاحمق ! هيا ابتعد ! أتسمع ، اغرب من هنا ! يا بالتيك ، يا بالتيك (كان الكلب يبدو فى المنظار مستلقيا بهدوء قرب البيت) عضه ، عضه ! — صاح الصبى فى الكلب بلهفة .

ولكن «بالتيك» لم يحرك ساكنا . ظل مستلقيا وكأن شيئا لم يكن .

وفى هذه اللحظة خرجت الجدة من البيت . وعندما رأت ما يحدث لوحت بيديها فى فزع . ثم التقطت المكنسة واندفعت بها نحو العجل . وجرى العجل والجدة وراءه . ودون ان يحول الصبى نظره عنها جلس حتى لا تراه فوق الجبل . وبعد أن طردت العجل توجهت الى البيت وهى تسب وتلهث من الغضب والجرى . ورآها الصبى كأنما هى بجواره او حتى أقرب . وظل يتابعها بالمنظار مركزا عليها كما فى اللقطات المكبرة فى السينما عندما لا يظهر فى المشهد الا وجه الممثل فقط . رأى عينيها الصفراوين المزرورتين غضبا . ورأى وجهها ذا التجاعيد والطيات الثقيلة وهو يحتقن كله ، وكما فى السينما ، عندما يختفى الصوت فجأة ، راحت شفتا جدته تتحركان فى المنظار دون صوت وبسرعة ، كاشفتين عن اسنانها القليلة المتباعدة . لم يكن مسموعا ما صاحت به العجوز من هذه المسافة ، ولكن الصبى تبين كلماتها بدقة ووضوح وكأنما كانت تصرخ فى أذنه . أوه كم كانت تلعنه ! كان يحفظ عن ظهر قلب

ما تقوله : «طيب ، انتظر . . . سأريك عندما تعود ! ولن أبالى بجدك . كم مرة قلت له أن يلقى بعيدا بهذه الشوّافة الحمقاء . ها هو قد هرب الى الجبل مرة اخرى . فلتخطفها مصيبة تلك السفينة الملعونة ان شاء الله تغرق ، ان شاء الله تتحرق ! . .»

زفر الصبى على الجبل مهموما . اتشاء الظروف ان يغفل عن العجل فى يوم كهذا ، عندما اشتروا له حقيبة ، وعندما راح يحلم بالذهاب الى المدرسة !

لم تكف العجوز عن السباب وهى تتفحص ثوبها الممضوغ . وخرجت اليها جول جمال مع ابنتها . وتمادت الجدة فى ثورتها وهى تشكو لها مما حدث . وأخذت تهز قبضتيها مهددة فى اتجاه الجبل . وظهرت قبضتها المعروقة السمراء منذرة امام عدسة المنظار . «وجد له لعبة . فلتخطفها مصيبة تلك السفينة الملعونة ! ان شاء الله تتحرق ، ان شاء الله تغرق ! . .» .

كان السماور يغلى فى الفناء . ومن تحت غطائه تصاعدت سحب البخار . وخرجت الخالة بيكى لتحمل السماور . وهنا بدأ كل شىء من جديد وكادت الجدة تدس ثوبها الممضوغ فى أنف بيكى ، كأنما تقول لها : هاكى ، انظرى ما حدث بسبب ابن اختك !

وأخذت الخالة بيكى تطيب خاطرها وتهدئها . وخمن الصبى ما كانت تقوله . . تقريبا مثلما كانت تقول فى السابق : «لا تغضبى يا نينة ، الصبى ما زال صغيرا ، غافلا ، فلا تؤاخذيه . انه وحده هنا ، بلا اصحاب ، لماذا تصرخين ، لا داعى لتخويف الطفل !» .

وترد الجدة بالتأكيد : «لا تنصحينى . فلتحاولى أن تلدى ، وعندئذ ستعرفين معنى مؤاخذة الاولاد . ما الذى يجعله يجلس فوق الجبل ؟ لا وقت لديه لربط العجل . عم يفتش هناك ؟ عن والديه الضالين ؟ اللذين انجباه وهربا كل فى ناحية ؟ طبعا انت مرتاحة يا عاقر ! . .»

وحتى على هذا البعد رأى الصبى فى المنظار خدى الخالة بيكى الغائرين يشحبان بصفرة الموت ، ورآها تختلج كلها ، ثم انفجرت فى وجه زوجة أبيها — وكان الصبى يعرف جيدا كيف سترد لها الصاع صاعين — «وانت ايتها العجوز ، كم ولدا وبنتا ربيت ؟ انت نفسك ، من تكونين ؟»

واية معمعة بدأت ! . . ولولت الجدة من الاهانة . وحاولت جول جمال مصالحة المرأتين ، وراحـــت تهدئ الجدة وتعانقها ، وأرادت أن تأخذها الى البيت ، ولكن العجوز ازدادت ثورة وهرولت فى الفناء كالمجنونة . والتقطت الخالة بيكى السماور الملتهب وحملته الى البيت ركضا تقريبا والماء المغلى ينسكب منـــه . اما الجدة فجلست على الارومة وقد هدها التعب . وأخذت تعول وتشكـــو بمرارة حظها التعس . وأصبح الصبى الآن منسيا ، وانصبـــت اللعنات على الرب نفسه وعلى الدنيا كلها . وصاحت الجدة بغضب فى اثر ابنة زوجها : «هكذا تقولين عنى ؟ أتسألينني من أكون ؟ انا لولا ان الله عاقبنى ، لو أنه لم يأخذ منى اطفالى الخمسة ، لو ان ابنى الوحيد لم يسقط فى الثامنة عشرة صريع رصاصة فى الحرب ، لو أن زوجى الحبيب طايجار لم يتجمد فى العاصفة الثلجية مع قطيع الغنم ، فهل كنت انا هنا ، بينكم أيها المتوحشون ؟ وهل أنا مثلك عاقر ؟ هل كنت أعيش شيخوختى مع أبيـك ، مأمون العبيط ؟ اى ذنب جنيته حتى تعاقبنى ايها الاله الملعون ؟»

نحى الصبى المنظار عن عينيه ، وطأطأ رأسه بحزن .

وقال للحقيبة بصوت خافت : «كيف سنعود الآن الى البيت ؟ كل ذلك بسببى وبسبب العجل الاحمق . وبسببك ايضا يا منظار . دائما تدعونى للنظر الى السفينة البيضاء . أنت ايضا مذنب» .

تطلع الصبى حواليه . كانت الجبال بصخورها واحجارهـــا وغاباتها تحيط به . ومن القمة الجليدية تساقطت الجداول البراقة بلا صخب ، وعندما بلغت الاسفل فقط بدا كأنما استعادت صوتها اخيرا لكى تصخب فى النهر بلا انقطاع والى الابد . وكانت الجبال تقف ضخمة بلا انتهاء . وأحس الصبى بنفسه فى هذه اللحظة صغيرا للغاية ، ووحيدا جدا ، وضائعا تماما . كان وحده مع كل هذه الجبال ، الجبال العالية فى كل مكان حوله .

مالت الشمس الى المغيب ناحية البحيرة . وخفت حدة الحر . وظهرت اولى الظلال القصيرة على السفوح الشرقية . سوف تهبط الشمس الآن اسفل فأسفل ، وستزحف الظلال الى اسفل ، نحو قاعدة الجبال . فى هذا الوقت عادة تظهر السفينة البيضاء فى بحيرة ايصيق-كول .

صوب الصبى المنظار الى أبعد نقطة مرئية وكتم انفاسه . ها هى ! وعلى الفور نسى كل شىء . . فهناك فى الامام ، فى طرف ايصيق-كول الشديدة الزرقة ، ظهرت السفينة البيضاء . انشق عنها الماء . ها هى ! بمداخنها المصفوفة ، طويلة ، قويـــة ، جميلة . كانت تسير بانتظام واستقامة كأنمـا مشدودة بوتر . ومسح الصبى عدسات المنظار بطرف قميصه على عجل ، وضبط العدسات ثانية . وأصبحت معالم السفينة اكثر تحديدا . صار من الممكن الآن ان يرى تأرجحها مع الامواج ، ومن خلفها يتبقى خط رائق مزبد . وراح الصبى يتأمل السفينة البيضاء باعجاب ونهم . ولو كان يملك لرجا السفينة البيضاء ان تقترب لكى يرى ركابها . بيد ان السفينة لم تكن تعرف ذلك ، فســـارت فى طريقها ببطء وعظمة قادمة من حيث لا يعرف احد ، ومتجهة الى حيث لا يعرف احد .

ظلت السفينة مرئية مدة طويلة ، وفكر الصبى طويلا فى انه سيتحول الى سمكة ، ويسبح فى النهر نحوها ، نحو السفينـــة البيضاء . . .

عندما رأى السفينة البيضاء فى ايصيق-كول الزرقاء لاول مرة من فوق جبل الحراسة ، دق قلبه مدويا من هذا الجمال ، حتى انه قرر على الفور ان اباه — البحار فى ايصيق-كول — لا بد يعمل عـلى هذه السفينة بالذات . وصدق الصبى ذلك ، لأنــه كان يريد ذلك بشدة .

لم يكن يذكر أباه او أمه . لم يرهما أبدا . ولم يزره واحد منهمـــا مرة واحدة . ولكنــه كان يعرف ان أباه كان بحارا فى ايصيق-كول ، وان أمه — بعد ان افترقت عن أبيه — تركت ابنها للجد وسافرت الى المدينة . ومنذ أن سافرت انقطعت اخبارها . سافرت الى المدينة البعيدة خلف الجبال ، وخلف البحيرة ثم خلف الجبال .

وذات مرة سافر الجد مأمون الى تلك المدينة ليبيع البطاطس . واختفى اسبوعا كاملا ثم عاد ، وحكى للخالة بيكى وللجدة اثناء تناول الشاى ، انه رأى ابنته ، اى أم الصبى . كانت تعمـــل نساجة فى مصنع نسيج كبير . ولديهـــا أسرة جديدة : ابنتان

سلمتهما لروضة الاطفال وتراهما مرة واحدة فى الاسبوع . وهى تعيش فى بيت كبير ، لكن فى غرفة صغيرة ، صغيرة الى درجة انك لا تستطيع أن تتحرك فيها . اما أهل البيت فلا يعرف بعضهم بعضا ، كما هو الحال فى السوق . وكلهم يعيشون على نفس المنوال ، ما ان يدخل أحدهم غرفته حتى يغلق الباب بالمفتاح . يعيشون محبوسين دائما كأنهم فى سجن . أما زوجها فيبدو أنه سائق ، يحمل الناس فى الباص عبر الشوارع . يخرج فى الرابعة صباحا ويعود متأخرا . عمل مرهق ايضا . وقال الجد ان ابنته بكت كثيرا وسألته الصفح . وقالت انهم ينتظرون الحصول على شقة جديدة ، وليس معروفا متى يحصلون عليها . ولكن بمجرد الحصول عليها ستأخذ ابنها منهم اذا وافق زوجها . وطلبت من العجوز ان يصبر قليلا . وقال لها الجد مأمون بألا تحزن . أهم شيء ان تعيش مع زوجها فى وفاق وما عدا ذلك فسوف ينصلح . ولا تشغل بالها بابنها . «فما دمت حيا لن أعطى الصبى لأحد ، واذا مت فسيرعاه الله ، وسيجد حظه فى الحياة . . .» . وكانت الخالة بيكى والجدة تصغيان الى الجد وتتنهدان بين الحين والحين ، بل لقد ذرفتا دمعة معا .

وفى تلك المرة بالذات ، اثناء تناول الشاى ، تطرق الحديث الى أبيه . فقد سمع الجد ان صهره السابق ، أبا الصبى ، ما يزال يعمل بحارا على احدى السفن ، وان لديه هو ايضا أسرة جديدة واولاد لا يدرى الجد ان كانوا اثنين ام ثلاثة . وانهم يعيشون قريبا من المرفأ . ويبدو انه اقلع عن الشراب . وزوجته الجديدة تخرج الى المرفأ مع الاولاد لتستقبله فى كل مرة . وفكر الصبى : «اذن فهم يستقبلون هذه السفينة ، سفينته . . .» .

بينما مضت السفينة تسبح مبتعدة ببطء . كانت بجسمها الابيض الطويل تنزلق على سطح البحيرة الأملس الأزرق ، مطلقة الدخان من مداخنها ، ولا تدرى ان صبيا يسبح نحوها وقد تحول الى سمكة .

كان يحلم بان يصبح سمكة بحيث يكون كل شيء فيه كما فى السمك — الجسم والذيل والزعانف ، والقشور — ولا يبقى على ما هو عليه سوى رأسه ، بعنقه النحيل ، ورأسه الكبير المستدير

بأذنيه النافرتين وأنفه المخدوش . وتبقى عيناه ايضا كما هما . لا تبقيان بالطبع كما هما تماما ، بل تحدقان كما تحدق الاسماك . فقد كانت رموشه طويلة ، كرموش العجل ، ولسبب ما كانت تطرف باستمرار من تلقاء نفسها . جول جمال تتمنى أن تصبح لابنتها مثل هذه الرموش ، اذن لأصبحت جميلة . فلماذا تصبح جميلة ؟ او تصبح جميلا ؟ من بحاجة الى ذلك ؟ هو شخصيا لا يحتاج الى اعين جميلة ، بل الى عيون ترى تحت الماء .

كان التحول ينبغي ان يحدث فى حوض الجد . هوب . . ويصبح سمكة ! وبعدها يقفز على الفور من الحوض الى النهر ، الى التيار الهادر مباشرة وينطلق معه الى أسفل . وبعد ذلك يمضى على النحو التالى : يقفز ويتلفت حواليه . . فليس من الممتنع أن تسبح تحت الماء فقط . وينطلق مع النهر السريع بحذاء الجرف الكبير الاحمر الطينى ، مارا بالجنادل والدوامات وبحذاء الجبال والغابات . ويودع أحجاره الحبيبة : «مع السلامة ايها «الجمل الراقد»، مع السلامة يا «ذئب» ، مع السلامة يا «سرج» ، مع السلامة يا «دبابة» . وعندما يمر بحذاء الكوردون يقفز من الماء ويلوح بزعنفته لجده : «مع السلامة يا جدى ، سأعود قريبا» . ويصاب الجد بالذهول من هذه الاعجوبة فلا يدرى ماذا يفعل . والجدة ، والخالة بيكى ، وجول جمال وابنتها . .. كلهم يقفون مفغورى الأفواه . اذ كيف يحدث ان يكون الرأس رأس انسان والجسم جسم سمكة ؟ أما هو فيلوح لهم بزعنفته : «مع السلامة ، أنا ذاهب الى ايصيق-كول ، الى السفينة البيضاء . فهناك أبى البحار» . ولا بد ان «بالتيك» سينطلق راكضا على الشاطىء . فالكلب لم ير شيئا كهذا ابدا . واذا همّ «بالتيك» بأن يقفز اليه فى الماء فسيصيح به : «لا تفعل يا بالتيك ! لا تفعل ! ستغرق !» ، ويمضى هو قدما . ويمر من تحت اسلاك الجسر المعلق ، ويمضى بحذاء حرش الشاطئ ، ثم يهبط مع الشعب الهادر ، ويدلف الى ايصيق-كول مباشرة .

وايصيق-كول ليست بحيرة ، انها بحر كبير . وسوف يسبح مع امواجه ، قافزا من موجة الى اخرى ، وهكذا حتى يلتقى بالسفينة البيضاء . ويقول لها : «مرحبا أيتها السفينة البيضاء، هذا أنا ! أنا

الذى كنت دائما انظر اليك بالمنظار» . ويدهش ركاب السفينة ، ويتزاحمون ليروا هذه الأعجوبة . وعندئذ يقول لأبيه البحار : «مرحبا يا أبى ، انا ابنك . لقد جئتك سابحــا» – «أى ابــن أنت؟ انت نصف سمكة نصف انسان !» – «خذنى اليك فى السفينة وسأصبح ابنك العادى» – «هذا رائع ، هيا نجرب» ، ويلقى أبوه بالشباك ويصطاده من الماء ويرفعه الى سطح السفينة . وهنا يرتد الى طبيعته . وبعد ذلك ، بعد ذلك . . .

بعد ذلك تمضى السفينة البيضاء فى طريقها . ويحكى الصبى لأبيه كل ما يعرفه ، ويروى له تاريخ حياته . يحدثــه عــن الجبال التى يعيش بينها ، وعن تلك الاحجار ، عن النهر والغابة المحمية ، عن حوض الجد الذى تعلم فيه العوم كالسمــك بأعين مفتوحة . . .

.. وسيحكى له بالطبع عن احوال معيشته لدى الجد مأمون . واياك ان يظن أبوه أنهم طالما سموه مأمون الهمام فهذا يعنى أنه سيئ . هذا الجد لا مثيل له فى أى مكان ، انه أحسن جد . ولكنه ليس ماكرا ابدا ، ولذلك يهزأ الجميع به . بل ان العم أروزكول يصيح به ، تصور ، يصيح بالشيخ ! واحيانا حتى يصيح بــه امام الناس . والجد ، بدلا من أن يدافع عن نفسه ، يغفر للعم اروزكول كل شيء ، بل ويعمل بدلا منه فى الغابة وفى تدبيــر شئون المعيشة . ودعك من العمل ! فعندما يأتى العم أروزكول مخمورا فان الجد ، بدلا من أن يبصق فى عينيه الوقحتين ، يجرى نحوه ، وينزله من على الحصان ، ويوصله الى المنزل ، ويرقده فى الفراش ، ويغطيه بمعطف الفراء لكى لا يشعر بالبرد ولكى لا يصاب بالصداع ، ثم يفك السرج وينظف الحصان ويطعمه . وكل ذلك لان الخالة بيكى عاقر . فلماذا هذا يا بابا ؟ كان من الافضل لو أن الامر هكذا : اذا شئت ان تلدى فلتلدى ، واذا لم تشائى فلا داعى . اشفق على جدى عندما يضرب اروزكول الخالة بيكى . الأفضل لو ضرب الجد نفسه . فكم يتعذب عندما تصرخ الخالــة بيكى . وما الذى يستطيع أن يفعله ؟ عندما يهم بنجدة ابنته تمنعه الجدة وتقول : «لا تحشر نفسك ، دعهما يسويان امورهما . ما دخلك انت ؟ هى ليست زوجتك ، فلا تتحرك» – «ولكنها ابنتى !»

فتقول الجدة : «وماذا كنت تفعل لو لم تكن قريبا منهما ، بيتا لبيت ، لو كنت بعيدا ؟ هل كنت تركض بالحصان فى كل مرة لتفصل بينهما ؟ ومن عندئذ يبقى ابنتك زوجة له ؟»

والجدة التى أحدثك عنها ليست تلك التى كانت . ربما لا تعرفها يا بابا . انها جدة أخرى . جدتى الأصلية ماتت عندما كنت صغيرا . وبعد ذلك جاءت هذه الجدة . والجو عندنا كثيرا ما يكون متقلبا غير مفهوم . . مرة صاف ، ومرة مكفهر ، ومرة مطر ، ومرة بَرَد . وهكذا الجدة ، غير مفهومة . مرة طيبة ، ومرة شريرة ، ومرة لا هذا ولا ذاك . واذا غضبت فالعياذ بالله . عندئذ نلزم الصمت أنا وجدى . وهى تقول ان الغريب مهما أطعمته وسقيته فلا تتوقع منه الخير . ولكنى يا بابا لست غريبا هناك . كنت دائما اعيش مع جدى . انها هى الغريبة ، هى التى جاءتنا فيما بعد ، واخذت تدعونى بالغريب .

وفى الشتاء يسقط عندنا ثلج غزير يصل الى عنقى . أوه ، ما اكثر اكوام الثلج ! فاذا ذهبت الى الغابة فلن تستطيع الا على ظهر الجواد «ألباش» الرمادى ، فهو يشق الثلج بصدره . والرياح شديدة جدا . لا تكاد تقوى على الوقوف امامها . وعندما تعلو الامواج فى البحيرة ، وعندما تتمايل سفينتك من جنب الى جنب ، فلتعلم ان رياحنا ، رياح سان-تاش تهز البحيرة . حكى لى الجد أنه فى الماضى البعيد زحفت جيوش الاعداء لتستولى على هذه الاراضى . وعند ذلك هبت من سان-تاش رياح شديدة اطاحت بالاعداء من فوق سروجهم . وحاولوا السير مترجلين فلم يستطيعوا ، فقد ساطت الرياح وجوههم حتى نزفت دما . وعندئذ اداروا ظهرهم للريح فدفعتهم فى ظهورهم ولم تمكنهم من التوقف حتى طردتهم عن آخرهم من ايصيق-كول . هذا ما حدث . اما نحن فنعيش فى هذه الريح ! انها تبدأ من عندنا . وطوال الشتاء تصر الغابة خلف النهر وتئز وتتأوه فى الريح ، حتى ليداخلك الخوف .

وفى الشتاء ليس هناك عمل كثير فى الغابة . فى الشتاء تقفر ناحيتنا تماما ، بعكس الصيف ، عندما يفد الرُحّل . وانا احب كثيرا عندما يتوقفون مع قطعان الغنم او الخيول صيفا فى المرج

الكبير للمبيت . صحيح انهم فى الصباح يواصلون سيرهم الى الجبال . ومع ذلك تشعر بالبهجة معهم . واولادهم ونساؤهم يأتون فى الشاحنات . ويحملون فى الشاحنات خيامهم وشتى اللوازم . وبعد ان يستقروا قليلا نذهب انا وجدى لنسلم عليهم . نصافحهم فردا فردا . وانا ايضا اصافحهم . جدى يقول ان الاصغر سنا ينبغى ان يمد يده اولا ليصافح . ومن لا يمد يده فانه لا يحترم الناس . ويقول جدى ايضا ان كل سبعة اشخاص يمكن ان يكون بينهم نبى . وهو رجل طيب وذكى . ومن يصافحه يصبح سعيدا مدى الحياة . وأنا أقول له : اذا كان الامر كذلك فلماذا لا يقول هذا النبى انه نبى فنصافحه جميعا . فيضحك جدى ويقول : هذه هى المسألة ، فالنبى لا يعرف انه نبى ، انه مجرد انسان . المجرم وحده هو الذى يعرف انه مجرم . وأنا لا أفهم هذا تماما ، ولكنى دائما اصافح الناس ، رغم أنى اشعر ببعض الخجل .

أما عندما نأتى الى المرج مع جدى فانى لا أخجل . «أهلا بكم فى مراعى الآباء والاجداد ، هل الماشية والناس بخير ، هل الاولاد بخير ؟» — هكذا يقول جدى . أما أنا فأصافحهم فقط . وكلهم يعرفون جدى ، وهو يعرفهم كلهم . ما أسعده . فلديه احاديثه الخاصة . انه يسأل القادمين ويحكى لهم بدوره عن احوالنا . أما انا فلا أعرف عم اتحدث مع الاولاد . ولكننا بعد ذلك نبدأ فى لعب «استغماية» و«الحرب» ، ونندمج فى اللعب حتى لا أعود ارغب فى الرحيل . لو أن الصيف يبقى دائما ، لو انه فى الامكان اللعب دائما مع الاولاد فى المرج !

وبينما نحن نلعب يوقدون النار . اتظن يا بابا أن النار تضىء المرج ؟ أبدا ! الضوء فقط حول النار ، أما ابعد من ذلك فالظلمة اشد من السابق . ونحن نلعب «الحرب» ، وفى هذا الظلام نختبىء ونهاجم ، ويخيل الينا أننا فى السينما فعلا . فاذا كنت قائدا فالجميع يطيعونك . أظن ان القائد يشعر بالسرور لأنه قائد . . .

ثم يطلع القمر من وراء الجبال . واللعب فى ضوء القمر افضل ، ولكن جدى يأخذنى . ونعود الى البيت عبر المرج وعبر الحرج . والاغنام ترقد فى سكون ، والخيول ترعى من حولها . وبينما نسير

نسمع شخصا يغنى . راع شاب او ربما عجوز . ويستوقفنى جدى قائلا : «اسمع . هذه الاغانى لا تسمعها فى كل وقت» . ونقف ونستمع . ويتنهد جدى ، ويومئ برأسه متجاوبا مع الاغنية .

يقول جدى انه فى سالف الازمان أسر خان خانا آخر . وقال هذا الخان للخان الاسير : «اذا شئت عشت عندى عبدا ، والا حققت لك أمنيتك الاخيرة ثم قتلتك» . وفكر هذا ثم أجاب «لا أرغب فى أن اعيش عبدا . الأفضل أن تقتلنى ، ولكن قبل ذلك استدع من وطنى اول راع يصادفك» – «وما حاجتك اليه ؟» – «أريد أن اسمع قبل الموت اغنية منه» . جدى يقول ان الناس يضحون بحياتهم من أجل اغنية حبيبة . فأى ناس هؤلاء ، أود لو أراهم . ربما يعيشون فى المدن الكبيرة ؟

ويهمس جدى :

– ما أمتع الاستماع ، هه ؟ يا الهى ، أية اغان كانوا يغنون ! . .

ولا أدرى لماذا أحس بالاشفاق على جدى ، ويتملكنى حب طاغ له حتى أود أن أبكى . . .

فى الصباح الباكر لا يبقى أحد فى المرج ، فقد سيقت الاغنام والخيول الى الجبال لقضاء الصيف كله هناك . ثم يأتى بعدهم رحّل آخرون من مزارع تعاونية اخرى . وبالنهار لا يتوقفون بل يمضون قدما . اما فى الليل فيبقون للمبيت فى المرج ، فنذهب مع جدى لمصافحتهم . كم يحب جدى مصافحة الناس ، وقد تعلمت منه ذلك . وربما قدر لى أن اصافح يوما ما نبيا حقيقيا فى المرج . . .

وفى الشتاء يسافر العم أروزكول والخالة بيكى الى المدينة لزيارة الطبيب . ويقال ان الطبيب يمكن أن يساعد ، ويعطى أدوية تمكن من انجاب الاطفال . ولكن جدتى تقول دائما ان أحسن شىء هو زيارة المكان المقدس . وهو هناك ، وراء الجبال ، حيث ينمو القطن فى الحقول . هناك ، فى منطقة منبسطة الى درجة يصعب معها ان تتصور وجود جبل فيها ، يوجد هذا الجبل المقدس . . جبل سليمان . فاذا ذبحت شاة سوداء عند أسفل الجبل ودعوت الى الله ، وسرت صاعدا الجبل وانت تركع مع كل خطوة وتدعو الى

الله وتتوسل اليه جيدا ، فربما تلطف ورزقك طفلا . وخالتى بيكى ترغب جدا فى الذهاب الى هناك ، الى جبل سليمان . ولكن العم اروزكول لا يرغب فى ذلك كثيرا . فالمكان بعيد . وهو يقول : «هذا يتطلب نقودا كثيرة . فلا يمكن الوصول اليه الا بالطائرة عبر الجبال . ولكى تبلغ الطائرة لا بد من سفر طويل ، وهذا ايضا يحتاج الى نقود . . .» .

وعندما يرحلان الى المدينة نبقى فى الكوردون وحدنا تماما . انا وجدى وجدتى ، وجيراننا : العم سيد أحمد وزوجته جول جمال وابنتهما الصغيرة . ولا أحد سوانا .

وفى المساء ، عندما يفرغ جدى من اعماله ، يروى لى الحكايات . وفى تلك الساعة اعرف ان الليل فى الخارج مظلم جدا ، قارس جدا ، والريح تجول شرسة . وحتى أعتى الجبال تشعر بالخوف فى تلك الليالى فتتلاصق كتلة واحدة وتقترب من بيتنا ، نحو ضوء شباكنا . ويجعلنى هذا اشعر بالرهبة والفرحة . ولو كنت عملاقا لارتديت معطفا عملاقا وخرجت من البيت . ولصحت بالجبال : «لا تخافى يا جبال ! أنا هنا ! فلتهب الريح ، وليشتد الظلام ، ولتعصف العاصفة ، فانا لا أخشى شيئا . وانت ايضا لا تخافى شيئا ، ابقى فى مكانك ، لا تتلاصقى كتلة واحدة» . ولمضيت بعد ذلك أخوض فى اكوام الثلج ولخطوت عبر الانهار وذهبت الى الغابة فالاشجار تشعر بالخوف الشديد اثناء الليل فى الغابة . انها وحدها ، وليس هناك من يقول لها كلمة . والاشجار العارية تقف مقرورة فى الصقيع ولا تستطيع ان تختبئ فى اى مكان . واذن لمضيت اسير فى الغابة وأربت على جذع كل شجرة لكى أبدد خوفها . وربما تكون تلك الاشجار التى لا تخضر فى الربيع قد تجمدت من الرعب . وفيما بعد نقطعها ونصنع منها حطبا .

انني افكر فى هذا كله عندما يروى لى جدى الحكايات . وهو يروى طويلا . ولديه حكايات مختلفة ، منها المضحك ، خاصة حكاية الصبى «عقلة الصباع» الذى يدعى تشيبالاك ، والذى بلعه الذئب الجشع فجلب على نفسه المصائب . كلا ، فى البداية أكله الجمل . نام تشيبالاك تحت ورقة شجرة ، وكان الجمل يتجول فى هذه المنطقة ، فالتهمه مع الورقة . ولذلك يقولون : لا يعرف

الجمل ماذا أكل . وأخذ تشيبالاك يصرخ طالبا النجدة ، فاضطر والداه الى ذبح الجمل لانقاذ ابنهما . اما مع الذئب فكان الامر أنكى . فهو ايضا ، لحماقته ، بلع تشيبالاك ، ثم راح يبكى على ما اصابه . فقد صادف الذئب فى طريقه تشيبالاك : «ما هذه الحشرة التى تتسكع هنا ؟ سأبلعك فى غمضة عين» . فقال له تشيبالاك : «لا تلمسنى يا ذئب ، والا جعلت منك كلبا» ، فقهقه الذئب : «هاـها . . من ذا الذى رأى ذئبا يصبح كلبا ! سآكلك عقابا على وقاحتك» ، وبلعه . ثم نسى الامر . ولكنه منذ ذلك اليوم لم يعد يعرف حياة الذئاب . ما أن يقترب من الغنم متلصصا حتى يصيح تشيبالاك فى بطنه : «ايها الرعاة ، لا تناموا ! اننى انا الذئب الأغبر ، أتسلل لكى أسرق غنمة !» . ولا يدرى الذئب ماذا يفعل ، فيعض جنبيه ، ويتقلب على الارض . ولكن تشيبالاك لا يكف عن الصياح : «ايها الرعاة ، اسرعوا الى هنا ، اضربونى ، هيا !» فيهرع الرعاة الى الذئب بالهراوات ويركض هو هاربا منهم . ويدهش الرعاة وهم يركضون . ماذا دهى الذئب ، هل جن حتى يجرى ويصيح فى نفس الوقت : «الحقوا بى !» وفى تلك الاثناء يهرب الذئب . ولكن ذلك لا يخفف عنه . فحيثما يذهب يفضحه تشيبالاك . وفى كل مكان يطاردونه ويضحكون منه . وهزل الذئب من الجوع ، فلم يبق منه الا الجلد والعظم . ويقضقض الذئب اسنانه ويقول معولا : «ما هذه البلوى التى ابتليت بها ؟ لماذا أجلب على نفسى المصائب بنفسى ؟ يبدو أننى خرفت فى آخر العمر وطار عقلى» . ولكن تشيبالاك يهمس فى أذنه : «اسرع الى تاشمات فلديه نعاج سمينة ! اسرع الى بايمات ، فكلابه صماء ! اسرع الى ارمات ، فرعاته نائمون» . ولكن الذئب لا يتحرك بل يقول شاكيا : «لن أذهب الى اى مكان ، الافضل أن اذهب الى اى شخص ليستخدمنى كلبا . . .» .

أليست حكاية مضحكة يا بابا ؟ ولدى جدى حكايات اخرى حزينة ومرعبة ومقبضة . ولكن أحب حكاية لدىّ هى حكاية أمنا الغزالة ام القرون . جدى يقول ان كل من يعيش عند ايصيق-كول ينبغى ان يعرف هذه الحكاية ، وحرام الا تعرفها . ربما تعرفها يا بابا ؟ جدى يقول ان كل ما فيها صدق ، وان ذلك حدث فى زمن ما.

واننا جميعا ابناء أمنا الغزالة أم القرون . انـــا وانت والآخرون جميعا . . .

وهكذا نعيش شتاء . وما أطول الشتاء . ولولا حكايات جدى لشعرت بالملل الشديد فى الشتاء .

أما فى الربيع فاحوالنا طيبة . فعندما يعم الدفء يأتى الرعاة الى الجبال . وعندئذ لا نصبح وحدنا فى الجبال . صحيح انـه لا يوجد أحد بعدنا ، فيما وراء النهر . هناك الغابة فقط ، وكل ما فى الغابة . ونحن انما نعيش فى الكوردون حتى نمنع اى شخص من الوصول اليها ، وحتى لا يمس أحد غصن شجرة ، بل لقد جاء الينا ذات مرة علماء . امرأتان ، والاثنتان ترتديان السراويل ، ورجل عجوز ، وشاب . كان هذا الشاب يدرس عندهم . وعاشوا شهرا كاملا . كانوا يجمعون الاعشاب واوراق الشجر والاغصان . وقالوا انه لم يبق فى العالم الا القليل جدا من الغابات التى تشبه غاباتنا فى سان-تاش . بل يمكن القول انه لم يبق شىء تقريبا . ولذلك ينبغى الحرص على كل شجرة فى الغابة .

أما أنا فكنت أظن أن جدنا يحرص على كـل شجرة هكذا ، لمجرد الحرص . وهو يكره بشدة عندمـا يهدى أروزكول جذوع شجر الصنوبر . . .

٣

ابتعدت السفينة البيضاء . ولم تعد مداخنها ترى بالمنظار . وعما قريب ستختفى تماما . لقد آن للصبى الآن أن يضع نهاية لرحلته على سفينة أبيه . كان كل شىء يمضى فى خياله على ما يرام ، أما النهاية فاستعصت عليه . كان يستطيــع ان يتصور بسهولة كيف يتحول الى سمكة ، وكيف يسبــح فى النهر حتى البحيرة ، وكيف يلتقى بالسفينة البيضاء ، وكيف يلقى أباه . وكيف يروى له كل شىء . وبعد ذلك يتعثر تفكيره . فعلى سبيل المثال ها هو الشاطئ يلوح ، وتتجه السفينة الى المرفأ . ويستعد البحارة للنزول الى الشاطئ . وسوف يذهبون الى بيوتهم . وعلى

ابيه ايضا ان يذهب الى بيته . وعند المرفأ تنتظره زوجته وطفلاه . فما العمل ؟ هل يذهب مع أبيه ؟ وهل سيأخذه هو معه ؟ فاذا أخذه فستسأله زوجته : «من هذا ، من أين ، ولماذا ؟» . كلا . الأفضل الا يذهب . . .

وابتعدت السفينة البيضاء اكثر فأكثر فتحولت الى نقطة لا تكاد ترى . واستقرت الشمس فوق الماء . وظهر سطح البحيرة فى المنظار وهو يلمع بلون ليلكى نارى .

ابتعدت السفينة ثم اختفت . ها قد انتهت حكاية السفينة البيضاء . ينبغى أن يعود الى البيت .

رفع الصبى الحقيبة من الارض ووضع المنظار تحت ابطه . وهبط من الجبل بسرعة وهو يركض فى خط متعرج فوق السفح . وكلما اقترب من البيت ازداد قلقه . كان فى انتظاره الحساب على الثوب الذى مضغه العجل . ولم يعد يفكر فى شيء سوى فى العقاب . ولكى لا ينهار تماما قال للحقيبة : «لا تخافى . سوف يوبخوننا فقط . فأنا لم افعل ذلك عن عمد . لم اكن اعرف ان العجل هرب . حسنا ، ربما ضربونى على قفاى . سأتحمل . واذا القوا بك على الارض فلا تخافى ، فأنت حقيبة ولن تتحطمى . أما اذا وقع المنظار فى يد الجدة فلن يسلم . فلنخبئه اولا فى الحظيرة ، ثم نذهب الى البيت . . .»

وهذا ما فعله . وكان يخشى أن يعبر العتبة .

ولكن هدوءا مريبا كان يلف البيت . وكان الفناء خاويا وصامتا كأنما هجره أهله . واتضح ان زوج الخالة بيكى قد ضربها ثانية . ومن جديد اضطر الجد مأمون الى تهدئة أروزكول المخبول ، ومن جديد اضطر العجوز الى التوسل والضراعة اليه والتعلق بقبضتيه الهائلتين ، وهو يشهد كل هذا العار . . يرى ابنته مضروبة ، ممزقة الثياب ، معولة . ويسمع كيف تسب ابنته اقذع سباب فى حضرته ، هو أبوها . كيف تنعت بالكلبة العاقر ، والحمارة العجفاء الملعونة وغيرها من الشتائم . ويسمع كيف تولول ابنته بصراخ مجنون رهيب لاعنة حظها : «هل الذنب ذنبى فى ان الله حرمنى الانجاب ! ما اكثر النسوة اللائى يلدن كالنعاج ، أما انا فقد اصابتنى لعنة السماء ! ماذا فعلت ؟ لماذا يكون حظى

هذه الحياة ! اقتلنى أحسن ايهـــا الوحش ! هيـــا ، اضرب ، اضرب ! . . .» .

جلس العجوز مأمون حزينا فى الركن وهو لا يزال يلهث ، وقد أرخى جفنيه ، وكانت ذراعاه الراقدتان على ركبتيه ترتعشان . كان شديد الشحوب .

نظر مأمون الى حفيده ولم يقل شيئا ، وعاد فأغمض عينيه فى تثاقل . لم تكن الجدة فى البيت ، فقد ذهبت تصلح بين الخالة بيكى وزوجها وترتب البيت وترفع حطام الآنية المكسورة . هكذا هى الجدة : عندما يضرب أروزكول زوجته لا تتدخل وتمنع الجد من التدخل . وبعد الشجار تذهب للاصلاح والتهدئة . شكرا لها على أى حال .

كان الصبى يرثى اكثر شىء للجد . ففى مثـل هذه الحالات يكاد العجوز يلفظ انفاسه . كان جالسا فى الركن كالذاهل ، متواريا عن الانظار . ولم يفض بما يدور فى خاطره لاى شخص . كان مأمون فى تلك اللحظات يفكر فى أنه أصبح عجوزا ، وانه لـــم يرزق الا بابن واحد ، وحتى هذا الابن فقد استشهد فى الحرب . ولم يعد أحد يعرف عنه شيئا ، ولا أحد يذكره — ولو عاش ابنـــه فربما كان الحظ مختلفا . وحن مأمون الى زوجته المتوفاة ، التى عاش معها كل حياته . اما المصيبـــــة الكبرى فهى أن بنتيه لم تحظيا بالسعادة : فالصغرى القت اليـــه بحفيده ورحلـــت الى المدينة ، وها هى الآن تشقى بعائلـــة كبيرة فى غرفة واحدة . والثانية تتعذب هنا مع أروزكول . ورغم انه — مأمون — معها ، ورغم انه مستعد لتحمل كل شىء من اجل ابنته ، الا انها حرمت من سعادة الأم وما زالت محرومة . . . وها هى تعيش مع اروزكول منذ سنوات طويلة ، وها هى لا تطيق حياتها معه ، ولكن مـــا العمل ؟ وماذا سيحدث مستقبلا — فمن يدرى فقد يموت قريبا فهو عجوز — فكيف ستمضى حياتها ، هذه البنت المسكينة البائسة ؟

شرب الصبى على عجل لبنا رائبـــا من الكوب وأكل كسرة رغيف ، وجلس منزويا بجوار النافذة . لم يشعل المصباح ، اذ لم يشأ ان يزعج جده ، فليدعه مع افكاره .

واستغرق الصبى ايضا فى افكاره الخاصة . لم يستطع أن يفهم لماذا تغدق الخالة بيكى على زوجها الفودكا . فبعد ان يشبعها ضربا تقوم فتضع امامه زجاجة فودكا اخرى . . .

مسكينة الخالة بيكى ! كم مرة ضربها زوجها حتى كادت تموت ، ولكنها تغفر له كل ذلك . والجد مأمون ايضا يغفر له دائما . فلماذا يغفرون ؟ لا ينبغى ان تغفر لأمثال هؤلاء . انه شخص وغد ، فاسد . ولا داع لوجوده هنا . بدونه نستطيع ان نعيش .

ورسم له خياله الطفولى المستثار صورة حية للعقاب العادل . فها هم جميعا ينقضون على أروزكول ويسحبونه – هذا السمين ، الضخم ، القذر – الى النهر . وبعد أن يؤرجحوه ، يلقون به الى الدوامات فوق صخور النهر مباشرة . أما هو فيتوسل الى الخالة بيكى والجد مأمون ان يسامحاه . فليس فى وسعه أن يصبح سمكة . . .

أحس الصبى بارتياح ، بل لقد داعبه الضحك وهو يرى فى احلامه كيف يتخبط اروزكول فى مياه النهر ، وقبعته القطيفة تطفو بجواره .

ولكن الكبار ، للأسف الشديد ، لم يفعلوا ما كان الصبى يعتبره عدلا . بل كانوا يفعلون العكس تماما . اذ يأتى اروزكول الى البيت ثملا ، فيستقبلونه وكأن شيئا لم يكن . الجد يأخذ الحصان ، والزوجة تجرى لتشعل السماور . وكأنما كل ما كانوا يفعلونه هو انتظاره . أما هو فيبدأ يتقنزح : فى البداية يحزن ، ثم يبكى . ويشكو : كيف هذا ، كل شخص ، حتى من لا قيمة له ، حتى ذلك الذى لا ضرورة لان تصافحه باليد ، يملك اطفالا كما يحلو له . خمسة او حتى عشرة . فهل هو ، أروزكول ، اسوأ من الآخرين ؟ ما الذى يعيبه ؟ أم أنه لم يبلغ منصبا عاليا ؟ انه ، ولله الحمد ، كبير ملاحظى غابة محمية ! ام انه واحد من المتشردين الضالين ؟ حسنا ، فحتى الغجرى لديه من الاطفال ما يكفيه ويزيد . أم أنه مجهول النسب ولا يحظى بالاحترام ؟ كلا ، لديه كل شىء ، كل ما يبغيه حققه . لديه حصان مسرج ، وسوط فى يمينه ، وفى كل مكان يلقى الاحترام . فلماذا اذن يقيم اترابه

حفلات الزفاف لأبنائهم اما هو فلا ؟ ومن يكون بدون ابن ، بدون نسل ؟

والخالة بيكى ايضا تبكى ، وتهرول ، تريد بصورة ما أن ترضى زوجها . فتستخرج زجاجة الفودكا المخبأة . وتشرب هى ايضا من الأسى . وبمضى الوقت يتأزم الموقف . وفجأة يصبح اروزكول كالوحش ، فيصب كل غضبه عليها ، على زوجته . ولكنها تغفر له كل شىء . والجد ايضا يغفر له . لا أحد يعقل اروزكول . وعندما يفيق من سكره فى الصباح اذا بزوجته - رغم الكدمات الزرقاء فى جسمها - قد اشعلت السماور . واذا الجد قد علف الحصان شعيرا وأسرجه . ويشرب أروزكول الشاى حتى يشبع ، ويمتطى الحصان ، ويصبح من جديد رئيسا ، سيد كل الغابات فى سان-تاش . ولا يدور ببال أحد ان رجلا مثل اروزكول كان ينبغى منذ وقت بعيد ان يلقوا به فى النهر . . .

كان الظلام قد أطبق ، وحل الليل .

وهكذا انتهى ذلك اليوم الذى اشتروا فيه للصبى اول حقيبة مدرسية .

وعندما أوى الى الفراش لم يستطع ان يهتدى الى مكان يضع فيه الحقيبة . واخيرا وضعها بجوار رأسه . لم يكن الصبى يعرف - سيعرف فيما بعد - أن مثل هذه الحقيبة بالضبط ستكون لدى نصف تلاميذ الصف تقريبا . ولكن ذلك لن يؤثر فيه بشىء ، فمهما كان ستظل حقيبته اكثر الحقائب غير عادية ، حقيبة فريدة تماما . ولم يكن يعرف ايضا ان احداثا جديدة تنتظره فى حياته الصغيرة ، وانه سيأتى يوم يصبح فيه وحيدا فى الدنيا كلها ولن يكون معه سوى الحقيبة . وسيكون السبب فى كل ذلك حكايته الحبيبة عن الغزالة الأم ، أم القرون . . .

فى ذلك المساء رغب بشدة فى سماع هذه الحكاية مرة اخرى . وكان مأمون العجوز نفسه يحب هذه القصة ويرويها وكأنما رأى بنفسه كل شىء ، ويتنهد ويبكى ويصمت مستغرقا فى افكاره الخاصة . . .

ولكن الصبى لم يجرؤ على ازعاج جده . كان يدرك ان جده ليس فى حالة تسمح له برواية الحكايات . «سنطلب منه ذلك فى مرة اخرى – قال الصبى للحقيبة . – اما الآن فسأروى أنا لك عن أمنا الغزالة ، أم القرون كما يروى جدى بالضبط . وسأحكى بصوت خافت جدا حتى لا يسمع أحد ، فلتسمعى انت فقط . اننى احب ان أروى وأرى أمامى كل شئ كما فى السينما . جدى يقول ان كل هذا حقيقة ، وان هذا حدث . . .» .

٤

حدث ذلك منذ زمن بعيد . فى الازمان الغابرة السحيقة ، عندما كانت الغابات فى الارض اكثر من الاعشاب ، والمياه فى نواحينا اكثر من اليابسة ، عاشت قبيلة قيرغيزية على شاطئ نهر كبير بارد المياه . وكان هذا النهر يسمى «اينيساى» . وهو نهر يجرى فى مكان بعيد عن هنا ، فى سيبيريا . ولو ركضت على ظهر حصان لوصلت الى هناك فى ثلاثة اعوام وثلاثة اشهر . وقد أصبح اسم هذا النهر الآن «ينيسيى» ، اما فى ذلك الزمن فكان اسمه «اينيساى» . ولهذا كانت هناك اغنية تقول :

هل هناك نهر اعرض منك يا اينيساى ،
هل هناك موطن أعز منك يا اينيساى ؟
هل هناك حزن أعمق منك يا اينيساى ،
هل هناك حرية أكثر من حريتك يا اينيساى ؟

ليس هناك نهر أعرض منك يا اينيساى ،
ليس هناك موطن أعز منك يا اينيساى ،
ليس هناك حزن أعمق منك يا اينيساى ،
ليس هناك حرية أكثر من حريتك يا اينيساى . . .

هكذا كان هذا النهر ، اينيساى .
وكانت شعوب مختلفة تعيش على ضفاف اينيساى آنذاك .

وكانت حياتهم شاقة لأنهم كانوا فى عداء دائـــم . واحاط اعداء كثيرون بالقبيلة القيرغيزية . فكان هؤلاء يغيرون عليها مرة ، واولئك مرة اخرى ، واحيانــــا كان القيرغيزيون يغيرون عـــلى الآخرين ، فينهبون الماشية ويحرقون البيوت ويقتلون الناس . كانوا يقتلون كل من يستطيعون قتلهم . . فهكذا كانت تلـــك الازمان . لم يكن الانسان يشفق على الانسان . كان الانسان يبيد الانسان . ووصل الامر الى حد انه لم يعد هناك من يزرع القمح ويربى الماشية ويخرج الى الصيد . وأصبح العيش عن طريق النهب أسهل . ما عليك الا ان تأتى وتقتل وتنهب . ولكن القتل يتطلب الرد بمزيد من الدماء ، والثأر بمزيد من الثأر . وكلما مضى الزمن ازدادت اراقة الدماء . وجن جنون الناس . لم يعد هناك من يصالح الاعداء . وكانوا يعتبرون اذكى الناس وأفضلهم هم اولئك الذين يتمكنون من أخذ اعدائهم على غرة ، وابادة القبيلة الاخرى عـــن آخرها والاستيلاء على ماشيتها وثروتها .

وظهر فى غابات «التايجا» طائر عجيب . كان يغنى ويبكى بصوت بشرى شاك طوال الليل وحتى الفجر ، ويعدد وهو يتنقل من غصن الى غصن : «سيجئ بلاء عظيم ، سيجئ بلاء عظيم !» . وهذا ما كان ، وحل ذلك اليوم الرهيب .

فى ذلك اليوم كانت القبيلة القيرغيزية على شاطئ اينيساى تدفن زعيمها العجوز . ظل البطل كولتشى قائدا سنوات عديدة ، وشارك فى الكثير من الحملات ، وخاض الكثير من المعارك . ونجا من الموت فى القتال ، ولكن ساعته دنت . وحزن ابناء القبيلة عليه حزنا عظيما يومين وفى اليوم الثالث استعدوا لمواراة جسده فى التراب . وحسب العادة القديمة كان من المفروض أن يحمل جسد الزعيم الى مثواه الاخير على شاطئ اينيساى المرتفـــع ، فوق الجروف والنتؤات لكى تودع روح الراحل من الأعالى اينيساى النهر الأم . فكلمـــة «اينى» تعنى الأم ، و«ساى» تعنى المجرى او النهر . ولكى تنشد روحه لآخر مرة اغنية اينيساى :

هل هناك نهر أعرض منك يا اينيساى ،
هل هناك موطن أعز منك يا اينيساى ؟

هل هناك حزن أعمق منك يا اينيساى ،
هل هناك حرية أكثر من حريتك يا اينيساى ؟

ليس هناك نهر أعرض منك يا اينيساى ،
ليس هناك موطن أعز منك يا اينيساى ،
ليس هناك حزن أعمق منك يا اينيساى ،
ليس هناك حرية أكثر من حريتك يا اينيساى . . .

وكان من المفروض عند تل الدفن ، بجوار المقبرة المفتوحة ، أن يرفعوا الزعيم فوق الرؤوس ليرى الجهات الاربع : «هذا هو نهرك . هذه هى سماؤك . هذه هى أرضــك . هؤلاء نحـن ، المولودون واياك من أصل واحد . قد جئنا جميعا لنودعك ، فلتنم مطمئنا» . وكانوا يضعون على قبر الزعيم كتلة صخرية لتبقى ذكراه للاخلاف القادمين .

وفى ايام الدفن كانت خيام القبيلة كلها تقام سلسلة عـلى امتداد الشاطئ ، لكى تستطيع كل عائلة أن تودع الزعيم من امام عتبة الدار عندما يحملون جسده الى المقبرة ، وتنكس علم الحزن الابيض وهى تعول وتبكى ، ثم تمضى الى الخيمة التالية مـع الجميع ، حيث يعددون ويبكون وينكسون علم الحزن الابيض من جديد ، وهكذا حتى نهاية الطريق ، حتى تل الدفن ذاته .

وفى صباح ذلك اليوم كانت الشمس قد خرجت الى رحلـة النهار عندما انتهت جميع الاستعدادات . اخرجت الصوارى التى كانت الحراب وشعر ذيول الخيول مثبتة عليها ، والتى هى رمـز جدارة القائد العسكرى ، وأخرجت دروع الزعيم الحربية : الترس والرمح . وغطى حصانه بملاءة حداد . واستعد نافخو الابواق للنفخ فى ابواق القتال ، واستعد قارعو الطبول للدق عليها بحيث ترتج غابات التايجا ، وتطير الطيور فزعة الى السماء وتحوم زاعقة ، وتركض الوحوش فى الادغال مطلقة زئيرا رهيبا ، ويلتصق العشب بالارض ، ويتردد الصدى فى الجبال مدويا ، وتنتفض الجبال . وحلت النادبات شعرهن ليندبن نائحات البطل كولتشى . وركـع الفرسان على ركبة واحدة لكى يرفعوا على اكتافهم القوية جسده الفانى . كان الجميع مستعدين فى إنتظار نقل جثمان البطل . وعند

طرف الغابة ربطت تسعة افراس قرابين وتسعة ثيران قرابين ، وتسع تسعات من الغنم القرابين لوليمة التأبين .

وهنا وقع ما لم يكن فى الحسبان . فمهما بلـغ العداء بين الاينيسايين ، الا انهم فى ايام دفن الزعماء كانوا يمتنعون عـن محاربة الجيران . اما اليوم فقد أحاطت جحافل الاعداء خفية عند الفجر بمضرب القيرغيزيين الغارق فى الحزن ، وانقضت هذه الجحافل من مكامنها من جميع الجهات دفعة واحدة ، بحيث لم يتمكن أحد من امتطاء جواده او امتشاق سلاحه . وبدأت مجزرة لا مثيل لها . أعملوا القتل فى الجميع بلا استثناء . فهكذا خطط الاعداء لكـى يقضوا بضربة واحدة على القبيلة القيرغيزيـــة الجسور . راحوا يقتلون بالجملة حتى لا يبقى شاهد على هذه الجريمة النكراء ، وحتى لا يبقى أحد ليثأر ، وحتى تغطى رمال الزمن السافيـــة على آثار الماضى ، وكأن لم يكن شيء . . .

ان ولادة الانسان وتربيته تستغرق وقتا طويلا ، ولكن ليس هناك أسرع من قتله . وهكذا رقد الكثيرون صرعى غارقين فى بحور الدماء ، وألقى الكثيرون بانفسهم فى النهر هربا من السيوف والرماح ، فغرقوا فى امواج اينيسااى . وعلى طول الشاطـــئ ، بامتداد الجروف والنتوءات اشتعلت خيام القيرغيزيين لفراسخ طويلة وقد أحاطت بها النيران . لم يتمكن أحد من الهرب ، ولم يبق أحد على قيد الحياة . وكان كل شيء مدمرا ومحروقـــا . والقوا باجساد القتلى فى اينيســـاى من فوق الجروف . وهلل الاعداء : «هذه الارض الآن لنا ! هذه القطعان الآن لنا !» .

ورجع الاعداء بالغنائم الوفيرة ولم يلاحظوا كيف عاد من الغابة طفلان ، صبى وصبية . كان هذان الشقيان العصيان قد تسللا فى الصباح ، دون علم أهلهما ، الى الغابة القريبة لتقشير اللحـــاء لصنع السلال . واستغرقهما اللهو فلم يلحظا انهمـــا توغلا فى الغابة . وعندما سمعا ضجيج وصراخ المذبحة انطلقا عائدين ، ولكنهما لم يجدا احدا على قيد الحياة ، لا اباءهما ولا أمهاتهما ولا اخواتهما ولا اخوتهما . أصبح الطفلان بلا أصل ، بلا قبيلـــة . وركضا وهما يبكيان من كوم رماد الى آخر ولكنهما لم يجدا أحدا من الاحياء . أصبحا يتيمين فى لحظة . أصبحا وحيدين فى الدنيا كلها .

وعند الافق تصاعدت سحب الغبار ، فقد ساق الاعداء الى مضاربهم قطعان الخيول والاغنام التى استولوا عليها فى غزوتهم الدامية .

وعندما رأى الطفلان سحب الغبار انطلقا للحاق بالركب . ركض الطفلان صارخين باكيين وراء الاعداء الشرسين – الاطفال وحدهم هم الذين يقدمون على ذلك . فبدلا من ان يختبئا من السفاحين ركضا وراءهم ليلحقا بهم . المهم الا يبقيا وحدهما ، المهم ان يبتعدا عن هذا المكان الخراب الملعون . أمسك الصبى بيد الصبية وركضا خلف الركب وهما يصرخان طالبين من الاعداء ان ينتظروهما ويأخذوهما معهم . ولكن اصواتهما الضعيفة ضاعت فى ضجيج الركب السريع وصهيل الخيول ووقع الحوافر .

ركض الصبى والصبية طويلا فى أسى ، ولكنهما لم يلحقا بالركب . ثم سقطا على الارض وهما يخشيان ان ينظرا حولهما او يتحركا . استولى عليهما رعب رهيب . والتصق كل منهما بالآخر ولم يلحظا كيف ناما .

حقا يقال ان اليتيم محروس . فقد مرت الليلة بسلام . لم يمسسهما وحش ، ولم تخطفهما غيلان الغابة . وعندما استيقظا كان الصباح قد أشرق والشمس تضيىء ، والعصافير تغنى . استيقظ الطفلان وسارا من جديد فى اثر الركب . وفى الطريق كانا يجمعان ثمار الغابة . سارا طويلا ، وفى اليوم الثالث بلغا جبلا . وعندما نظرا من اعلاه شاهدا وليمة عظيمة مقامة فى مرج عريض أخضر . الخيام المضروبة لا تعد ولا تحصى ، والنيران الموقدة لا تعد ولا تحصى ، والناس المجتمعة حول النيران لا تعد ولا تحصى . والبنات يتأرجحن فى الاراجيح وينشدن الاغانى . والمصارعون يحومون كالنسور ، ويلقى أحدهم بالآخر على الارض تسلية للنظارة . كان الاعداء يحتفلون بانتصارهم .

وقف الصبى والصبية على الجبل مترددين فى النزول . ولكن الرغبة كانت قوية فى الاقتراب من النيران حيث انتشرت رائحة لذيذة من اللحم المشوى والخبز والبصل البرى .

ولم يصمد الطفلان امام الاغراء فهبطا من الجبل . ودهش القوم للقادمين فأحاطوا بهما :

– من أنتما ؟ من اين ؟

فأجاب الصبى والصبية :

— نحن جوعى . أعطونا نأكل .

وأدرك القوم من لهجتهما من هما ، فارتفع اللغط والصخب . ونشب بينهم جدال : هل نقتلهما توا ، هذه البذرة المتبقية من الاعداء ، ام نأخذهما الى الخان . وبينما هم يتجادلون استطاعت امرأة حنون أن تدس فى يدى الطفلين قطعتى لحم خيل مسلوق . وسحبوهما الى الخان نفسه وهما يقضمان اللحم فى نهم . وادخلوهما خيمة حمراء عالية وقف امامها حراس يحملون فؤوسا فضيـــة . وانتشر فى المضرب نبأ مزعج بظهور ابناء القبيلة القيرغيزية من حيث لا يدرى أحد . فما معنى هذا يا ترى ؟ وترك الجميع العابهم وطعامهم ، وأحاطوا جمهورا غفيرا بخيمة الخان . وفى ذلك الوقت كان الخان مضطجعا على وسادة بيضاء كالثلج مع كبار جنده . وكان يشرب «الكوميس» المحلى بالعسل ، ويصغى الى اغانـــى المديح . وعندما عرف الخان بسبب مجيئهم اليه استبد به غضب رهيب : «كيف تجرؤون على ازعاجى ؟ ألم نبد القبيلة القيرغيزية عن آخرها ؟ ألم اجعلكـم اصحاب اينيساى الى الأبد ؟ فلماذا ركضتم الى هنا يا ذوى النفـــوس الجبانـــة ؟ انظروا من يقف امامكم ! — وصاح الخان — أيتها العجوز العرجاء المجدورة — وعندما خرجت العجوز من الحشد قال لها : — خذيهما الى التايجا وافعلى بهما ما تكون فيه نهاية القبيلة القيرغيزية ، حتى لا تقوم لهـا قائمة ، وحتى ينسى اسمها الى الأبد . هيا أيتهـا العجوز العرجاء المجدورة ، افعلى ما أمرتك به . . .»

اذعنت العجوز العرجاء المجدورة فى صمت ، وأمسكت بيدى الصبى والصبية وابتعدت بهما . وساروا طويلا فى الغابة ، حتى وصلوا الى شاطئ اينيساى ووقفوا على جرف عال . هنا اوقفت العجوز العرجاء المجدورة الطفلين ووضعتهما جنبا الى جنب عـلى حافة الجرف . وقبل أن تدفعهما الى أسفل قالت :

— ايها النهر العظيم اينيســـاى ! لو ألقى جبل فى اعماقك لغاص فيها كالحجر . ولو ألقيت صنوبرة عتيقة لجرفتها كالقشة . فلتستقبل مياهك حبتى رمل . . طفلين من ابناء البشر . ليس لهما مكان على وجه الارض . أنت أعلم يا اينيساى فهل انت بحاجة

الى ان أخبرك ؟ لو ان النجوم أصبحت بشرا لضاقت بهم السماء . ولو أصبحت الاسماك بشرا لضاقت بهم الانهار والبحار ، فهل انت بحاجة الى ان أخبرك يا اينيساى ؟ فلتأخذهما اليك ولتحملهما معك . وليغادرا عالمنا الشقى وهما طفلان بروحين طاهرتين وضمير طفولى لم تلوثه الاطماع الشريرة والاعمال الشريرة ، حتى لا يعرفا آلام البشر وحتى لا يتسببا فى عذاب الآخرين . خذهما خذهما يا اينيساى العظيم . . .

وراح الصبى والصبية يبكيان ، ينتحبان . وهل كان بوسعهما ان يصغيا الى كلام العجوز عندما كان مجرد النظر من الجرف الى اسفل مرعبا . كانت الامواج تتلاطم بعنف هناك فى الاعماق .

وقالت العجوز العرجاء المجدورة :

— تعانقا يا ابنائى عناق الوداع الاخير .

وشمرت عن ساعديها ليسهل عليها دفعهما من فوق الجرف — وقالت : اعذرونى يا ابنائى ، فهذا هو القدر . ورغم انى افعل ذلك عن غير ارادتى ، الا انه من أجل خيركما . . .

وما أن قالت هذه الكلمات حتى تردد بالقرب منها صوت يقول :

— انتظرى ايتها المرأة الكبيرة الحكيمة ، لا تقتلى طفلين بريئين .

والتفتت العجوز العرجاء المجدورة ونظرت فرأت ما أدهشها . رأت امامها غزالة ، أنثى مارال * ، بعيون كبيرة تنظر بعتاب وحزن . أما الغزالة نفسها فكانت بيضاء كلبن الانثى بعد أول ولادة ، وبطنها مغطى بوبر بنى كالجمل الصغير . وكانت قرونها هى الجمال بعينه . . متفرعة كأغصان الاشجار فى الخريف . وضرعها نظيف ناعم كثدى المرأة المرضعة .

وسألت العجوز العرجاء المجدورة :

— من انت ؟ ولماذا تتحدثين بلغة البشر ؟

فأجابتها الغزالة :

— انا الغزالة الأم . وقد تكلمت هكذا حتى تفهمينى وتسمعينى .

* المارال — أيل سيبيرى اصيل . **المعرب** .

— وماذا تريدين أيتها الغزالة الأم ؟

— اطلقى الطفلين ايتها المرأة الكبيرة الحكيمـــة . أرجوك اعطيهما لى .

— وما حاجتك اليهما ؟

— لقد قتل الناس ابنىّ التوأمين . اننى أبحث عن اطفال لى .

— اتريدين تربيتهما ؟

— نعم ايتها المرأة الكبيرة الحكيمة .

فضحكت العجوز العرجاء المجدورة قائلة :

— وهل فكرت جيدا أيتها الغزالة الأم ؟ انهمـــا من بنـى الانسان . وسوف يكبران فيقتلان ابناءك الغزلان .

فأجابتها الغزالة الأم :

— عندما يكبران لن يقتلا ابنائى . فسأكون لهما أما ، وهما سيكونان ابنىّ . فهل سيقتلان اخوتهما واخواتهما ؟

فهزت العجوز العرجاء المجدورة رأسها :

— أوه ، انك لا تعرفين البشر ايتها الغزالة الأم ! انهم لا يشفقون على بعضهم فما بالك بحيوانات الغابة . كان بودى ان أعطيك هذين اليتيمين لكى تتأكدى بنفسك من صدق ما أقول ، ولكن الناس سيقتلون ابنيك هذين ايضا . فلماذا تجلبين عـلى نفسك كل هذه الأحزان ؟

— سآخذهما الى ناحية نائية لن يعثر عليهما فيها أحد . فلترحمى الطفلين ايتها المرأة الكبيرة الحكيمة ولتطلقى سراحهما . سأكون لهما نعم الأم . . لقد امتلأ ضرعى باللبن . ولبنى يحن الى الاطفال . لبنى يطلب اطفالا .

ففكرت العجوز العرجاء المجدورة قليلا ثم قالت :

— حسنا ، ليكن كما تشائين . خذيهما وامضى بهما سريعا . خذى اليتيمين الى ناحيتك النائية . ولكن اذا هلكا فى الطريـــق الطويل ، واذا قتلهما قطاع طريق صادفوك ، واذا كان ردهما على جميلك النكران والجحود ، فلا تلومى الا نفسك .

شكرت الغزالة الأم العجوز العرجاء المجدورة وقالت للطفلين :

— أنا الآن امكما وانتما ابناى . سآخذ كما الى ناحية نائية ، حيث يقع بحر ايصيق-كول الحار وسط الجبال الثلجية الغابية .

وفرح الصبى والصبية وانطلقا بخفة وراء الغزالة الأم ، ام القرون . ولكنهما بعد فترة تعبا وخارت قواهما ، وكان الطريق طويلا ، من أقصى الدنيا الى أقصاها . وما كان فى مقدورهما أن يمضيا بعيدا لو لا أن ارضعتهما الأم الغزالة ، أم القرون لبنها وادفأتهما فى الليالى بجسمها . ساروا طويلا . أصبحوا بعيدين عن الموطن القديم اينيساى ، ولكن المسافة الى الموطن الجديد ، ايصيق-كول ، ما زالت طويلة جدا . قضوا صيفا وشتاء وربيعا ثم صيفا وخريفا ثم صيفا وشتاء آخر ، فربيعا ، فصيفا آخر وخريفا وهم يشقون طريقهم عبر الغابات البكر والسهوب القائظة ، والرمال المتحركة والجبال الشاهقة والانهار الهادرة . وطاردتهم قطعان الذئاب ، ولكن الغزالة الأم ، أم القرون اركبت ولديها على ظهرها وهربت بهما من الوحوش الكاسرة . وطاردهم الصيادون بالسهام على ظهور الخيل وهم يصيحون : «الغزالة سرقت اولاد الناس ! امسك ، امسك !» وأطلقوا سهامهم فى اثرهم ، ولكن الغزالة الأم ، أم القرون هربت بالطفلين من هؤلاء المنقذين المتطفلين . كانت تركض أسرع من السهام وهى تهمس فقط : «تشبثا يا ولدىّ جيدا فهم يطاردوننا !» .

واخيرا بلغت الغزالة الأم ، ام القرون بطفليها ايصيق-كول . وقفوا فوق الجبل مأخوذين . كانت السلاسل الثلجية تمتد من حولهم ، ووسط الجبال المغطاة بغابات خضراء لمعت مياه بحر لا يحيط به النظر . والامواج البيضاء فوق المياه الزرقاء والريح تدفعها من بعيد وتحملها الى بعيد ، ولا ترى لايصيق-كول بداية او نهاية . فمن احد طرفيها تشرق الشمس ، بينما الطرف الآخر ما يزال فى ظلام الليل . والجبال من حول ايصيق-كول لا تعد ولا تحصى ، ووراء هذه الجبال جبال ثلجية مثلها لا يعرف أحد عددها .

وقالت الغزالة الأم ، أم القرون :

— هذا هو وطنكما الجديد . سوف تعيشان هنا ، تحرثان الارض ، وتصيدان السمك ، وتربيان الماشية . عيشا هنا بسلام آلاف الاعوام . فليمتد نسلكما وليتكاثر . وليحفظ ابناؤكما لغتكما التى حملتماها الى هنا ، وليهنأوا بالكلام والغناء بلغتهم . عيشا

كما ينبغى للناس ان يعيشوا . وسأكون معكما ومع ابناء ابنائكما طوال الزمن . . .

وهكذا أصبح للصبى والصبية ، آخر من تبقى من القبيلة القيرغيزية ، وطن جديد ، عند ايصيق-كول المباركة الخالدة .

وسرعان ما دارت الايام . أصبح الصبى رجلا قويا واصبحت الصبية امرأة ناضجة . وعندئذ تزوجا وعاشا زوجا وزوجة . أما الغزالة الأم ، ام القرون فلم تبرح ايصيق-كول وعاشت فى الغابات المجاورة .

وذات مرة هاجت ايصيق-كول فى الفجر فجأة واضطربت . لقد جاء المخاض الى المرأة فراحت تتألم . وخاف الرجل فتسلق صخرة واخذ يصرخ :

— أين انت يا أمنا الغزالة ، أم القرون ؟ اتسمعين صخب ايصيق-كول ؟ ابنتك تلد . تعالى بسرعة يا أمنا الغزالة ، ام القرون ، ساعدينا . . .

وعند ذاك تردد من بعيد رنين متموج كرنين اجراس القوافل . واخذ ذلك الرنين يقترب شيئا فشيئا . كانت الغزالة الأم ، أم القرون قادمة ركضا . وكانت تحمل على قرونها مهد اطفال . كان المهد مصنوعا من خشب بتولا بيضاء ومن قوسه تدلى جرس فضى صغير رنان . وحتى الآن يرن هذا الجرس فوق المهود عند ايصيق-كول . وحينما تهز الأم مهد وليدها يرن الجرس الفضى ، فكأنما الغزالة الأم ، أم القرون قادمة من بعيد على عجل ، حاملة على قرونها مهدا من خشب البتولا . . .

وما أن وصلت الغزالة الأم ، أم القرون ملبية النداء حتى ولدت المرأة .

فقالت الغزالة الأم ، ام القرون :

— هذا المهد لبكريكما . وسيكون لديكما اطفال كثيرون . سبعة أبناء وسبع بنات !

ففرح الأب والأم . وسميا بكريهما «بوجوباى» تكريما للغزالة الأم ، أم القرون . وكبر بوجوباى وتزوج بحسناء من قبيلة كيبتشاك ، وأخذ نسل بوجو — نسل الغزالة الأم ، أم القرون — يتكاثر ، وأصبح نسل البوجيين عند ايصيق-كول كثيرا وقويا .

وكرم البوجيون الغزالة الأم ، ام القرون وقدسوها . وفوق مدخل خيام البوجيين كان يعلق شعار مطرز يصور قرون مارال لكي يكون واضحا من بعد ان هذه الخيمة من خيام نسل البوجيين . وعندما كان البوجيون يصدون غارات الاعداء او يتبارون فى الفروسية فانهم يطلقون صيحة : «بوجو !» فكانوا ينتصرون دائما . وفى ذلك العهد كانت تمرح فى غابات ايصيق-كول ايائل المارال البيض ذات القرون والتى كانت نجوم السماء تحسدها على جمالها . كانت تلك الايائل ابناء الغزالة الأم ، أم القرون . ولم يمسسها أحد او يسمح بأن يصيبها سوء . وعندما يرى البوجى المارال كان يترجل ويفسح له الطريق . وكانوا يقارنون جمال الحبيبة بجمال المارال الأبيض . . .

وهكذا سارت الامور الى ان مات أحد البوجيين من علية القوم ومن اكبر أثريائهم . . كان لديه من الغنم ألف ألف ، ومن الخيل الف الف ، وكل من فى المنطقة كانوا رعاة عنده . وأقام له ابناؤه مأتما عظيما . ودعوا للمأتم علية القوم من كل انحاء الدنيا . واقاموا للضيوف ألف ومائة خيمة على شاطئ ايصيق-كول . ولا يعرف قدر ما ذبح من ماشية وما شرب من كوميس وما قدم من لذيذ الطعام . وراح ابناء الثرى يخطرون فى عظمة . . ألا فلير الجميع اية ورثة كرماء وأثرياء خلّفهم الفقيد ، وكم يحترمونه ويحتفلون بذكراه . . . («آه يا بنى ، ما اسوأ أن يتيه الناس فخرا بثرواتهم لا بعقولهم !»)

أما المغنون ، الذين كانوا يمتطون جيادا أصيلة مهداة اليهم من ابناء المتوفى ، ويخطرون فى طواقى من فرو السمور وثياب من الحرير مهداة اليهم ، فراحوا يتسابقون فى الثناء على الفقيد وورثته . فأحدهم ينشد :

— أين يمكن ان ترى فى الدنيا مثل هذه الحياة السعيدة وهذا المأتم الفاخر ؟

ويغنى آخر :

— منذ بدء الخليقة لم يحدث شيء كهذا !

ويغنى ثالث :

— عندنا فحسب يحترمون الآباء هكذا ، ويمجدون ويكرمون ذكرى الوالدين ، ويعزون اسماءهم المقدسة .

ويغني رابع :

— أيها المغنون المداحون ، ما لكم تتصايحون ! هل توجد فى الدنيا كلمات تليق بهذا الكرم ، وهـل توجد كلمات جديرة بعظمة الراحل !

وهكذا ظلوا يتبارون يوما وليلة («آه يا بنى ، ما أسوأ ان يتبارى المغنون فى المديح ، اذ يتحولون مـن مغنين الى اعداء للغناء» .)

واستمر ذلك المأتم الشهير أياما طويلة وكأنما كان عيدا . وكان ابناء الثرى الغيورون يتوقون الى ان تطغى شمس مجدهم على الآخرين ، وأن يبزوا جميع الناس فى الدنيا ، وأن يذيـع صيتهم فى انحاء المعمورة . فقرروا ان يضعوا على قبر أبيهم قرون مارال لكى يعرف الجميع ان هذا قبر سلفهم العظيم من نسـل الغزالة الأم ، ام القرون («آه يا بنى ، منذ القدم قال الناس ان الثراء يلد التكبر ، والتكبر يلد السفاهة» .)

هكذا أراد ابناء الثرى ان يكرموا ذكرى أبيهـم بهذا الشرف الذى لم يسمع به من قبل ، ولم يمنعهم شىء . كـن فيكون ! أرسلوا الصيادين ، فقتل الصيادون مارالا وحزوا قرونه . كانت قرونا طويلة طول جناحى النسر ساعة الطيران . واعجبت قرون المارال الأبناء ، ففى كل قرن ثمانية عشر فرعا ، اذن فعمره ثمانية عشر عاما . حسنا وأمروا الصناع بوضع القرون على القبر .

وثار الشيوخ غضبا :

— باى حق قتلتم المارال ؟ من ذا الذى جرؤ على رفع يده على نسل امنا الغزالة ، ام القرون ؟

فأجابهم ورثة الثرى :

— لقد اصطدنا المارال فى أرضنا . وكل ما يدب ويزحـف ويطير فى ممتلكاتنا ، من الذبابة الى الجمل ، هو ملكنا . ونحن أدرى كيف نتصرف بما هو ملك لنا . اغربوا من هنا .

وضرب الخدم الشيوخ بالسياط ، واجلسوهـم على الجياد ظهورهم الى الامام ووجوههم الى الخلف وطردوهم مجللين بالعار .

ومن ذلك اليوم بدأت المصائب . . وحل بنسل الغزالة الأم ، أم القرون بلاء عظيم . راح كل واحد تقريبا يصطاد المارال الأبيض فى الغابات . واعتبر كل بوجى لزاما عليه ان يضع على قبر ابائه قرون مارال . وأصبح ذلك يعد عملا خيرا وضربا من الاحترام الخاص لذكرى الراحلين . ومن لم يستطع الحصول على القرون اعتبروه انسانا غير جدير بالاحترام . وبدأوا يتجرون فى قرون المارال وأخذوا يجمعونها ويكدسونها . وظهر من نسل الغزالة الأم ، ام القرون اناس اصبحت مهنتهم الحصول على قرون المارال وبيعها لقاء النقود («آه ، يا بنى حيثما توجد النقود فلا مجال للكلمة الطيبة ، ولا مكان للجمال» .)

وحلت ايام مهلكة للمارال فى غابات ايصيق-كول . ولم يرحمها أحد . وفرت الى الصخور المنيعة فوصلوا اليها هناك . كانوا يطلقون عليها كلاب الصيد لتطردها الى الصيادين القابعين فى الكمائن ، فيصيبونها بلا خطأ . وكانوا يبيدون المارال جملة ويقتلونه قطعانا . وكانوا يتراهنون حول من يحصل على قرون بها أفرع اكثر .

واندثر المارال . واقفرت منه الجبال . ولم يعد يسمع صوته لا فى الليل ولا ساعة الفجر . ولم يعد يرى لا فى الغابة ولا فى السهل ، ولا وهو يرعى ولا وهو يركض وقد طوح قرونه الى الوراء ، ولا وهو يقفز عبر الهاوية وكأنما طير يطير . وولد اناس لم يروا فى حياتهم كلها المارال مرة واحدة . سمعوا الحكايات عنه فقط ورأوا قرونه على المقابر .

وماذا حدث للغزالة الأم أم القرون ؟

غضبت اشد الغضب من الناس . ويقال انه عندما ضاقت الحياة على المارال بسبب الرصاص وكلاب الصيد ، وعندما لم يبق من المارال الا ما يعد على اصابع اليد ، صعدت الغزالة الأم ، ام القرون على أعلى قمة فى الجبل ، وودعت ايصيق-كول واخذت آخر أبنائها الى ما وراء الممر الجبلى الكبير ، الى ناحية اخرى وجبال اخرى .

هذا ما يجرى فى الدنيا . وهذه هى الحكاية كلها . فصدق ان شئت او لا تصدق .

وقالت الغزالة الأم ، أم القرون وهى تمضى انهـــا لن تعود أبدا . . .

٥

حل الخريف ثانية فى الجبال . وبعد الصيف الصاخب اخذ كل شيء يعود الى الهدوء الخريفى المعهود . سكن غبار قطعان الماشية وخمدت نيران الرعاة . رحلت القطعان قبل حلول الشتاء ، ورحل الناس ، وأقفرت الجبال .

لم تعد النسور تحلق اسرابا بل فرادى ، وهى تطلق صيحات شحيحة . وخفت صوت الخرير فى النهر ، فقد ألف النهر خلال الصيف مجراه واستكن وضحل . وكف العشب عن النمو وذبل من جذوره . وتعبت الاوراق من التشبث بالغصون فتساقطت هنا وهناك .

أما على أعلى قمم الجبال فكان يستقر ليلا ثلج فضى بكر . وفى الصباح تصبح سلاسل القمم الداكنة شيباء كأعراف الثعالب الفضية .

وبردت الريح فى الشعاب . بيد أن الايام كانت لا تزال مشرقة جافة .

وارتدت الغابات المواجهة للكوردون وراء النهر حلة الخريف بسرعة . فمن شاطئ النهر مباشرة وحتى حدود غابة الصنوبـــر السوداء فى الأعلى امتدت نار الخريف حريقا بلا دخان عبر الاشجار الخفيفة فوق السفح الشديد الانحدار . وكانت غياض الحور الرجراج والبتولا اكثر الاشجار سطوعا بلونها الاحمر النارى وأشدهـــا تشبثا بالصعود ، فقد ارتقت الى قمم الغابة الكبيرة الموشحـــة بالثلج ، الى مملكة الصنوبر والشوح القاتمة .

وفى غابة الصنوبر كان كل شيء نظيفا كالعادة وصارما كما فى المعبد . لم يكن هناك سوى الجذوع البنية الصلبة ، ورائحـــة الصمغ الجافة ، والاوراق الابرية البنية التى غطت ارض الغابة ، والريح المنسابة دون صوت بين قمم الصنوبرات العتيقة .

اما اليوم فمنذ الصباح لم تكف الزيغان المزعجة عن الصياح

فوق الجبال . وحوم سرب كبير فوق غابة الصنوبر وهو ينعــق بجنون . فزعت الزيغان فور ان سمعت ضربات الفؤوس ، وها هى الآن تنعق دون توقف وكأن أحدا سطا عليها فى وضح النهار ، وتتعقب رجلين كانا يسحبان جذع صنوبرة مقطوعة هابطين به من الجبل .

كانا يسحبان الجذع بسلاســل مشدودة الى حصان . وسار أروزكول فى المقدمة ممسكا بلجام الحصان من شكيمته . سار عابسا ومعطفه يشتبك بالاغصان ، وكان يلهث كبغل مشدود الى محراث . ومن ورائه ، خلف الجذع سار الجد مأمون . كان هو ايضا يشعر بالتعب ويكاد يختنق على هذا الارتفاع . وكان فى يده عصى من البتولا يسند بها الجذع اثناء سحبه . كان الجذع ينحشر بين الحين والحين فى بقايا الاشجار المجتثة تارة وفى الاحجار تارة اخرى . أما فى المنحدرات فكان يوشك عــلى الانحراف بعرض المنحدر ليتدحرج الى أسفل . ولو حدث ذلك لكانت كارثة ولأودى بحياتهما .

كان الخطر الاكبر يتهدد من يسند الجذع بالعصى . ولكــن من يدرى كيف تتطور الامور . ولهذا قفز اروزكول عدة مرات فى فزع بعيدا عن الحصان ، وفى كل مرة كان يذوب خجلا وهو يرى العجوز يسند الجذع على المنحدر ، مخاطرا بحياته ، ومنتظرا عودة اروزكول ليمسك بشكيمة الحصان . ولكن ليس صدفة ان يقال انه لكى تستر عارك ينبغى أن تدمغ بالعار الآخرين .

فيصيح أروزكول بحميه :

— ماذا ؟ أتريد أن تقضى علىّ ؟

لم يكن حولهما أحد يمكن أن يسمع هذا فيدين أروزكول ، فمن ذا الذى سمع بمعاملة كهذه لشيخ ؟ وقال العجوز على استحياء انه هو ايضا كان معرضا للوقوع تحت الجذع ، فلماذا يصرخ فيه هكذا وكأنه فعل ذلك عن عمد .

ولكن هذا الرد زاد من هياج اروزكول فصاح غاضبا :

— يا لك من شاطر ! لو قتلك الجذع فماذا يهمك ؟ لقــد عشت حياتك . ولو مت انا فمن يأخذ ابنتك العاقر ؟ من بحاجـــة اليها ، هذه العجفاء العاقر ؟

فأجابه مأمون على ذلك :

– انت رجل صعب يا ولدى . ليس لديك احترام للناس .

فوجئ أروزكول حتى انه توقف ، وقاس العجوز بنظره :

– العجائز أمثالك يرقدون من زمان عند الافران ، يدفئون مؤخراتهم على الرماد . أما انت فتتقاضى راتبا ، ايّا كان . فمن اين لك هذا الراتب ؟ عن طريقى انا . فاى احترام تريد بعد ؟

فقال مأمون مسالما :

– طيب ، طيب ، انا لم اقصد .

وهكذا سارا . وبعد ان صعدا مرتفعا آخر توقفا هنـــاك ليلتقطا انفاسهما . وابتل الحصان عرقـــا وغطت جسده رغوة كالصابون .

ولم تهدأ الزيغان وواصلت تحويمها . كانت اسرابا غفيرة ، وأخذت تنعق لدرجة بدا معها انها قررت الا تفعل شيئا اليوم سوى النعيق طول النهار .

وتمتم مأمون ليغير مجرى الحديث ويلطف ثورة أروزكول :

– انها تحس بقرب حلول الشتاء . تستعد للهجرة . – اضاف وكأنما يعتذر عن الطيور غير العاقلة – انها لا تحب ان يزعجها احد .

فاستدار أروزكول نحوه بحدة وقال وقد احمر فجأة :

– ومن الذى يزعجها ؟ – ثـم قال بصوت خافـــت وبنبرة تهديد – ماذا تقصد ايها العجوز ؟

وفكر فى نفسه : «انظر الى اى شيء يلوّح ! حسنا ، أمن اجل خاطر طيوره هذه لا ينبغى ان تلمس صنوبرة او تقطع غصنا ؟ هذا لن يكون ! انا ما زلت السيد هنا» . ونظر شذرا الى الاسراب الناعقة وقال فى نفسه : «لو معى رشاش !» واستدار وأطلق سبابا مقذعا .

لزم مأمون الصمت فليست هذه اول مرة يسمع فيها سباب صهره المقذع . وقال فى نفسه حزينا : «ها قد هاج ثانية . اذا شرب يصبح كالوحش . واذا أفاق لا تقترب منـــه . – وتساءل مأمون بأسى – لماذا يصبح الناس هكذا ؟ تقبل عليه بالخيـــر فيستقبلك بالشر . ولا يخجل ولا يراجع نفسه ، وكأنما هذا ما ينبغى ان يكون . دائما يعتبر نفسه على حق . المهم ان يكون هو

بخير . وعلى كل من حوله ان يستجيبوا لما يريد . فاذا امتنعت أجبرك . الحمد لله ان شخصا مثله يعيش فى الجبال ، فى الغابة ، وكل ما تحت يده من بشر لا يتعدى الحفنة . فماذا لو كانت لديه سلطة اكبر ؟ أعوذ بالله . . وامثاله لا ينقرضون . دائما يختطفون نصيبهم . وليس لك مهرب من امثاله . انه ينتظرك فى كل مكان ويجدك . ولكى يعيش على هواه يعصر روحك . ويبقى على حق . نعم ، امثاله لا ينقرضون . . .»

وقطع أروزكول على العجوز افكاره آمرا :

– كفى وقوفا . . هيا !

وتحركا .

منذ الصباح وأروزكول معتل المزاج . ففى الصباح عندما كان عليهما ان ينتقلا بالمعدات الى الغابة على الشاطئ الآخر ، أسرع مأمون لتوصيل حفيده الى المدرسة . لقد أصبح مخرفا هذا العجوز ! كل صباح يسرج الحصان ، ويوصل الصبى الى المدرسة ، ثم ينطلق ثانية ليعود به من المدرسة . يشغل نفسه بهذا اللقيط المهجور . يا سلام ، يقول لا يمكن ان يتأخر عن المدرسة ! وهذا العمل الذى لا يعرف الا الله كيف تكون نهايته ، يمكن تأجيله ، هكذا اذن ؟ يقول : «سأعود حالا ، سأخجل من المدرّسة لو تأخر الصبى عن الدرس» . اذن فقد وجد من يخجل منه ، هذا الاحمق ! من تكون هذه المدرسة ؟ خمس سنوات تلبس نفس المعطف . لا تراها الا حاملة الدفاتر والحقائب . تقف على الطريق تستوقف السيارات . . دائما تريد الذهاب الى المركز ، ودائما بحاجة الى شىء ما . . مرة الى فحم للمدرسة ، ومرة الى زجاج ، او طباشير ، او حتى خرق . فهل يمكن ان تعمل مدرّسة محترمة فى مثل هذه المدرسة ؟ حتى الاسم الذى اطلقوه عليها عجيب : مدرسة قزمية. وبالفعل فهى مدرسة قزمية . فما فائدتها ؟ المدرسون الحقيقيون فى المدينة . والمدارس هناك كلها من زجاج . والمدرسون يرتدون أربطة العنق . ذلك فى المدينة . . . والرؤساء هناك لا يمشون بل يركبون ، واية سيارات ! عندما تراها تود ان تنتصب جامدا وتشد قامتك الى ان تمر من امامك هذه السيارة السوداء اللامعة المنسابة . اما سكان المدينة فكأنما لا يلاحظون هذه السيارات ،

فلا وقت لديهم ، انهم مستعجلون . يركضون الى اماكن ما . نعم الحياة فى المدينة حياة بحق ! لو كان من الممكن ان انتقل الى هناك ، وادبر لى مكانا ! هناك يعرفون كيف يحترمون الانسان لمنصبه . ما دام مفروضا ان تحترمه فعليك ان تحترمه . وكلما كبر المنصب ازداد الاحترام . انهم اناس مهذبون . واذا نزلت ضيفا هناك او أخذت هدية ما فلست مضطرا مقابل ذلك ان تسحب لهم الجذوع او تفعل شيئا مثل ذلك . ليسوا مثل الناس هنا . . يعطيك الواحد خمسين روبلا ، او مائة على اقصى تقدير ، ويمضى بالخشب ، ثم يكتب شكوى بان اروزكول مرتش و . . و . . يا للجهل !

نعم ، لو انتقل الى المدينة ! اذن لأرسلت الى الشيطان هذه الجبال ، وهذه الغابات ، وهذه الجذوع الملعونة ، وهذه الزوجة الفارغة البطن ، وهذا العجوز المأفون وجروه هذا ، الذى يهتم به كأنه أعجوبة . ولرقصت طربا كالحصان الشبعان شعيرا ! ولعرفت كيف أجبرهم على احترامى : «يا أروزكول بالاجانوفتش ، هل تسمح بدخول مكتبكم ؟» ولتزوجت هناك من حضرية . ولم لا ؟ من ممثلة مثلا . . حسناء من اولئك اللائى يغنين ويرقصن وفى ايديهن ميكروفونات . يقولون ان المهم بالنسبة لهن ان يكون للشخص منصب . اذن لأخذتها وعلقت ذراعها فى ذراعى ، وسرت بربطة عنق . ثم الى السينما . اما هى فتدق بكعب حذائها ، وتنشر العطر حولها . والمارة يتشممون بانوفهم . واذا بالاولاد يولدون . اذن لجعلت الولد يدرس القانون ، والبنت تعزف على البيانو . فاطفال المدينة أذكياء . فى البيت لا يتحدثون الا بالروسية . . طبعا ، فلماذا يحشون رؤوسهم بالكلمات القروية . ولربيتهم هكذا : «بابى ، مامى أريد هذا ، أريد تلك . . .» وهل تبخل على فلذة كبدك بشىء ؟ أوه اذن لتفوق على الكثيرين ولأراهم من هو ! فهل هو اسوأ من الآخرين ؟ وهل الذين هم اعلى منه منصبا افضل منه ؟ انهم اناس مثله . كل ما هناك ان الحظ ساعدهم ، اما هو فلم يساعده . هربت منه السعادة . وهو ايضا مخطئ . فبعد دورة حراس الغابات كان ينبغى ان يذهب الى المدينة ، ويلتحق بالمعهد المتوسط ، او حتى بالعالى . لكنه تعجل . . شده اليه المنصب .

ورغم انه منصب صغير ، فهو منصب . اذن فلتمش الآن فى الجبال ولتسحب الجذوع كالحمار . وفوق ذلك هذه الطيور . . ما بالها تنعق وتحوم ؟ آه لو معى رشاش . . .

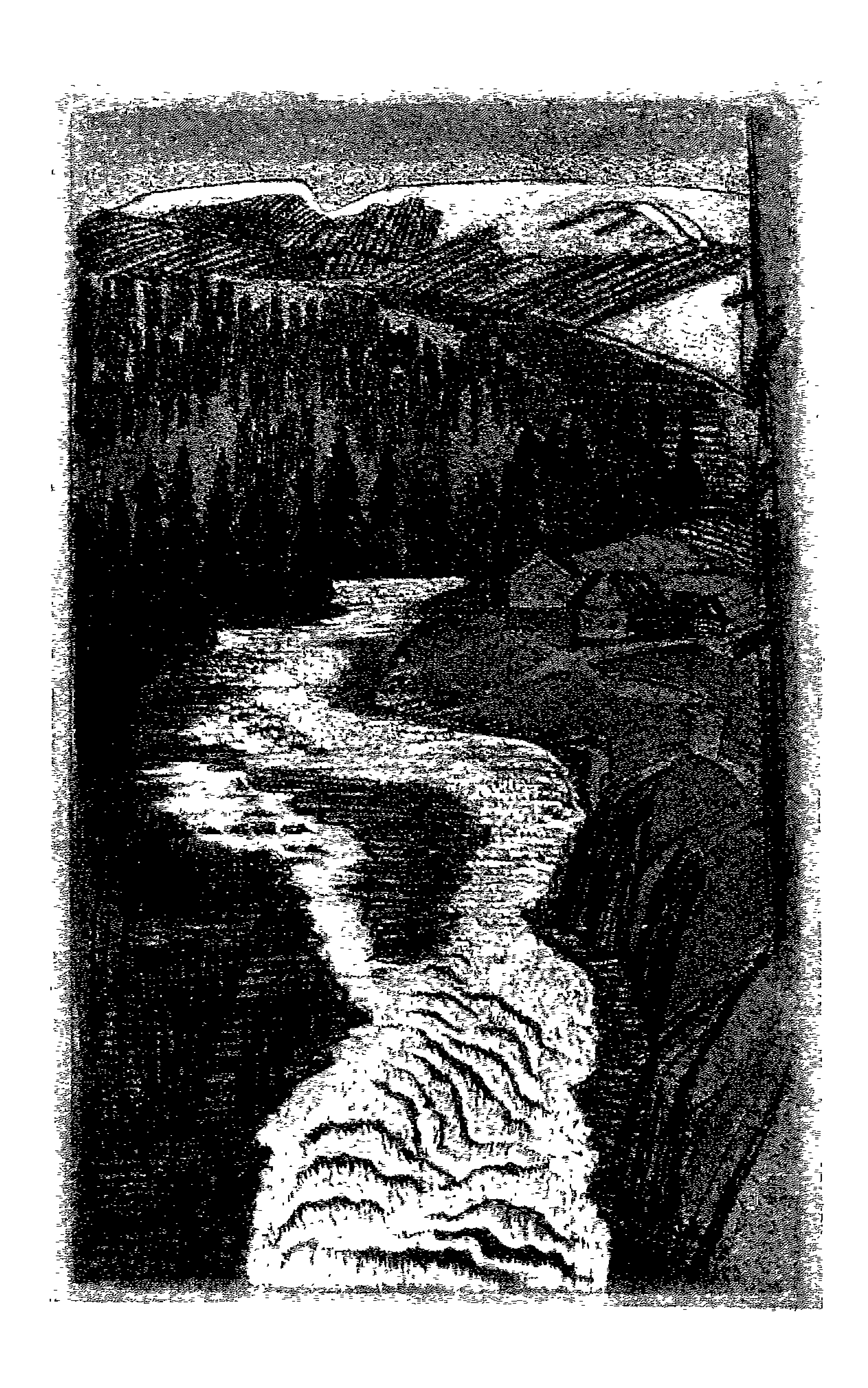
كان لاعتلال مزاج أروزكول ما يبرره . . فقد انتهت متع الصيف ، واقترب الخريف ، ومع انقضاء الصيف انقضت فترة استضافة الرعاة له . وكما تقول الاغنية : «ذبلت الزهور فى الجبال ، وحان اوان النزول الى السهل . .»

حل الخريف . وكان على أروزكول ان يدفع حساب التكريم والحفاوة ، ان يرد الديون ويفى بالوعود . وان يدفع ايضا ثمن التباهى : «ماذا تريد ؟ فقط جذعى صنوبر ؟ وهل هذا طلب ! تعال وخذ ما تشاء !»

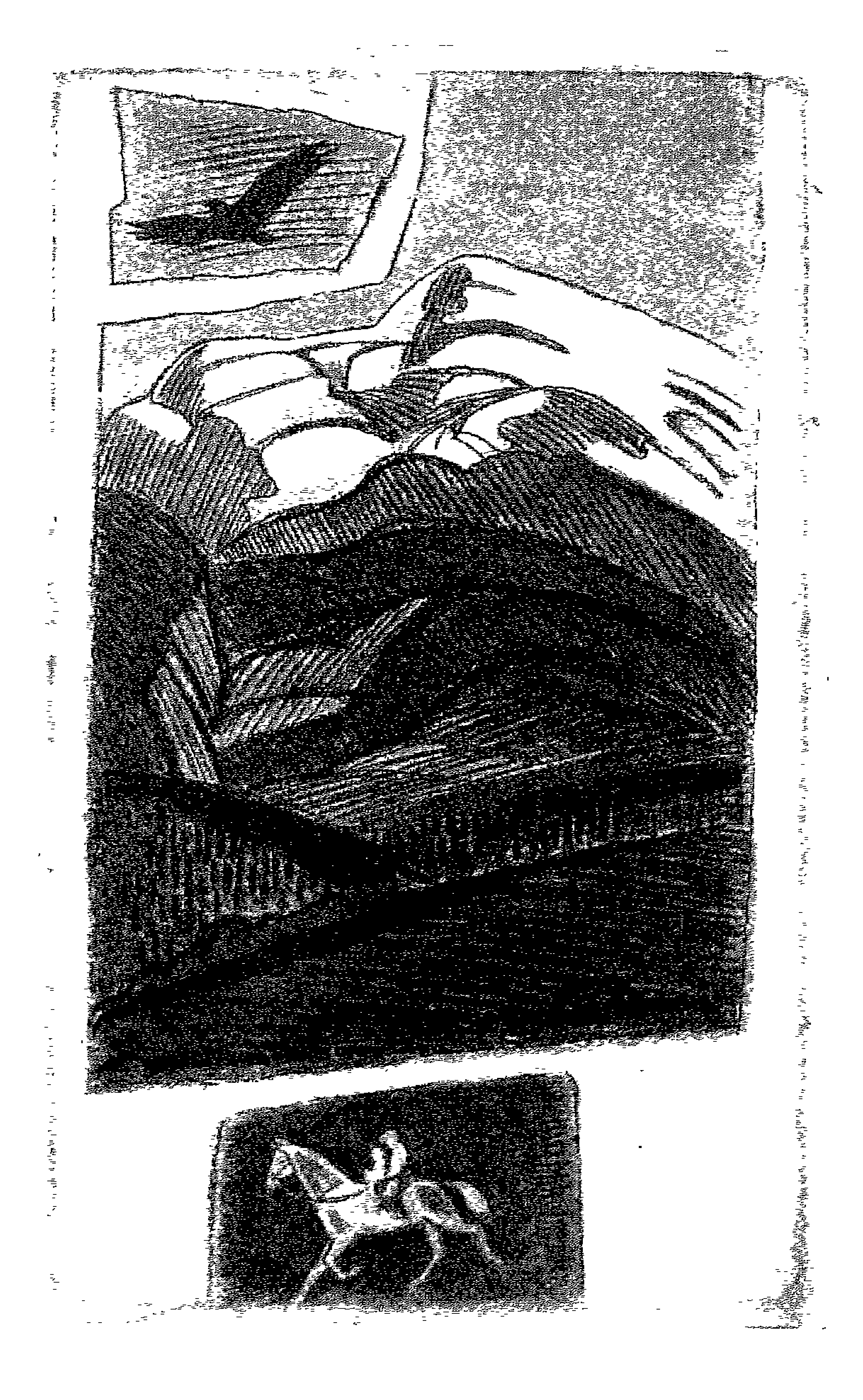
ثرثر كثيرا وتلقى الهدايا وشرب الفودكا . .. وها هو الآن يختنق ويتصبب عرقا ، ويلعن كل شىء فى الدنيا وهو يجرجر هذه الجذوع فى الجبال . انقلبت هذه الجذوع هما ثقيلا . وحياته ايضا هم ثقيل . وفجأة ومض فى ذهنه خاطر طائش : «فلأبصق على كل شىء وأرحل الى آخر الدنيا» . ولكنه أدرك فورا انه لن يرحل الى اى مكان ، فلا احد بحاجة اليه ، ولن يجد فى اى مكان هذه الحياة التى يريدها لنفسه .

فلتحاول ان ترحل من هنا او تخلف بوعدك ! اصحابه وخلانه هم الذين سيشون به . أصبح الناس لا أمان لهم . فى العام الاسبق وعد واحدا من البوجيين ، من بنى قبيلته ، بجذع صنوبر مقابل حمل أهداه له ذاك . وفى الخريف لم يرغب اروزكول فى صعود الجبل لقطع الصنوبرة . من السهل أن تعد ، لكن فلتحاول ان تصل اليها ، ثم فلتقطعها ، ثم فلتسحبها . فاذا كانت هذه الصنوبرة معمرة منذ عشرات السنين فسوف تشقى معها ! نعم ، لن تجد لديك الرغبة فى هذا العمل ولو أعطيت مقابله ذهبا . وفى ذلك الوقت بالذات مرض العجوز مأمون ولزم الفراش . وهو وحده لن يستطيع ، بل انه ليس فى وسع احد ان يقطع صنوبرة بمفرده فى الجبال . ربما استطاع ان يقطعها ، ولكنه لن يستطيع ان يسحبها الى اسفل . . . ولو كان يدرى ما سيحدث لذهب مع سيد أحمد لقطعها . ولكن أروزكول تكاسل عن الصعود الى الجبل

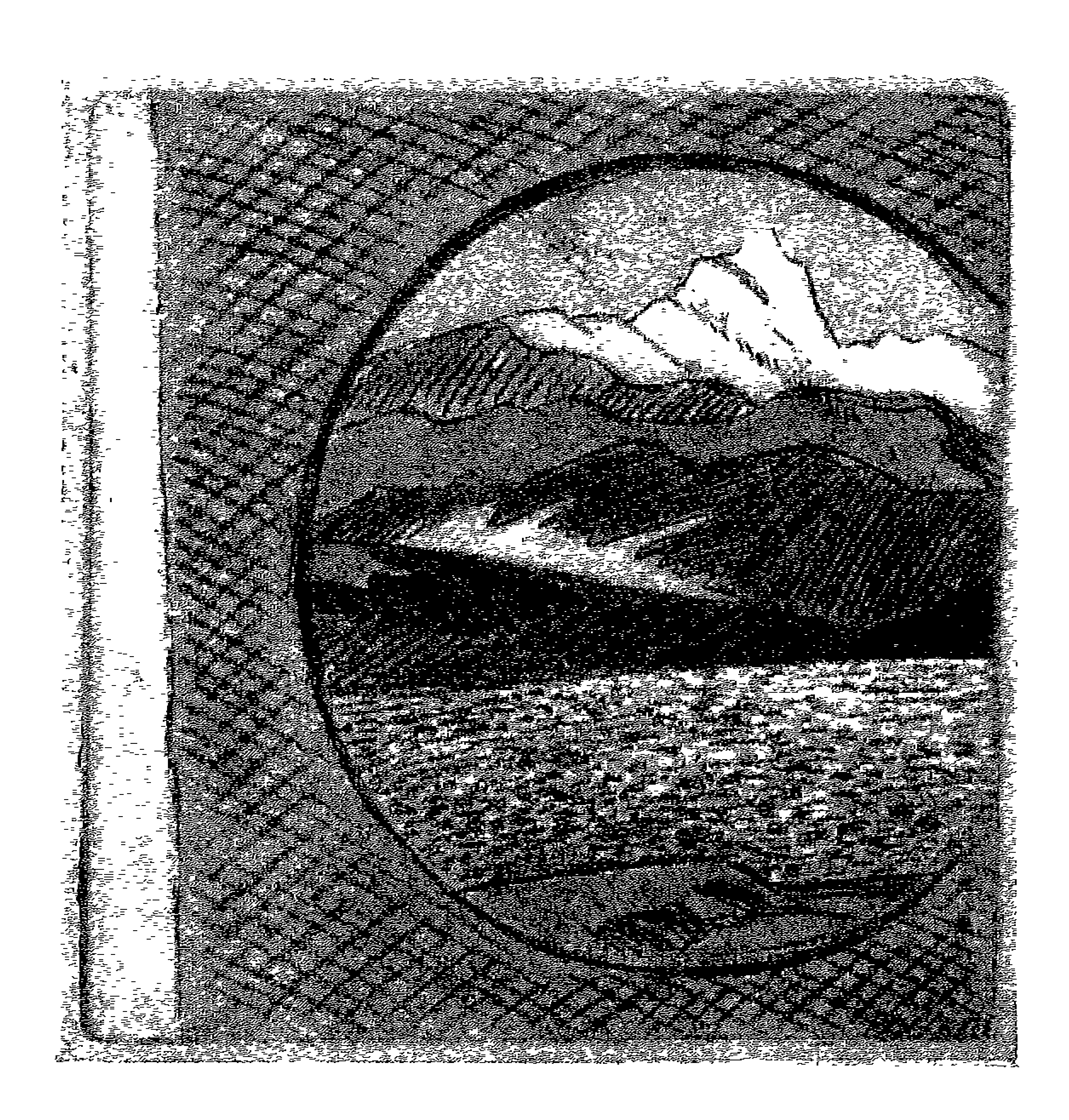
رسوم قصة
«السفينة البيضاء»
بريشة الفنان
يوري كوبيكا

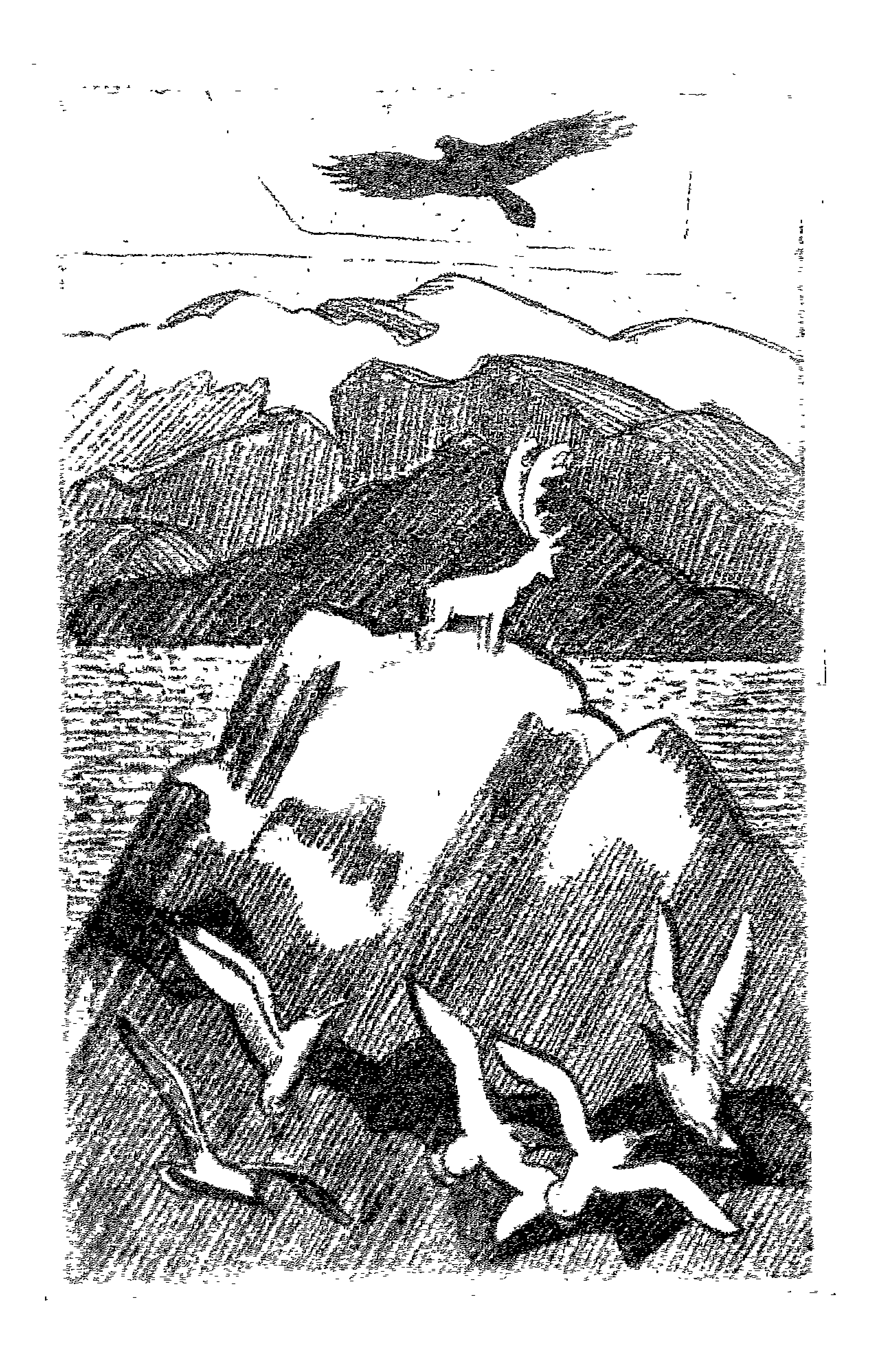




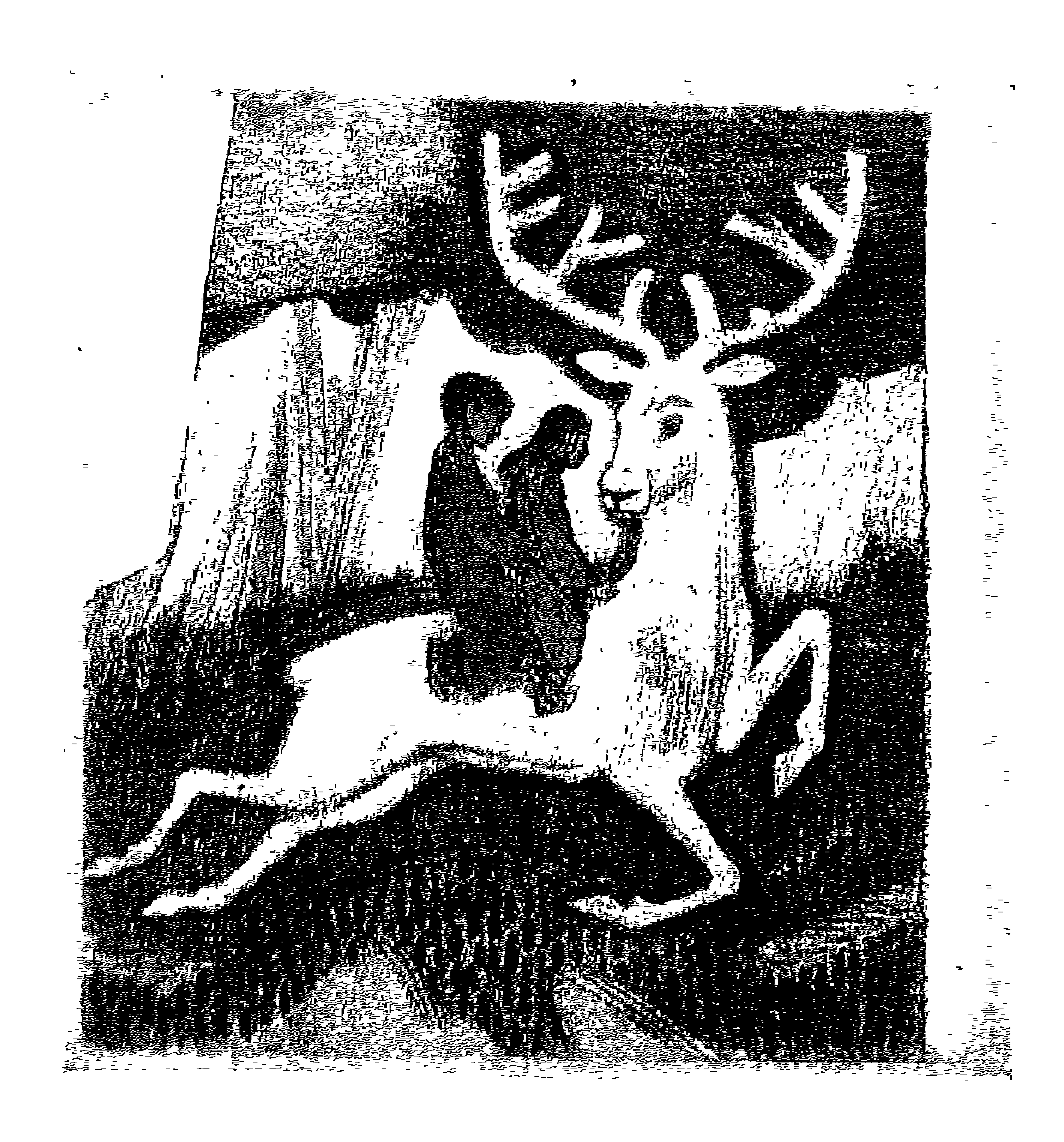










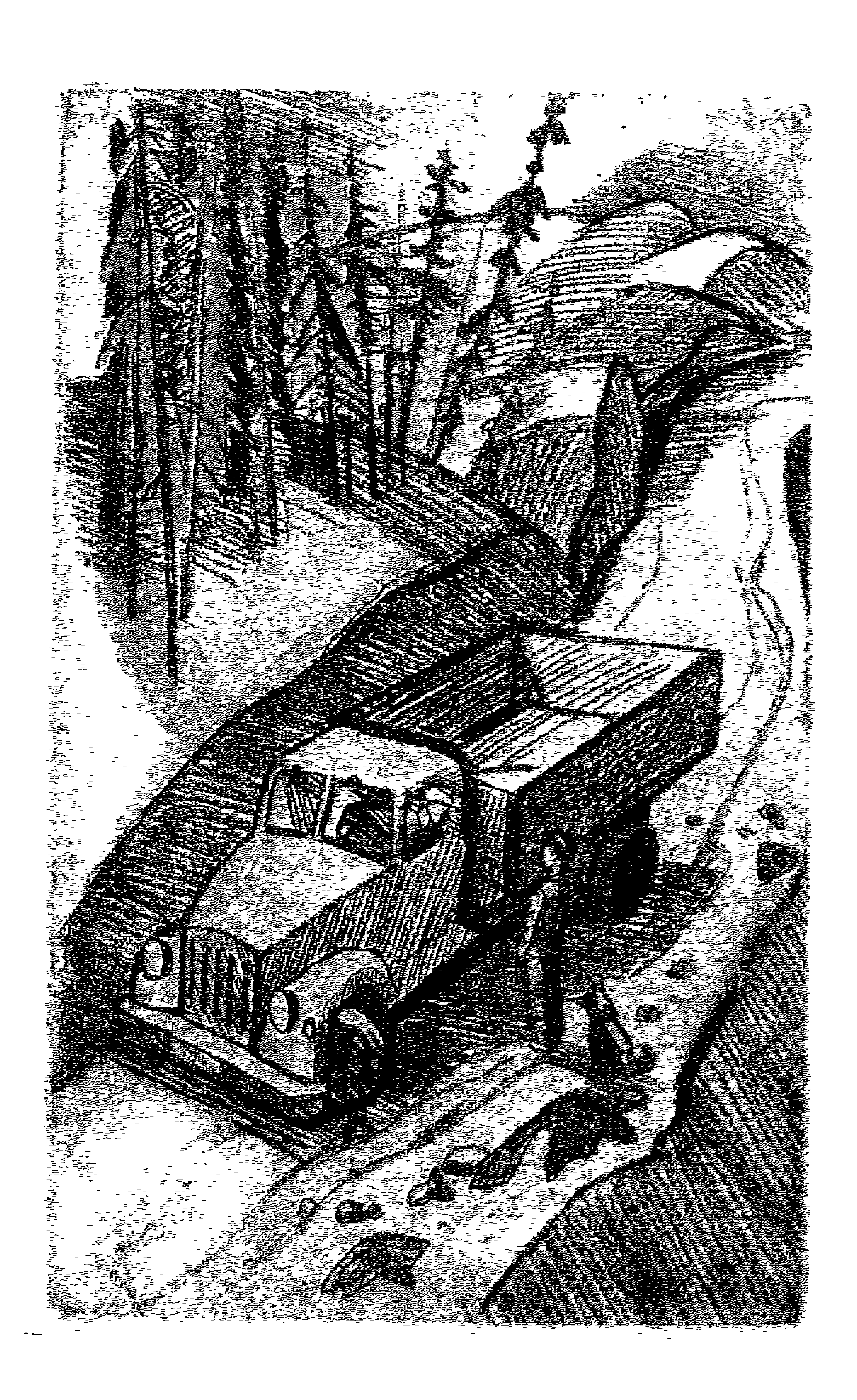






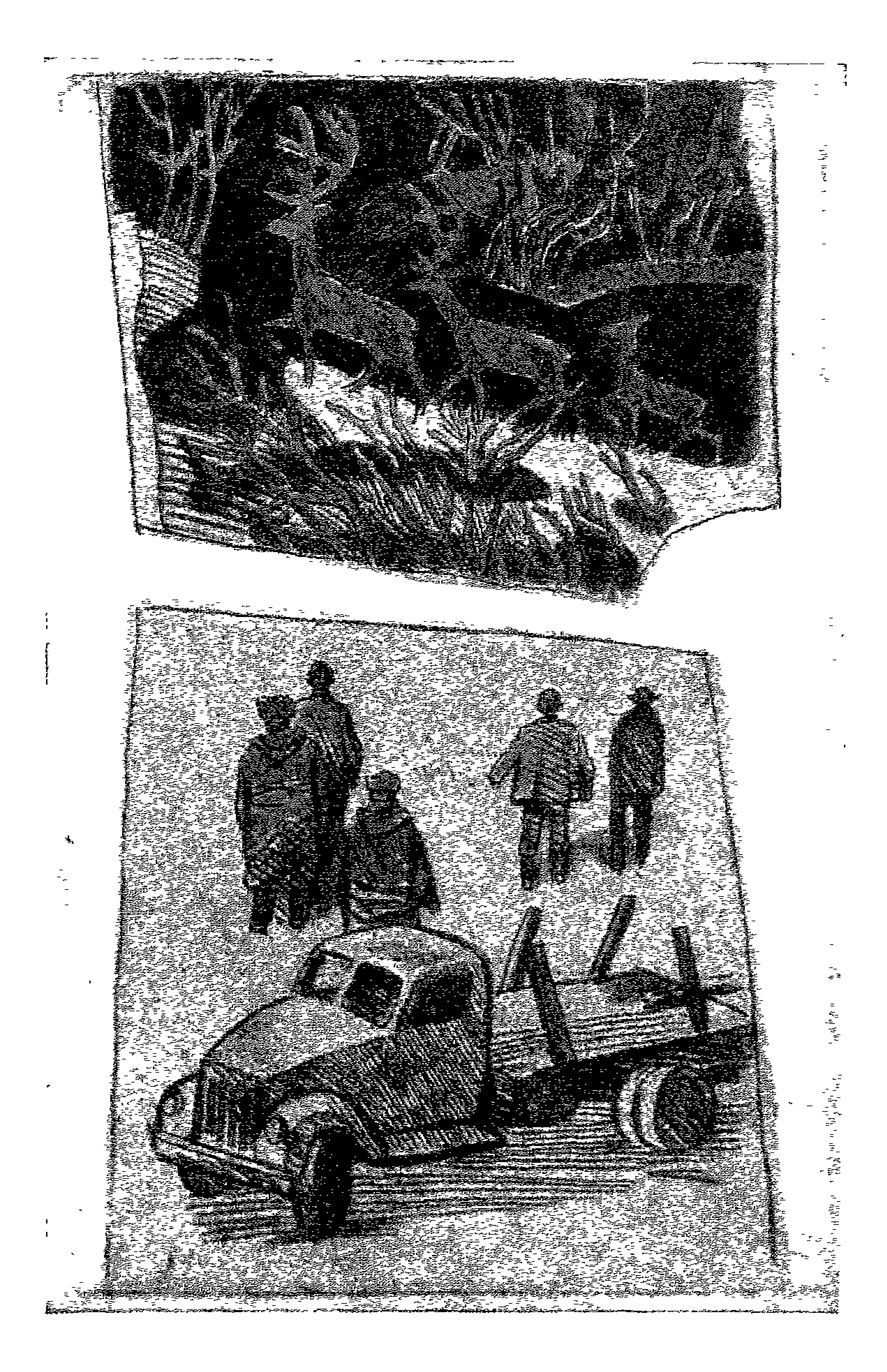
















وقرر ان يتخلص من بلدياته باول شجرة تصادفه . ولكن الرجل عاند ، وأصر على جذع الصنوبر ولا شيء غيره : «تعرف كيف تأخذ الحمل ولا تعرف كيف تفى بالوعد ؟» وجن جنون أروزكول فطرده من بيته : اذا كنت لا تريد ان تأخذ هذا الجذع فلتغرب من هنا . ولكن الرجل لم يكن غافلا ، فدبج شكوى فى ملاحظ غابة سان - تاش المحمية أروزكول بالاجانوف ، وذكر فيها من الحقائق والاكاذيب ما كان كفيلا باعدام اروزكول رميا بالرصاص باعتباره «مخرب الغابة الاشتراكية» . وبعدها ظلوا طويلا يجرجرون أروزكول امام لجان التفتيش المختلفة من المركز ومن وزارة الغابات . وأفلت بالكاد . . . فلتنظر الى هؤلاء الاقارب ! وبعد هذا يقولون : «نحن جميعا من ابناء الغزالة الأم ، أم القرون . الفرد من اجل الجماعة ، والجماعة من اجل الفرد !» كل هذا كلام فارغ ، فاية غزالة هناك بحق الشيطان عندما ترى كلا منهم على استعداد للاطباق على رقبة صاحبه او الالقاء به فى السجن ! فى العهود الماضية فقط كان الناس يؤمنون بالغزالة . كم كانوا اغبياء وجهلة اولئك الناس ، شيء مضحك . اما الآن فالجميع مهذبون ، متعلمون ! من بحاجة اليها حكايات الاطفال هذه !

ومن بعد ذلك الحادث أقسم أروزكول ألا يعطى غصنا او عود حطب لاحد ، سواء من المعارف او من بنى قبيلته ، حتى لو كانوا اولاد الغزالة الأم ، أم القرون أبا عن جد .

ولكن الصيف عاد . وانتشرت الخيام على المروج الجبلية الخضراء ، وارتفع صخب القطعان ، وتصاعد دخان النيران عند الجداول والانهار . وأشرقت الشمس ، وانتشرت رائحة «الكوميس» المسكر والزهور . وما اجمل ان تجلس فى الهواء الطلق على العشب الاخضر بجوار الخيمة ، وحولك الصحاب والخلان ، وتستمتع بالكوميس واللحم الطازج . ثم تجرع كوبا من الفودكا يدير رأسك . وتشعر ساعتها انك قادر على اقتلاع شجرة بجذورها او على تحطيم رأس ذلك الجبل . . . فى تلك الايام كان اروزكول ينسى قسمه . وكان يدغدغ احاسيسه ان يسمعهم يلقبونه بالسيد الكبير صاحب الغابة الكبيرة . ومن جديد يعد ، ومن جديد يقبل الهدايا . . . ومن جديد لا تحدس احدى الصنوبرات الاثرية

فى الغابة بان ايامها أصبحت معدودة وان نهايتها رهـــن بحلول الخريف .

وكان الخريف يتسلل الى الجبال خلسة من الحقول المحصودة بينها ، ويقفز هنا وهناك . وحيثما يمر يحمر العشب وتحمر اوراق الشجر فى الغابة .

وتنضج الثمار . وتكبر الحملان ، فيقسمونهـا الى قطعان ، النعاج على حدة ، والخرفان على حدة . وتخبئ النســـاء الجبـن المجفف فى اكياس الشتاء . ويبدأ الرجال فى التشاور حول من يتقدم ليشق طريق العودة الى الوديان . اما اولئك الذين اتفقوا مـــع أروزكول صيفا فينبهونه قبل رحيلهم الى انهم سيأتون فى اليوم الفلانى والساعة الفلانية الى الكوردون بالسيارات لنقل ما وعدهم به من اخشاب .

واليوم مساء ستأتى سيارة بمقطورة لتنقل جذعى صنوبر . وكان احد الجذعين فى الاسفل وقد نقل عبر النهر الى المكان الذى ستأتى اليه السيارة . والثانى ها هما يسحبانه الى اسفل . ولو كان باستطاعة أروزكول ان يعيد الآن ما أكله وشربه مقابل هذين الجذعين لفعل ذلك فورا ليتخلص من التعب والعذاب اللذين يضطر الى تحملهما .

للأسف ، ليس هناك وسيلة لتغيير حظه الملعون فى الجبال ، فالسيارة ذات المقطورة ستأتى مساء اليوم لكى تنقل الجذعين ليلا .

وسيكون من حسن حظه ان ينتهـــى كل شيء على ما يرام . فالطريق يمر عبر السوفخوز ، بجوار مقر الادارة مباشرة ، وليس هناك طريق آخر ، واحيانا تأتى الى السوفخوز الشرطـــــة وقلم التفتيش الحكومى ، وعموما ما اكثر من يأتى الى هناك من المركز . فاذا وقع نظرهم على السيارة المحملة بالخشب فسيسألون : «من اين تحملون الخشب ، والى اين ؟» .

اقشعر بدن أروزكول من هذه الفكرة ، فتفجرت فى نفســـه الكراهية لكل شيء . . للطيور الناعقة فوق رأســـه ، وللعجوز البائس مأمون ، ولسيد أحمد الكسول الذى فطن للامر فسافر منذ ثلاثة ايام الى المدينة ليبيع البطاطس . لقد كان يعلـــم انهـــم سيجرجرون الجذوع من الجبال ! اذن فقد تملّص . . . ولن يعود

الا بعد ان يفرغ من اموره فى السوق . ولو كان هنا لأمره اروزكول هو والعجوز بسحب الجذوع ولارتاح هو من العذاب .

ولكن سيد أحمد كان بعيدا ، والطيور ايضا صعبة المنال . وفى اسوأ الاحوال كان من الممكن ان يضرب زوجته ، ولكن الطريق الى المنزل كان لا يزال طويلا . فلم يبق الا العجوز مأمون . وهكذا سار أروزكول وهو يزداد شراسة من الاختناق بسبب قلة الهواء فى الجبال ، ويطلق السباب مع كل خطوة . كان يسير غير عابئ باغصان الخمائل ، غير مشفق على الحصان او على العجوز السائر من خلفه . فلينفق هذا الحصان ، ولينفق هذا العجوز ، ولينفق هو نفسه من انفجار القلب ! طالما يعانى هو فليعانى الآخرون . والخراب لهذا العالم الذى رتبت فيه الامور على غير ما ينبغى ، على غير ما يتفق وفضائل اروزكول ومنصبه !

لم يعد اروزكول يسيطر على نفسه فقاد الحصان عبر الحرش الى المنحدر الشديد مباشرة . فليرقص مأمون الهمام حول الجذع ، وليحاول ان يفلته ! «اذن فسأشبع هذا الاحمق العجوز ضربا ، وانتهينا» — قرر اروزكول . ما كان ليجرؤ فى وقت غير هذا على الاتجاه بالجذع المجرور نحو منحدر خطر كهذا . ولكـن الشيطان أضله . ولم يسعف الوقت مأمون ليوقفه ، كل ما استطاع ان يفعله هو ان يصيح : «الى اين ؟ الى اين ؟ قف !» ، واذا بالجذع يلتف بالسلاسل ويندفع الى اسفل ساحقا تحته الخمائل . كان الجذع طريا ، ثقيلا . وحاول مأمون ان يعرقلـــه عـن التدحرج بالعصى . ولكن الصدمة كانت قوية فأطارت بالعصى مـن يـــد العجوز .

حدث كل شىء فى لحظة خاطفة : سقط الحصان على جنبه وسحبه الجذع الى اسفل . وبينما هو يسقط أوقع اروزكول ارضا . اخذ يتدحرج وهو يتشبث بالخمائل فى تشنج . وفى هذه اللحظة قفزت فزعة حيوانات ما بقرون فى الحـــرش الكثيف الاوراق . وراحت تقفز قفزات عالية قوية حتى اختفت فى غيضة البتولا .

— المارال ! المارال !

صرخ الجد مأمون مأخوذا من الرهبة والفرحة . ثم صمت وكأنه لا يصدق عينيه .

وفجأة عم الهدوء الجبال . واختفت الزيغان دفعـــة واحدة . وتوقف الجذع على المنحدر وقد هرس تحته اشجار بتولا شابـة قوية . ونهض الحصان وهو يتخبط فى أحزمته .

وزحف اروزكول جانبـا ممزق الثياب . وأسرع مأمون لانقاذ صهره .

– ايتها الأم المقدسة ، الغزالة ام القرون ! انهـــا هى التى انقذتنا ! هل رأيت ؟ انهم ابناء الغزالة الأم أم القرون . لقد عادت أمنا ! هل رأيت ؟

نهض اروزكول وهو لا يصدق بعد انه نجا ، وكان عابســا وخجلا من نفسه ، ونفض ثيابه .

– كفى ثرثرة يا شيخ ! هيا خلص الحصان مـن السيور . واندفع مأمون منصاعا ليخلص الحصان .

– ايتها الأم الرائعة ، ايتها الغزالة ام القرون ! – مضى العجوز يتمتم بفرح – عادت اسرة المارال الى غاباتنا . لم تنسبنا الأم أم القرون ! غفرت لنا ذنبنا . . .

فقال اروزكول بغضب :

– ما زلت تتمتم ؟ – كان قد أفاق من نوبـة الذعر وعادت الكراهية السابقة تعتمل فى قلبه – أتحكى حكاياتك ؟ الأنك جننت تظن ان الناس ستصدق اختلاقاتك الحمقاء !

فلم يستسلم الجد مأمون وقال :

– لقد رأيتها بعينى . كانت تلك مارالا . ألم ترها يا بنى ؟ انت ايضا رأيتها .

– حسنا ، رأيت . يبدو ثلاثة مارال مرت . . .

– مضبوط . ثلاثة . انا ايضا خيل الىّ انها ثلاثة .

– وماذا بعد ؟ فلتكن مارالا . ما الذى يفرحك وامامك انسان كاد ان يدق عنقه . واذا كانت تلك مارالا فهى قد جاءت اذن من وراء الممر . يقولون ان المارال موجودة هناك فى كازاخستان ، فى الغابات الواقعة على الناحية الاخرى من الجبال . فهناك غابات محمية ايضا وربما هذه حيوانات محمية . وليكن انها جاءت . فما دخلنا نحن . لا شأن لنا بكازاخستان .

فقال الجد مأمون حالما :

— أليس من الجائز ان تألف المكان هنا ؟ ربما بقيت لدينا . . .
فقاطعه اروزكول :
— كفى ! هيا بنا !
كان امامهما طريق طويل الى اسفل وهما يسحبان الجذع ، ثم كان عليهما ان يعبرا به النهر وهما يسحبانه بالحصان . وكان ذلك ايضا عملا شاقا . واذا استطاعا سحب الجذع بنجاح عبر النهر فسيكون عليهما ايضا ان يرفعاه الى الربوة التى ستشحن منها السيارة .
ما اكثر الجهود ! . .
أحس اروزكول انه بائس تماما . وبدا له كل ما حوله مرتبا بصورة غير عادلة . فالجبال لا تحس بشىء ولا ترغب فى شىء ولا تشكو من شىء . انها تقف غير عابئة . والغابات تدخل الخريف ، ثم الشتاء ولا ترى فى ذلك اية صعوبة . وحتى الزيغان تطير طليقة وتنعق ما وسعها النعيق . والمارال — اذا كانت تلك مارالا حقا — قد جاءت من وراء الممر وسوف تجول فى الغابة كما يحلو لها واينما يحلو لها . وفى المدن يسير الناس فى الشوارع المسفلتة بلا هموم ، ويركبون التاكسى ، ويجلسون فى المطاعم ويتسلون . اما هو فقد القت به المقادير فى هذه الجبال ، فيا له من بائس . . . حتى مأمون الهمام هذا ، حموه التافه ، اسعد منه لانه يؤمن بالحكايات . يا له من احمق ! الحمقى دائما راضون عن حياتهم .
اما اروزكول فيمقت حياته . فهى لا تناسبه . انها لامثال مأمون الهمام . فما الذى يحتاجه مأمون ؟ طوال حياته وهو يحنى ظهره كل يوم بلا راحة . ولم يكن لديه ابدا شخص تحت امرته ، بل هو دائما تحت امرة الجميع ، حتى زوجته العجوز فهو لا يعارضها بكلمة . مثل هذا البائس تسعده حتى حكاية . ما ان رأى المارال فى الغابة حتى طفرت الدموع من عينيه وكأنما رأى اخوته الاشقاء الذين ظل يبحث عنهم مائة سنة .
ايه ، ما جدوى الكلام ! . .
وصلا اخيرا الى آخر مرحلة ، حيث يبدأ منها منحدر طويل حاد نحو النهر . وتوقفا لالتقاط الانفاس .

وراء النهر ، فى فناء الكوردون انبعث دخـــان بجـــوار دار اروزكول . ومن الدخان كان يمكن التخمين بان ذلك هو السماور . اذن فزوجته تنتظره . ولكن ذلك لم يخفف عن اروزكول . كان يتنفس بفم مفتوح واسع من قلة الهواء . وكان صدره يؤلمه ، ودوت دقات قلبه فى رأسه كالصدى . ولسع العرق المتصبب من جبينه عينيه . وما زال امامه منحدر طويل حاد . وفى البيت تنتظره زوجة خاوية البطن . انظر ، قد اشعلت السماور ، تريد ارضاءه . . . وفجأة أحس برغبة جارفة فى ان يركض ويركـــل بقدمـــه هذا السماور الابعج حتى يطير فى الف داهية ، وبعد ذلك ينهال على زوجته ضربا حتى يسيل دمها ، حتى الموت . وتلذذ بذلك فى خياله وهو يسمع عويلها ولعناتها لحظها العاثر . وقال فى نفســـه : «فليكن . . ليكن ! اذا كنت انا اعانـــى ، فلماذا ينبغى ان تكون هى بخير ؟»

وقطع مأمون عليه حبل افكاره :

— لقد نسيت يا ولدى . . . — قال متذكرا واسرع نحـــو اروزكول — علىّ ان اذهب الى المدرسة لأعود بالصبى . الدروس انتهت .

فقال اروزكول بهدوء متعمد :

— وماذا بعد ؟

— لا تغضب يا ولدى . فلندع الجذع هنا ولننزل . تناول غداءك فى البيت . واثناء ذلك اركض بالحصان الى المدرســـة ، وآخذ الصبى . ثم نعود وننقل الجذع .

وقال اروزكول متهكما :

— وهل فكرت طويلا ايهـــا العجوز حتى توصلت الى هذا ؟

— ولكن الصبى سيبكى .

فغلى اروزكول غضبا :

— ثم ماذا ؟ — اخيرا اصبح بوسعه ان يلقن العجوز درسا كما ينبغى . ظل طول اليوم يبحث عن شىء يتمحك به ، وها هو مأمون يقدم له المبرر بنفسه — الصبى سيبكى ونحن سنترك العمل ؟ فى الصباح صدعت رأسى : سأحمله الى المدرسة . حسنا ، ها قد حملته ، والآن : سأعود به ؟ وانا ماذا ؟ ام اننا هنا نلهو ؟

فقال مأمون متوسلا :

— لا داع يا بنى . فى مثل هذا اليوم ! انا لا يهم ، ولكن الصبى سينتظر ، وسيبكى فى مثل هذا اليوم . . .

— ماذا فى مثل هذا اليوم ؟ اى شىء خاص فى هذا اليوم ؟

— المارال عادت . فلماذا فى مثل هذا اليوم . . .

بهت اروزكول ، بل لزم الصمت من الدهشة . لقد نسى من زمان هذه المارال التى يبدو انها مرقت كظلال سريعة راكضة عندما كان يتدحرج فى الحرش الشائك ، عندما غاص قلبه الى قدميه رعبا . كان الجذع المنقض من المنحدر يوشك فى كل لحظة ان يسحقه . كان فى شغل عن هذه المارال وعن ثرثرة هذا العجوز .

وقال بهدوء وغيظ وهو يفح فى وجه العجوز :

— من تراك تحسبنى ؟ من المؤسف انه ليس لديك لحية والا كنت سحبتك منها حتى لا تعتبر الآخرين أغبى منك . ما الذى يهمنى من مارالك الحمقاء ! لا ينقصنى الا ان افكر فيها . دعك من اللف والدوران . هيا قف بجوار الجذع . واياك ان تنطق بشىء قبل ان ننقله عبر النهر . ليس لى اى شأن بمن يذهب الى المدرسة او بمن يبكى . كفى ، هيا . . .

وكالعادة انصاع مأمون . ادرك انه لن يفلت من براثن اروزكول الى ان ينقلا الجذع الى المكان المحدد ، فانهمك فى العمل بصمت واستماتة . ولم يتفوه بكلمة رغم ان روحه كانت تتمزق ألما . فحفيده ينتظره عند المدرسة . كل الاطفال عادوا الى بيوتهم ، وهو وحده ، حفيده اليتيم ، ينظر الى الطريق وينتظر الجد .

وتخيل العجوز كيف خرج جميع تلاميذ الصف من المدرسة وهم يدقون باقدامهم ، وكيف ركضوا كل الى داره . كانوا جائعين . ويشمون ، وهم بعد فى الشارع ، رائحة الطعام المعد لهم ، فيركضون تحت نوافذ بيوتهم فرحين منفعلين . وأمهاتهم ، ينتظرنهم ، وكل منهن تبتسم ابتسامة تدير الرأس . وايا كانت حالة الأم سيئة ام حسنة فانها تجد فى نفسها القوة دائما لتبتسم لطفلها . وحتى لو صاحت فيه بحزم : «ويداك ؟ يداك من سيغسلهما ؟» فان عينيها تخفيان نفس الابتسامة .

اما يدا حفيد مأمون فقد أصبحتا ملوثتين دائما بالحبر منذ ان بدأ الدراسة . بل ان ذلك أعجب الجد ، فهذا يعنى ان الصبى يمارس عملا . وها هو حفيده يقف الآن على الطريق ، بيدين ملوثتين بالحبر ، ممسكا بحقيبته المحببة التى اشتروها له هذا الصيف . لا بد انه تعب من الانتظار وبدأ يتطلع بقلق ويتنصت . . ترى ألم يظهر الجد فوق ظهر الحصان على الربوة . انه دائما يأتى فى موعده . وعندما يخرج الصبى من المدرسة يكون الجد المترجل منتظرا غير بعيد . ويتفرق الصبية الى بيوتهم اما هو فيركض الى جده . ويقول الصبى للحقيبة : «ها هو جدى هناك ، فلنركض !» . وعندما يبلغه يرتمى عليه خجلا ويعانقه دافنا وجهه فى بطنه ويستنشق رائحة الملابس القديمة والدريس الصيفى الجاف المألوفة : ففى هذه الايام ينقل الجد الدريس من الشاطئ المقابل ، فالوصول اليه صعب شتاء عبر الثلج العميق ، فمن الافضل نقله فى الخريف . وتظل رائحة غبار الدريس المرة تنبعث من مأمون فترة طويلة .

ويجلس الجد الصبى خلفه على كفل الحصان ، ويمضيان عائدين والحصان يسير تارة بخبب قصير ، وتارة بالخطو العادى ، وهما يصمتان تارة ، وتارة يتحدثان عن شىء ما غير ذى اهمية حتى يصلا دون ان يلاحظا . وخلال الفجوة بين الروابى يهبطان الى منزلهما فى وهدة سان-تاش .

كان ولع الصبى الجنونى بالمدرسة يثير الجدة . فما ان يستيقظ حتى يرتدى ملابسه بسرعة ويضع الكتب والدفاتر فى الحقيبة . وكان مما يحنق الجدة انه يضع الحقيبة الى جواره عندما يأوى الى الفراش . «ما لك التصقت بهذه الحقيبة القذرة ؟ لو تصبح زوجتك لوفرت علينا مهر العروسة . . .» وكان الصبى لا يلقى بالا الى كلمات الجدة هذه ، كما انه لم يكن يفهم جيدا معنى الحديث . كان أهم شىء لديه ألا يتأخر عن المدرسة . فيركض الى الفناء ويستعجل جده . ولا يطمئن حتى تلوح المدرسة لناظره .

ومع ذلك فقد تأخرا ذات مرة . ففى الاسبوع الماضى توجه مأمون فى الفجر الباكر الى الشاطئ الآخر . فقد قرر ان يقوم فى

الصباح بنقلة دريس . وكان من الممكن ان تمضى الامور على ما يرام لولا ان رباط حزمة الدريس انفك . واضطر الى ربط الحزمة من جديد وتحميل الحصان من جديد . وبسبب العجلة تبعثر الدريس مرة اخرى عند الشاطئ تماما .

وكان حفيده ينتظره على الضفة الاخرى . كان واقفا على حجر مسنن وهو يلوح بالحقيبة ويصرخ بشيء ما ويناديه . واستعجل العجوز فاشتبكت الحبال وانعقدت حتى استحال فكها . بينما مضى الصبى يصرخ ، وادرك العجوز انه يبكى . عندئذ ترك كل شيء — الدريس والحبال — وامتطى الحصان ، واسرع الى صبيه عبر مخاضة النهر .

والى ان عبر النهر مر طبعا بعض الوقت . فخلال المخاضة لا تستطيع الرمح ، فالمياه كثيرة والتيار سريع . فى نهاية الخريف ليس العبور بهذه الخطورة ، اما فى بدايته فقد تدفع المياه بالحصان فيسقط ويهلك . وعندما عبر مأمون النهر اخيرا وبلغ حفيده كان هذا ينتحب عاليا . لم ينظر الى جده بل كان يبكى وهو يردد : «تأخرت ، تأخرت عن المدرسة . . .» وتدلى العجوز من فوق الحصان ورفع الصبى اليه فى السرج وانطلق بالحصان . لو كانت المدرسة قريبة لركض اليها الصبى كل يوم بنفسه . ولقد ظل يبكى آنذاك طوال الطريق ولم يستطع العجوز ان يهدئه . وهكذا وصل المدرسة وهو يبكى ، وكانت الدروس قد بدأت ، فقاده الى الصف مباشرة .

واعتذر مأمون كثيرا للمدرّسة ووعد بألا يتكرر ذلك ثانية . لكن اكثر شيء أذهل العجوز هو كيف بكى حفيده وكيف عانى تأخره . وقال الجد فى نفسه : «ربنا يديم عليك حبك هذا للمدرسة» . ومع ذلك فلماذا بكى الصبى هكذا ؟ اذن فهو يحمل فى نفسه زعلا ، زعلا خاصا لم يبح به . . .

والآن ، وبينما مأمون يسير بجوار الجذع ويدور حوله تارة من هذه الناحية ، وتارة من تلك ، ويدفعه ويسنده بالعصى لكى لا ينحشر فى شيء ولكى ينزلق أسرع من فوق الجبل ، ظل طول الوقت يفكر : ترى كيف حفيده هناك ؟

اما اروزكول فلم يكن متعجلا . كان يسير فى المقدمة آخذا

بزمام الحصان . وحتى لو أردت ان تستعجل هنا فلن تستطيع ، اذ أن المنحدر حاد طويل ، ومن ثم اضطرا الى النزول بانحراف . ومع ذلك ألم يكن فى وسعه ان يستجيب لرجائه فيتركان الجذع هنا مؤقتا ثم يعودان فيما بعد لأخذه ؟ آه لو كانت لديه القوة لألقى بهذا الجذع على كتفه ، وعبر النهر به ، ورماه فى ذلك المكان الذى ستشحن منه السيارة ! خذوا ، هذا جذعكم ، واتركونى . ثم أسرع بعد ذلك الى حفيده .

ولكن هيهات ! عليهما اولا ان يصلا الى شاطئ النهر ، ويسيرا فوق الاحجار والحصى ، ثم يسحبا الجذع بالحصان عبر المخاضة الى الشاطئ الآخر . والحصان مرهق تماما ، فكم سار فى الجبال صعودا وهبوطا . . . سيكون حظهما طيبا لو سار كل شيء على ما يرام ، والا فما العمل لو انحشر الجذع بين الاحجار فى وسط النهر ، او تعثر الحصان وسقط ؟

وعندما خاضا فى الماء كاد مأمون يبكى متوسلا : «ساعدينى يا أمنا الغزالة أم القرون ، لا تدعى الجذع ينحشر ، لا تدعى الحصان يسقط !» . وخلع الجد مأمون حذاءه الطويل وألقى به على كتفه ، وشمر سرواله الى أعلى الركبتين واسرع يلاحق بالعصى الجذع العائم . كانا يسحبان الجذع بخط مائل ضد التيار . وبقدر ما كانت المياه نقية وشفافة بقدر ما كانت قارسة . . كانت مياها خريفية .

وتجلد العجوز . . فلتتجمد قدماه . . ليكن ، المهم ان ينقلا الجذع بسرعة . ومع ذلك انحشر الجذع كأنما نكاية به ، واستقر على الاحجار فى اكثر الاماكن امتلاء بها . وفى مثل هذه الاحوال ينبغى ان تترك الحصان ليستريح قليلا ، ثم تصيح به وتحثه جيدا ، وبشدة قوية يمكن انتشال الجذع . ولكن اروزكول كان راكبا على الحصان المنهك المتهالك وهو ينهال عليه بالسوط بلا رحمة . فكان الحصان يقعى على ساقيه الخلفيتين وينزلق ، ويتعثر ، بينما لا يتزحزح الجذع من مكانه . وتجمدت قدما العجوز ، وغامت عيناه . كان رأسه يدور . الجرف ، الغابة فوق الجرف ، السحب فى السماء تميل ، وتسقط فى النهر وتندفع مع تياره السريع ، ثم تعود من جديد . أصبحت حالة مأمون سيئة .

يا للجذع الملعون ! لو كان جافا ، مقطوعا من مدة طويلة لكان الحال غير الحال ، فالخشب الجاف يطفو على الماء من تلقاء نفسه ، وما عليك الا ان تمسك به . اما هذا فما ان قطعوه حتى حملوه توا عبر النهر . هل هناك احد يفعل ذلك ! هذه هى النتيجة . العمل السيئ نهايته سيئة . لم يجرؤ اروزكول على ترك جذع الصنوبرة حتى يجف ، فقد تفاجئهم لجنة تفتيش وتحرر محضرا بقطع الاشجار الثمينة فى غابة محمية . ولذلك ما ان قطعوا الجذع حتى أسرعوا يسحبونه بعيدا عن الانظار .

راح اروزكول يضرب الحصان بكعبيه وبالسوط ، ويضربه على رأسه ، ويطلق السباب البذئ ، ويصيح بالعجوز وكأنما مأمون هو السبب فى كل ما حدث ، ولكن الجذع لم يتحرك من مكانه ، بل غاص اكثر بين الاحجار . ونفد صبر العجوز . ولاول مرة فى حياته يرفع صوته فى غضب :

— انزل من على الحصان ! — قال وهو يقترب من اروزكول بحزم ويشده من السرج — ألا ترى ان الحصان لا يقدر على الجر ؟ انزل حالا !

وأذعن أروزكول المندهش فى صمت . قفز من السرج الى الماء مباشرة دون ان يخلع الحذاء . ومنذ تلك اللحظة بدا وكأنما أصبح غبيا ، أصم ، فاقدا ذاته .

— هيا ! ارفع ! هيا معا !

وبأمر مأمون ضغطا معا على العصا فرفعا الجذع من مكانه ، محررينه من قبضة الاحجار .

ويا له من حيوان ذكى هذا الحصان ! لقد اندفع بالذات فى هذه اللحظة ، وشد السيور وهو يتعثر وينزلق على الاحجار . ولكن الجذع تحرك من مكانه قليلا وانزلق ، ثم انحشر ثانية . واندفع الحصان مرة اخرى ، ولم يستطع الصمود فسقط فى الماء وراح يتخبط وهو يشتبك فى العدة .

ودفع مأمون اروزكول صائحا :

— الحصان ، انهض الحصان !

وتمكنا معا ، بعد جهد ، من مساعدة الحصان على الوقوف .

كان الحصان يرتعش من البرد وهو لا يكاد يقوى على الوقوف فى الماء .

— فك العدة !

— لماذا ؟

— فك العدة قلت لك . سنعيد تسريجه . انزع السيور .

ومن جديد أذعن أروزكول فى صمت . وعندما أصبح الحصان حرا من عدته امسك مأمون بلجامه وقال :

— والآن هيا بنا . سنعود فيما بعد . فليسترح الحصان .

— ماذا ؟ ! قف ! — وانتزع اروزكول اللجام من يد العجوز . وبدا كأنما أفاق . عاد فجأة الى ما كان عليه . — تريد ان تضحك على من ؟ لن تذهب الى اى مكان . سننقل الجذع الآن . فى المساء سيأتون لشحنه . سرّج الحصان بدون كلام ، أتسمع ؟

استدار مأمون فى صمت ، ومضى يعرج على قدميه المتجمدتين خائضا فى النهر نحو الشاطئ .

— الى اين ايها العجوز ؟ الى اين قلت لك ؟

— الى اين ! الى اين ! الى المدرسة . الولد منتظر هناك من الظهر .

— هيا عد ! عد !

ولكن العجوز لم يذعن . وترك اروزكول الحصان فى النهر ولحق بمأمون عند الشاطئ تقريبا ، فأمسك بكتفه وأداره نحوه . وأصبحا وجها لوجه .

خطف اروزكول الحذاء المشمع القديم المدلى على كتف مأمون ، وضرب به حماه مرتين على رأسه ووجهه بكل قوته .

وفحّ اروزكول وهو يطوح بالحذاء جانبا :

— هيا ، اتسمع ؟

مضى العجوز الى الحذاء فرفعه من على الرمل المبلل ، وعندما استقام طفر الدم على شفتيه .

وقال مأمون وهو يبصق دما :

— يا سافل !

وألقى بالحذاء على كتفه من جديد .

صدر هذا القول عن مأمون الهمام ، الذى لم يوجه ابدا الى

احد كلمة نابية ، صدر هذا القول عن عجوز بائس أزرق جلده من البرد ، ومن كتفه يتدلى حذاء قديم ، وعلى شفتيه يبقبق الدم .
— هيا !

قال اروزكول وشده وراءه . ولكن مأمون تخلص منه بقوة ومضى مبتعدا دون ان يلتفت .

فصاح اروزكول فى اثره وهو يلوح بقبضته :

— حسنا ايها العجوز الاحمق ، سأريك ! لن أنسى لك هذا !

ولم يلتفت مأمون . وعندما بلغ الدرب بقرب «الجمل الراقد» جلس وارتدى حذاءه واسرع الى المنزل . ودون ان يتوقف فى اى مكان قصد الاصطبل مباشرة وأخرج منه الجواد الرمادى «ألباش» ، جواد أروزكول العداء الذى لا يمس ولا يجرؤ احد على ركوبه ، هذا الجواد الذى لم يكونوا يستخدمونه فى العمل حتى لا تفسد خطوته . وانطلق مأمون به من الفناء بلا سرج او ركاب وكأنما يسرع الى مكان شب فيه حريق . وعندما مرق بجوار النوافذ ، وبجوار السماور الذى كان الدخان لا يزال يتصاعد منه ، أدركت النساء اللائى اندفعن الى الخارج — زوجة مأمون العجوز وابنته بيكى وجول جمال الشابة — على الفور ان شيئا جرى للعجوز . اذ لم يحدث ابدا ان ركب «ألباش» ، ولم يحدث ابدا ان ركض بالحصان هكذا فى الفناء غير عابىء بشىء . لم يعرفن بعد ان تلك كانت ثورة مأمون الهمام . ولم يعرفن بعد كم ستكلفه هذه الثورة فى اواخر ايامه . . .

ومن جهة المخاضة ظهر أروزكول قادما وهو يسحب حصانا بلا عدة . وكان الحصان يعرج على ساقه الامامية . تطلعت النساء اليه فى صمت وهو يقترب من الفناء . لم يخمّن بعد ما كان يعتمل فى نفس أروزكول ولا ما كان يحمله لهن فى هذا اليوم من مصائب واهوال . . .

اقترب منهن بخطوات ثقيلة وئيدة ، فى حذاء مبلل يبقبق ، وسروال مبلل ، وتطلع شذرا اليهن . واعترى القلق زوجته بيكى فقالت :

— ماذا بك يا اروزكول ؟ ماذا حدث ؟ انك مبلل كلك . هل جرف النهر الجذع ؟

- كلا - اشاح بيده ، وسلم اللجام لجول جمال - خذى ، سوقى الحصان الى الاصطبل . - واتجه الى الباب قائلا لزوجته : - لندخل البيت .

وارادت الجدة ان تذهب معهما ولكن اروزكول منعها من الدخول .

- اذهبى يا عجوز . ليس لك ما تفعلينه هنا . اذهبى الى بيتك ولا تأتى .

فقالت الجدة مهانة :

- ماذا بك ؟ ما معنى هذا ؟ واين شيخنا ؟ ماذا حدث ؟

فأجاب أروزكول :

- اسأليه هو .

وفى البيت نزعت بيكى عن زوجها ملابسه المبللة وأعطته معطف الفراء ، وأدخلت السماور وبدأت تصب له شايا فى القدح .

فرفض أروزكول بحركة من يده :

- لا داع . اعطنى شرابا .

اخرجت زوجته زجاجة فودكا لم تفض ، وصبت منها فى الكوب .

فأمرها أروزكول :

- املئى الكوب .

وأفرغ فى جوفه كوب الفودكا دفعة واحدة ، والتف بمعطف الفراء ، واضطجع على الكليم ثم قال لزوجته :

- انت طالق . اذهبى . اياك ان أرى وجهك هنا . اذهبى قبل فوات الاوان .

زفرت بيكى ، وجلست على السرير ، وسحت دموعها كالعادة وقالت بصوت خافت :

- ثانية ؟

فزأر أروزكول :

- ماذا ثانية ؟ غورى من هنا !

قفزت بيكى واندفعت خارجة من المنزل ، وأعولت كعادتها بأعلى صوتها وهى تلوح بيديها :

- يا حظى البائس ، لماذا ولدت يا ربى !

وفى تلك الاثناء كان مأمون يركض على ظهر «ألباش» الى

حفيده . «ألباش» جواد سريع . ومع ذلك تأخر مأمون ساعتين واكثر . التقى بحفيده فى الطريق . وكانت المدّرسة قد أخذته لتوصله بنفسها . تلك المدّرسة نفسها ، ذات اليدين الملوحتين الخشنتين ، وفى نفس المعطف المعهود الذى ترتديه للعام الخامس . كانت هذه المرأة المتعبة تبدو عابسة . اما الصبى ، فبعد ان شبع بكاء من زمن طويل ، سار الى جوارها بعينين منتفختين ، ممسكا بحقيبته فى يديه ، وبدا بائسا ومهانا . وبخت المدّرسة العجوز مأمون بشدة . ووقف هذا امامها مترجلا مطأطأ الرأس .

قالت المدّرسة :

— لا تأت بالصبى الى المدرسة اذا لم تكن ستأخذه فى الوقت المناسب . لا تعول علىّ ، فعندى اولادى اربعة .

ومن جديد اعتذر مأمون ، ومن جديد وعد بألا يتكرر هذا ثانية .

وعادت المدّرسة الى جيليساى ، وتوجه الجد وحفيده الى البيت .

لزم الصبى الصمت وهو جالس امام جده على الحصان . ولم يدر العجوز ماذا يقول له .

وسأله :

— هل انت جائع جدا ؟

فأجاب الصبى :

— لا ، المدّرسة أعطتنى خبزا .

— ولماذا انت ساكت ؟

فلم يرد الصبى على ذلك بشىء .

ابتسم مأمون ابتسامة مذنبة :

— كم انت سريع الغضب يا بنى . . . — ونزع عنه العمرة وقبله فى رأسه . ثم ألبسه العمرة ثانية .

ولم يلتفت الصبى نحوه .

هكذا مضيا صامتين مهمومين . لم يطلق مأمون العنان «لألباش» ، بل كان قابضا على اللجام بحزم ، خشية ان يتعرض الصبى للهزات على ظهر جواد غير مسرج . كما انه ، فيما بدا للعجوز ، لم يعد ثمة داع للعجلة الآن .

وسرعان ما ادرك الحصان ما يراد منه فسار بشبه رهونة

خفيفة ، وهو ينفر بمنخاريه ويدق على الطريق بحوافره . على جواد كهذا يطيب السفر عندما تكون وحدك ، وتدندن بأغان خافتة ، هكذا لنفسك . ما اكثر ما يمكن ان تغنى عنه بينك وبين نفسك ! عن الآمال التى لم تتحقق ، عن السنين التى مرت ، عما كان آنذاك حين كنت تحب . . . اذ يروق للمرء ان يتنهد متأسفا على تلك الفترة ، حيث بقى هناك الى الابد شيء لا يطال . وان كنت لا تدرك تماما ما هو . ولكنك تود احيانا ان تفكر فى ذلك ، تود ان تحس بنفسك .

يا له من رفيق طيب الحصان الجيد ، الحسن السير . . .

وفكر العجوز مأمون وهو ينظر الى قفا حفيده الحليق وعنقه الرفيع وأذنيه المنتصبتين ، بانه لم يتبق لديه الآن من كل حياته البائسة ، من كل اعماله وكده ، من كل همومه واحزانه سوى هذا الطفل ، هذا المخلوق الضعيف بعد . حسنا لو يتمكن الجد من وضعه على قدميه . اما اذا بقى وحده فسيلاقى المتاعب . انظر ، ما زال بحجم كوز الذرة ولكنه معتد بنفسه . رغم انه يحتاج الى ان يكون ابسط ، وارق . . . فامثال اروزكول سوف يمقتونه ، سوف يمزقونه كما تمزق الذئاب غزالا مطاردا . . .

وهنا تذكر مأمون المارال ، تلك التى مرقت آنذاك كالظلال السريعة الخاطفة فانتزعت من قلبه صيحة الدهشة والفرحة .

فقال الجد مأمون :

– أتدرى يا بنى ؟ لقد جاءت المارال الينا . . .

التفت الصبى نحوه بحيوية وسأل :

– صحيح ؟

– صحيح . رأيتها بنفسى . ثلاث رؤوس .

– ومن اين جاءت ؟

– أظن من وراء الممر . . فهناك ايضا غابة محمية . الخريف هذا العام كالصيف ، والممر لذلك مفتوح . وهــا هى جاءت الى ضيافتنا .

– وهل ستبقى عندنا ؟

– اذا أعجبها الحال فستبقى . اذا لم يمسسها احد ستعيش هنا . فالعشب هنا وفير . . يكفى ولو لألف مارال . . . فى سالف

الزمان ، ايام أمنا الغزالة أم القرون كانت المارال هنا لا تعد ولا تحصى . . .

وعندما أحس العجوز ان الجليد يذوب من على قلب الصبى وهو يسمع هذا النبأ ، وانه ينسى زعله ، راح يحكى له من جديد عن العهود الغابرة ، وعن الغزالة الأم أم القرون . وفكر وهو مندمج مع روايته : ما ابسط ان تصبح فجأة سعيدا وتحمـل السعادة للآخرين ! آه لو أمكن ان تعيش هكذا دائما . نعم هكذا ، مثلما الآن ، فى هذه اللحظة . ولكن الحياة لا تسير هكذا . فالى جانب السعادة تتربص المصيبة دائما وتقتحم عليك روحك وحياتك ، وتتعقبك كظلك ، هذه اللعنة الازلية التى لا تحيد . وحتى فى هذه اللحظة ، عندما كانا هو وحفيده سعيدين ، الى جانب الفرحة اعتمل فى قلب العجوز القلق : ترى كيف اروزكول هناك ؟ ماذا أعد له ، اية نكاية ؟ اى عقاب سينزله به ، هو العجوز الذى جرؤ عـلى عصيانه ؟ فاروزكول لن يترك ذلك يمر هكذا . والا لمـا كان أروزكول .

ولكى لا يفكر فى المصيبة التى تنتظر ابنته وتنتظره هو نفسه اخذ مأمون يحكى لحفيده عن المارال ، وعن نبـل هذه المخلوقات وجمالها وسرعتها ، يحكى بتفان وكأنما سيستطيع بذلك ان يدرأ المحتوم .

وكان الصبى مستمتعا بالحديث . ولم يخمن ما الذى ينتظره فى البيت . كانت عيناه وأذناه متقدة . كيف ، أحقا عادت المارال ؟ اذن فكل هذا حقيقة ! الجد يقول ان الغزالة الأم أم القرون غفرت للناس ما ارتكبوه ضدها من جرائم ، وسمحت لاولادها بالعودة الى جبال ايصيق-كول . قال الجد ان ثلاثـة من المارال قد جاءت لتتعرف على الاحوال هنا ، واذا ما أعجبتهم فسوف تعود المارال كلها الى الوطن .

وقاطع الصبى جده :

— يا جدى ، أليس جائزا ان امنا الغزالة أم القرون قد جاءت بنفسها ؟ ربما أرادت ان تعرف الاحوال عندنا ، وبعد ذلك تدعو اولادها ؟ هه ؟

— ربما ،ربما . . — أجاب العجوز مترددا وتلعثم . لقد أحس

بالحرج : ألم يندمج اكثر من اللازم ، ألم يؤمن الصبى اكثر من اللازم بكلماته ؟ ولكن الجد مأمون لم يشأ ان يحطم ايمان الصبى ، كما ان ذلك أصبح الآن متأخرا – من يدرى ، من يدرى – وهز كتفيه – ربما ، ربما تكون امنا الغزالة ام القرون قد جاءت بنفسها . من يدرى . . .

فقال الصبى :

– نحن سندرى . هيا بنا يا جدى نذهب الى ذلك المكان الذى رأيت فيه المارال . انا ايضا أريد ان اراها .

– ولكنها لا تبقى فى مكان واحد .

– سنتبع آثارها . سنسير طويلا طويلا مع آثارها . وما ان نراها ، ولو بطرف العين ، حتى نعود . وعندئذ ستفكر بان الناس لن تمسها .

فضحك الجد :

– يا لك من طفل . عندما نصل سنرى .

كانا قد اقتربا من الكوردون على الدرب المار من خلف البيوت . البيت من الخلف كالرجل من ظهره . لم تصدر عن البيوت الثلاثة اية اشارة الى ما يدور داخلها . وكان الفناء ايضا خاويا وصامتا . وعصر هاجس كريه قلب مأمون . ما الذى يمكن ان يكون قد حدث ؟ هل ضرب أروزكول بيكى البائسة ؟ هل شرب حتى سكر ؟ ما الذى يمكن ان يكون قد حدث غير ذلك ؟ لماذا يسود هذا الهدوء ، ولماذا لا يوجد احد فى الفناء فى هذه الساعة ؟ وقال مأمون لنفسه : «لو كل شىء على ما يرام فلا بد من انتشال هذا الجذع المشؤوم من النهر . ما علينا من اروزكول . الافضل ألا تحتك به . الافضل ان تفعل ما يريد ولتبصق على ذلك . هل تستطيع اقناع الحمار بانه حمار» .

اقترب مأمون من الاصطبل .

– انزل . ها قد وصلنا ، – قال لحفيده وكأنما جاءا من سفر بعيد محاولا ألا يفصح عن قلقه .

وعندما هم الصبى ان يعدو بحقيبته الى البيت استوقفه مأمون :

– انتظر ، سنذهب معا .

وضع «ألباش» فى الاصطبل ، واخذ الصبى من يده وسار الى المنزل . وقال الجد لحفيده :

– اسمع ، اذا ما رأيتهم يشتموننى فلا تخف ، ولا تلق بالا الى ما يقال . هذا لا يخصك . ما عليك الا ان تذهب الى المدرسة .

ولكن شيئا من ذلك لم يحدث . عندما دخلا البيت القت الجدة على مأمون نظرة ادانة طويلة وزمت شفتيها وعادت الى الحياكة . ولم يقل لها الجد هو الآخر شيئا . وقف وسط الغرفة عابســـا محاذرا ، ثم أخذ من على الموقد صحفة كبيرة بها حساء ، والتقط ملعقتين وخبزا ، وجلس مع حفيده يتناولان غداءهما المتأخر .

أكلا فى صمت ، اما الجدة فحتى لم تنظر نحوهما . تحجر الغضب على وجهها البنى الذابل . وأدرك الصبى ان شيئا سيئا للغاية قد حدث . ولكن العجوزين ظلا صامتين .

استولى الفزغ والقلق على الصبى حتى انه لم يعد قادرا على ازدراد الطعام . ليس هناك ما هو اسوأ من ان يصمت الناس اثناء الأكل ، وكل منهم يفكر فى شىء خاص به ، شىء سيىء ومريب . وقال الضبى فى نفسه مخاطبا الحقيبة : «قد نكون واياك المذنبين ؟» وكانت الحقيبة فوق رف النافذة . وتدحرج قلب الصبى على الارض وتسلق الجدار الى رف النافذة ليصبح قريبا من الحقيبـة وراح يتهامس معها .

«ألا تعرفين انت شيئا ؟ لماذا جدى حزين هكذا ؟ ما هو ذنبه ؟ ولماذا تأخر اليوم ، لماذا جاء على ظهر «ألباش» وبدون سرج ؟ ان ذلك لم يحدث ابدا . ربما يكون قد تأخر لأنه رأى المارال فى الغابة ؟ ولكن ربما ليس هناك اية مارال ؟ ربما ليس هذا صحيحا ؟ فما العمل اذن ؟ لماذا حكى ؟ ستغضب امنا الغزالة ام القرون جدا لو كان جدى قد خدعنا . . .»

وبعد ان فرغ الجد مأمون مـــن الغداء قال للصبى بصوت خافت :

– اذهب الى الفناء . هناك عمل ستساعدنى فيه . سآتى حالا .

خرج الصبى مطيعا ، وما ان اغلق خلفه الباب حتى دوى صوت الجدة :

– الى اين ؟

فاجاب مأمون :
– سأذهب لنقل الجذع . كان قد انحشر فى النهر .
فصرخت الجدة :
– آه ، تذكرت ؟ افقت ؟ اذهب لترى ابنتـك . جول جمال آوتها عندها . من بحاجة اليها الآن ، ابنتك الحمقاء العاقر . اذهب ودعها تخبرك من هى الآن . زوجها طردها من البيت كمـا يطرد الكلب الاجرب .
فقال مأمون بمرارة :
– طيب ، طردها يعنى طردها . .
– انظروا اليه ! من تكون انت ؟ فسدت بنتاك ، أتظن انك بالتعليم ستجعل من حفيدك رئيسا ؟ بُعدك ! أمن اجل هذا ترمى بنفسك الى الهلاك ؟ ثم تركب «ألباش» وترمح ! يا سلام عليك ! كان يجب ان تعرف قدرك وضد من تقف . . . انه يستطيع ان يكسر عنقك كما تكسر عنق دجاجة . ومنذ متى اصبحت تعارض ؟ منذ متى اصبحت بطلا ؟ اياك ان تفكر فى المجىء بابنتك الى هنا . لن ادعها تدخل . . .
تسكع الصبى مكتئبا فى الفنـــاء . واستمرت صيحات الجدة تتردد فى البيت ، ثم اصطفق الباب واندفع مأمون خارجا منه . واتجه العجوز الى منزل سيد احمد ، ولكن جول جمال قابلته فى الطريق .
– لا داع الآن ، فيما بعد افضل ، – قالت لمأمون فتوقف هذا محتارا . – انها تبكى ، لقد ضربها – همست جول جمال . – تقول انهما لن يعيشا بعد الآن معا . انها تلعنك . . تقول انك السبب فى كل شىء .
صمت مأمون ، فماذا يقول ؟ حتى ابنته لم تعد تريد ان تراه .
وقالت جول جمال فى همس :
– اما اروزكول فجالس فى بيته يشرب . صار كالوحش .
اطرقا صامتين . ثم زفرت جول جمال وقالت بعطف :
– لو يأتى سيد احمد بسرعة ! من المفروض ان يعود اليوم . اذن لحملتما هذا الجذع معا وخلصنا من هذا .
فهز مأمون رأسه :

– وهل المشكلة فى الجذع ؟ – واطرق مفكرا ، وعندما رأى حفيده بجواره قال له : – اذهب انت ، العب .

تنحى الصبى جانبا . ثم ذهب الى الحظيرة فأخذ المنظار المخبأ هناك . ومسح عنه الغبار . وقال للمنظار بحزن : «احوالنا سيئة . يبدو اننى والحقيبة السبب فى ذلك . لو كانت هناك مدرسة اخرى ، لذهبت انا والحقيبة اليها لنتعلم ، بحيث لا يعرف احد . ولكنى اشفق على جدى ، فسوف يبحث عنا . وانت يا منظار ، مع من ستتطلع الى السفينة البيضاء ؟ اتظن اننى لن اتحول الى سمكة ؟ سترى . ساسبح الى السفينة البيضاء . . .»

اختبأ الصبى خلف كوم الدريس وراح يتطلع فيما حوله بالمنظار . تطلع قليلا وبلا مرح . فى وقت آخر لا تمل النظر . . فها هى الجبال الخريفية مغطاة بالغابات الخريفية ، وفى الاعلى يرقد الثلج الابيض ، وفى الاسفل تشتعل نيران حمراء .

وضع الصبى المنظار فى مكانه ، وعندما خرج من الحظيرة رأى جده يقود عبر الفناء الحصان مسرجا . كان متوجها الى المخاضة . وهم الصبى بالركض نحو جده ولكن اوقفته صيحة اروزكول . قفز اروزكول من داره بالقميص الداخلى ومعطف الفراء مسدل على كتفيه . وكان وجهه احمر كضرع ملتهب .

– اسمع يا انت ! – صاح فى مأمون مهددا . – الى اين تسوق الحصان ؟ ضعه فى مكانه . سنحمل الجذع بدونك . واياك ان تلمسه . انت هنا لست شيئا الآن . اننى اطردك من الكوردون . غر الى حيث تريد !

ضحك الجد ضحكة مرة وعاد بالحصان الى الاصطبل . وفجأة اصبح مأمون عجوزا وضئيلا . سار دون ان يلتفت ونعلاه يحتكان بالارض .

اختنق الصبى بالغضب للاهانة التى لحقت الجد ، ولكى لا يراه احد وهو يبكى ركض الى شاطئ النهر . وكان الدرب يغشاه ضباب الدموع فيختفى ، ثم يعود الى الظهور تحت قدميه . كان الصبى يركض ودموعه تنهمر . ها هى احجاره الحبيبة : «الدبابة» و«الذئب» و«السرج» و«الجمل الراقد» . لم يقل لها الصبى شيئا ، فهى لا تفهم شيئا وتقف هكذا جامدة . احتضن الصبى سنام

«الجمل الراقد» ، وارتمى على جرانيته الاحمر وانفجر فى البكاء بمرارة ولوعة . بكى طويلا ، ثم هدأ بالتدريج حتى كف عن البكاء .

واخيرا رفع رأسه ، ومسح عينيه ، ونظر امامه فذهل .

امامه مباشرة ، على الشاطئ المقابل وقفت ثلاث مارال قرب ماء النهر . مارال حقيقية . حية . كانت تشرب الماء ، ويبدو انها ارتوت . اما ذلك المارال صاحب اطول واثقل قرون ، فقد نكس رأسه ثانية نحو الماء واخذ يمتصه بشفتيه ، وبدا كأنه يتملى فى المياه الضحلة قرونه كما فى مرآة . كان لونه يميل الى البنى ، عريض الصدر ، قوى البنية . وعندما رفع رأسه تساقطت قطرات المياه من شفته المشعرة الشقراء . وتطلع ذو القرون الى الصبى باهتمام وهو يحرك اذنيه .

ولكن اكثرها تحديقا فى الصبى كانت تلك الغزالة البيضاء المنتفخة الجنبين ، التى كانت تحمل على رأسها تاجا من القرون الرفيعة المتشعبة . كانت قرونها اصغر قليلا ولكنها فى غاية الجمال . وكانت تشبه بالضبط الغزالة الام ام القرون . كانت عيناها كبيرتين صافيتين . اما هى فكانت كالفرس الفخمة التى تلد كل عام مهرا . حدقت الغزالة الام ام القرون فى الصبى بانتباه وهدوء ، كأنما كانت تتذكر اين رأت هذا الصبى الكبير الرأس النافر الاذنين . ولمعت عيناها المبللتان وسطعتا من بعيد . ومن منخاريها تصاعد بخار خفيف . ووقف بجوارها أيل صغير شاب مستديرا بظهره وهو يقضم اغصان الشجيرات . لم يكن مهتما بشىء . وكان مدملجا ، قويا ومرحا . كف فجأة عن قضم الاغصان وقفز بمرح فمس الغزالة بكتفه ، ثم راح يقفز من حولها ويلاطفها . وحك رأسه الخالى من القرون فى جنبى الغزالة الام ام القرون . اما الغزالة الام ام القرون فلم تحول عينيها عن الصبى .

كتم الصبى انفاسه ، وخرج من خلف الحجر ، وكما فى الحلم مد يديه امامه واقترب من الشاطئ ، من الماء مباشرة . ولم يبد على المارال انها خافت على الاطلاق ، وظلت تحدق فيه بهدوء من الشاطئ الآخر .

وبينهما كان يتدفق نهر سريع اخضر رائق يفور ويتموج عبر

الاحجار الغائصة فيه . ولولا هذا النهر الفاصل بينهما لكان من الممكن ، فيما يبدو ، الاقتراب من المارال ولمسها باليد . كانت المارال تقف على الشاطئ المنبسط المفروش بالحصى النظيف . ومن خلفها ، عند نهاية شريط الحصى ، تأججت الاحراش الخريفية الحمراء . والى اعلى جرف طينى ، ومن فوقه اشجار البتولا والحور الرجراج الذهبية الحمراء ، والى اعلى منها غابة كبيرة وثلج ابيض على السفوح الصخرية .

اغمض الصبى عينيه ثم فتحهما ثانية ، فتبدت لناظريه اللوحة ذاتها ، وعلى خلفية الشجيرات الحمراء كانت تقف نفس المارال الاسطورية على الحصى النظيف .

ولكن ها هى تستدير وتمضى صفا فوق الحصى الى الغابة . فى المقدمة سار المارال الكبير ، وفى الوسط الايل الصغير ، ومن خلفه الغزالة الام ام القرون . والتفتت ، ونظرت الى الصبى مرة اخرى . ثم دلفت المارال الى الخمائل وسارت عبرها . واهتزت الغصون الحمراء فوقها وتساقطت اوراق حمراء فوق ظهورها المرنة الملساء .

ثم سارت على الدرب الى اعلى وارتقت الجرف ، وهنا توقفت . وخيل للصبى من جديد ان المارال كانت تتطلع اليه . ومد المارال الكبير عنقه ، وطوح قرونه الى الخلف فوق ظهره وصاح كالنفير : «باو ! . . باو ! . .» وانداحت صيحته فوق الجرف ثم فوق النهر صدى طويلا : «آو . . آو . .» .

وهنا فقط افاق الصبى . انطلق يعدو باقصى سرعة الى البيت على الدرب المعروف . كان يجرى بكل قواه . ومرق من الفناء وفتح الباب فى صخب وصاح وهو يلهث فوق العتبة :

— يا جدى ! المارال جاءت ! المارال جاءت ! انها هنا !

نظر اليه الجد مأمون من ركن الغرفة حزينا منطويا ، ولم يقل شيئا كانما لم يفهم عم يدور الحديث .

ونهرته الجدة :

— كفاك صياحا ! فلتكن جاءت ، لدينا من الهم ما يكفى .

وخرج الصبى بهدوء . كان الفناء خاويا . ومالت شمس الخريف وراء جبل الحراسة ، خلف السلسلة المجاورة من الجبال العارية الغسقية . اشتعلت الشمس لهبا داكنا لا دفء فيه فوق الصحارى

الجبلية التى راحت تبرد . ومن هنا انتشر هذا اللهب البارد الى الاماكن المجاورة وهجا متموجا فوق قمم الجبال الخريفية . والتفت الغابات بعتمة المساء .

برد الجو ، وهبت رياح آتية من الثلوج . وارتعش الصبى . كان يرتجف من الحمى .

٦

كان يرتجف من الحمى ايضا عندما اوى الى الفراش . وظل طويلا لا يستطيع النوم . وكان الليل الاسود قد شمل الفناء . كان يشعر بصداع ولكنه لزم الصمت . ولم يعرف احد انه مرض . نسوه . وكيف لا ينسونه وهم فى هذه الحال !

اختلطت الامور على الشيخ تماما . ولم يهدأ له مستقر . فمرة يخرج ، ومرة يدخل ، ومرة يجلس مغتما ويزفـــر باسى ، ومرة ينهض ثانية وينصرف الى مكان ما . وكانت الجدة توبـــخ العجوز بغضب وترمح هى ايضا جيئة وذهابا ، وتارة تخرج الى الفناء ، وتارة تعود . وترددت فى الفناء اصوات مقتضبـــة غير واضحة ، وخطوات عجلى وسباب ما . . . يبدو ان اروزكول عاد الى السباب ، وبكى شخص ما وهو يشهق . . .

كان الصبى راقدا فى هدوء وقد ارهقته اكثر فاكثر كل هذه الاصوات والخطوات ، وكل ما كان يجرى فى البيت وفى الفناء .

اغمض عينيه ، وحاول ان يخفف من وحدته ونسيانهم لــه فتذكر ما حدث اليوم وما اراد ان يراه . كان واقفا على شاطئ نهر كبير . وتدفقت مياه النهر بسرعة الى درجة كان من الصعب معها النظر اليها طويلا ، والا دار الرأس . ومن الشاطئ الآخر حدقت فيه المارال . المارال الثلاث جميعا التى رآها قبيل المغيب كانت تقف الآن هناك ثانية . وتكرر كل شىء من جديد . المارال الكبير ذو القرون تساقطت من شفته المبللة نفس القطرات عندما رفع رأسه عن الماء . اما الغزالة الام ام القرون فكانت تحدق فى الصبى بانتباه ، كما كانت تفعل ، بعينين طيبتين فاهمتين . وكانت عيناها كبيرتين داكنتين مبللتين . ودهش الصبى جدا عندما رأى الغزالة الام ام القرون تتنهد كما يفعل البشر . بحزن واسى كجده . وبعد ذلــك

انصرفت المارال عبر الخمائل . واهتزت الغصون الحمراء فوقها ، وتساقطت الاوراق الحمراء فوق ظهورها المرنة الملساء . وارتقت الى الجرف . وهنا توقفت . ومد المارال الكبير عنقه وطوح قرونه الى الخلف فوق ظهره وصاح كالنفير : «باو ! . باو !» وابتسم الصبى فى سره وهو يتذكر كيف انداحت صيحة المارال الكبير فوق النهر صدى طويلا . وبعد ذلك اختفت المارال فى الغابة . ولكن الصبى لم يكن يريد ان يفارقها ولهذا اخذ يختلق ما كان يود ان يراه .

ومن جديد تدفق النهر الكبير امامه بسرعة . ودار رأسه من سرعة التيار . وقفز فطار متخطيا النهر . وهبط برفق وسلاسة غير بعيد عن المارال التى ظلت واقفة على شريط الحصى . ونادته الغزالة الام ام القرون اليها :

– ابن من انت ؟

صمت الصبى فقد شعر بالخجل ان يقول لها ابن من هو . ثم تمتم :

– انا وجدى نحبك جدا يا امنا الغزالة ام القرون . كنا ننتظرك من زمان .

فقالت الغزالة الام ام القرون :

– وانا ايضا اعرفك . واعرف جدك ايضا . انه انسان طيب .

فرح الصبى ولكن لم يدر كيف يشكرها .

وفجأة قال لها :

– أتريدين ان اصبح سمكة واسبح فى النهر الى ايصيق–كول ، الى السفينة البيضاء ؟

كان يعرف كيف يفعل ذلك . ولكن الغزالة الام ام القرون لم تجب على ذلك بشيء . عندئذ شرع الصبى يخلع ملابسه ، وكما كان يفعل فى الصيف نزل الى الماء وهو ينكمش ، ممسكا بغصن شجيرة الشاطئ . ولكن الماء لم يكن باردا بل حارا ، ساخنا ، خانقا . وسبح تحت الماء بعينين مفتوحتين ، واذا اعداد هائلة من حبات رمال القاع الذهبية والحصى الدقيق تدور من حوله كسرب نحل طنان . وبدأ يختنق ، بينما مضى التيار الساخن يسحبه .

وصاح الصبى بصوت عال :

- الحقينى يا امنا الغزالة ام القرون ، الحقينى ، انا ايضا ابنك !

وجرت الغزالـــة الام ام القرون على الشاطئ فى اثره . جرت بسرعة ، وصفرت الريح فى قرونها ، وعلى الفور احس بشىء من الراحة .

كان مبللا بالعرق . وتذكر الصبى ان جده فى مثل هذه الاحوال كان يدثره اكثر فشد الغطاء والتحف به افضل . لم يكن احد فى المنزل . واحترق فتيـــل المصباح الكيروسينى فانبعـث ضوؤه شاحبـا . واراد الصبـــى ان ينهض ليشرب ، ولكن ترددت فى الفناء من جديد اصوات حادة ، وصاح احد ما فى احد ما ، وبكـى شخص ما وراح شخص آخر يهدئه . وسمعت جلبـــة ووقـــع اقدام . . . ثم مر بجوار النافذة تماما شخصان يتأوهان ويتوجعان ، وبدا كأن احدهما يسحب الآخر . وفتح الباب فى صخب ، ودفعت الجدة الجد مأمون الى داخل البيت دفعا وهى تلهث هائجة . لم ير الصبى فى حياته جده مذعورا بهذه الصورة . وبدا انه لا يفقـه شيئا وكانت نظراته زائغة حائرة . ودفعتـــه الجدة فى صدره واجبرته على الجلوس .

- اجلس ، اجلس ايها الاحمق العجوز ولا تحشر نفسك فيما لا يعنيك . هل هذه اول مرة يحدث بينهما هذا ؟ اذا كنت تريد ان ينتهى كل شىء بسلام فاجلس ولا تحشر نفسك . افعل ما اقول لك ، سامع ؟ والا سمّم علينا حياتنا ، فاهم ؟ والى اين نذهب فى آخر العمر ؟ الى اين ؟ - قالت الجدة ذلك ثم صفقت الباب وراءها وانطلقت من جديد .

عاد الهدوء يلف البيت . ولم تسمـــع سوى انفاس الجـــد المتحشرجة المتقطعة . كان جالسا على المصطبة بجوار الفرن دافنا رأسه بين ذراعيه المرتعشتين . وفجأة ارتمى العجوز على ركبتيه ورفع يديه متأوها ، موجها كلامه الى مجهول :

- خذنى اليك ، خذنى انا البائس ! فقط امنحهـــا طفلا ! لا استطيع ان انظر اليها . اعطها ولو طفلا واحدا وحيدا . . ارأف بنا . . .

ونهض العجوز وهو يبكى ويترنح ويتشبث بالجدران حتى عثر

على الباب . وخرج ، واغلقه خلفه ، وهناك ، خلف الباب انخرط في نحيب مكتوم وهو يسد فمه بقبضته .

ساءت حالة الصبي ، وعاد يرتجف ، تارة يشتعل بالحمى ، وتارة يصطك من البرد . واراد ان ينهض ويذهب الى جده . ولكن ساقيه ويديه لم تطاوعه وضج رأسه بالالم . بينما كان العجوز يبكي خلف الباب ، وفي الفناء عاد اروزكول الثمل الى هياجه ، وولولت الخالة بيكي بجنون ، وكانت اصوات جول جمال والجدة تستعطفهما وترجوهما .

وتركهم الصبي الى عالمه الخيالي .

وقف من جديد على شاطئ النهر السريع ، وعلى الشاطئ الآخر ، فوق الحصى وقفت المارال نفسها . وعندئذ توسل الصبي : «يا امنا الغزالة ام القرون ، احضري للخالة بيكي مهدا على قرونك ! اتوسل اليك احضري لهما مهدا ، فليكن لديهما طفل» . وجرى في الماء نحو الغزالة الام ام القرون . ولم تغص قدماه في الماء ، بيد انه لم يقترب من الشاطئ الآخر كأنما كان يجري في محله . وكان طوال الوقت يتوسل الى الغزالة الام ام القرون ويستحلفها : «احضري لهما مهدا على قرونك . اجعلي جدي لا يبكي ، واجعلي العم اروزكول لا يضرب خالتي بيكي ، واجعلي لهما طفلا . سوف احب الجميع ، وسأحب العم اروزكول ، لكن اعطيه طفلا ، احضري لهما مهدا على قرونك ! . .»

وخيل للصبي ان جرسا صغيرا رن بعيدا . وازداد الرنين ارتفاعا . كانت تلك هي الام الغزالة تجري في الجبال تحمل على قرونها مهد اطفال من خشب البتولا بجرس صغير . كانت الام الغزالة ام القرون تركض على عجل . واقترب رنين الجرس اكثر فاكثر . . .

ولكن ما هذا ؟ اتحد برنين الجرس ازيز محرك بعيد . في مكان ما سارت شاحنة . وارتفع ازيز السيارة اقوى فاقوى وهو يزداد وضوحا ، بينما تراجع الجرس وخفت وتباعدت دقاته ، وسرعان ما اختفى في هدير المحرك .

سمع الصبي السيارة وهي تدلف الى الفناء وتقرقع من اصطدام المعدن بالمعدن . واندفع الكلب الى الفناء الخلفي نابحا . وللحظة

لاح فى النافذة انعكاس ضوء المصابيح ثم انطفأ توا . وتوقف المحرك . واصطفقت ابواب كابينة السائق . ومر القادمون وهم يتحدثون بجوار النافذة التى يرقد خلفها الصبى ، وكان يبدو من اصواتهم انهم ثلاثة .

— سيد احمد وصل ، — دوى فجأة صوت جول جمال المبتهج ، وكان مسموعا وقع خطواتها المسرعة للقاء زوجها . — لقد طال انتظارنا !

ورد عليها الغرباء :

— مرحبا !

وسأل سيد احمد :

— وكيف احوالكم ؟

— لا بأس . نعيش . لماذا تأخرت هكذا ؟

فقال سيد احمد :

— بل قولى هذا من حظى . لقد وصلت الى السوفخوز واخذت انتظر سيارة عابرة . ولو الى جيليساى . واذا بهم قادمون الينا لنقل الخشب . الوادى مظلم ، والطريق كما تعرفين .

وسأل احد القادمين :

— واين اروزكول ؟ فى البيت ؟

فاجابت جول جمال حائرة :

— فى البيت . مرض قليلا . لا تقلقوا ، اقضوا الليلة عندنا . لدينا مكان . تفضلوا .

وتقدموا ، ولكنهم توقفوا بعد بضع خطوات .

— مرحبا يا اكسكال . مرحبا يا جدة .

كان الغرباء يسلمون على الجد مأمون والجدة . اذن فقد خجلا من الوافدين فاستقبلاهم فى الفناء كما ينبغى ان تستقبل الغرباء . ربما يخجل اروزكول كذلك ؟ لو انه لا يجلب العار على نفسه وعلى الآخرين !

هدأ الصبى قليلا . وعموما فقد تحسنت حالته . خف الصداع عن السابق ، حتى انه فكر : ألا ينهض ويذهب ليتفرج على السيارة ، ليرى كيف تبدو ، باربع عجلات ام بست ؟ جديدة ام قديمة ؟ وكيف تبدو المقطورة ؟ ذات مرة ، فى هذا الربيع ، قدمت

اليهم فى الكوردون شاحنة عسكرية . . بعجلات عالية ، وكانت قصيرة الانف كأنما قطعوه . وسمح السائق الجندى الشاب للصبى بالجلوس فى الكابينة . شىء رائع ! اما الضابط القادم ، ذو الكتافيات الذهبية ، فقد ذهب مع اروزكول الى الغابة . فلماذا ؟ لم يحدث شىء كهذا ابدا من قبل .

وسأل الصبى الجندى :

– ماذا ، أتبحثون عن جاسوس ؟

فضحك الجندى وقال :

– نعم ، نبحث عن جاسوس .

فدمدم الصبى بحزن :

– اما نحن فلم يأت الينا بعد اى جاسوس .

وقهقه الجندى :

– وما حاجتك اليه ؟

– كنت اطارده واقبض عليه .

– اوه ، يا لك من همام ! لكنك ما زلت صغيرا ، فلتكبر اولا .

وظل الصبى يتحدث مع السائق طوال الفترة التى قضاها الضابط ذو الكتافيات الذهبية مع اروزكول فى الغابة .

قال الصبى :

– انا احب كل السيارات وكل السائقين .

فاستفهم الجندى :

– وما السبب ؟

– لان السيارات جيدة وقوية وسريعة . وتفوح منها رائحة البنزين اللذيذة . والسائقون . . لانهم جميعا شبان ، وكلهم ابناء الغزالة الام ام القرون .

ولم يفهم الجندى فقال :

– ماذا ؟ ماذا ؟ اية أم بقرون ؟

– وهل انت لا تعرف ؟

– كلا . لم اسمع ابدا بهذه الاعجوبة .

– ومن انت ؟

– انا كازاخى ، من قرەغندة . درست فى مدرسة المناجم .

– لا ، ابن من انت ؟

— ابن ابى وامى .
— وهما ابناء مَنْ ؟
— ايضا ابناء ابيهما وامهما .
— وهما ؟
— اسمع ، هكذا يمكن السؤال بلا نهاية .
— اما انا فابن ابناء امنا الغزالة ام القرون .
— من قال لك هذا ؟
— جدى .

فقال الجندى بشك وهو يهز رأسه :

— كلام غريب .

اثار اهتمامه هذا الصبى الكبير الرأس ، المنتصب الاذنين ، ابن ابناء الغزالة الام ام القرون . الا ان الجندى احس بالحرج قليلا عندما اتضح انه لم يكن يعرف لا بداية اصله فحسب ، بل ولا يعرف حتى جده السابع ، الذى لا بد ان يعرفه كل انسان . كان الجندى يعرف فقط اباه وجده وابا جده . . وماذا بعدهم ؟

سأله الصبى :

— ألم يعلموك ان تحفظ الاسماء حتى الجد السابع ؟
— لم يعلمونى . وما الداعى ؟ ها انا ذا لا اعرف ، ومع ذلك لا بأس ، اعيش ولا اشكو .
— جدى يقول ان الناس اذا لم تذكر اباءها فستفسد .
— من سيفسد ؟ الناس ؟
— نعم .
— ولماذا ؟
— جدى يقول انه ساعتها لن يخجل احد من اعماله السيئة ، لان اولاده واولاد اولاده لن يذكروه . ولن يصنع احد اعمال الخير ، لان احدا منهم لن يعرف ذلك على اى حال .

فقال الجندى بدهشة حقيقية :

— يا له من جد جدك هذا ! جد طريف . الا انه يملأ رأسك بالكلام الفارغ . وانت رأسك كبير . . . واذناك تشبهان الرادار عندنا فى ميدان التدريب . لا تسمع ما يقوله . اننا نسير نحو الشيوعية ، ونحلق فى الفضاء . . فماذا يعلمك ؟ لو اخذناه عندنا

فى دروس التثقيف السياسى ، لعلمناه فورا . اسمع ، عندما تكبر وتتعلم ارحل بعيدا عن جدك . انه رجل جاهل غير متحضر .
فاعترض الصبى :
— كلا ، لن ارحل الى اى مكان بعيدا عن جدى ابدا . انــه طيب .
— حسنا ، هذا ما تراه الآن ، فيما بعد ستفهم .
تذكر الصبى الآن ، وهو يصغى الى الاصوات ، تلك السيارة العسكرية ، وكيف انه لم يستطع آنذاك ان يوضح للجندى جيدا لماذا يعتبر السائقون المحليون ، او على الاقل اولئك الذين كان يعرفهم ، ابناء الغزالة الام ام القرون .
كان الصبى يحدثه بالحقيقة . ولم يكن فى كلامه اى اختلاق . ففى العام الماضى ، فى مثل هذا الوقت من الخريف ، او ربما فى وقت متأخر عن ذلك قليلا ، جاءت سيارات السوفخوز الى الجبال لتنقل الدريس . لم تمر بجوار الكوردون ، بل انعطفت قبله بقليـــل مع الطريق الى سهل «ارتشا» وصعدت الى اعلى ، حيث كانوا فى الصيف قد حصدوا العشب لنقله فى الخريف الى السوفخوز . وعندما سمع الصبى هدير المحركات الذى لم يسبق له مثيل فوق جبل الحراسة ، ركض الى مفترق الطرق . كل هذه السيارات دفعـــة واحدة ! واحدة تلو الاخرى . طابور كامل . واحصاها فكانت خمس عشرة سيارة .
كان الطقس على وشك التحول ، ومن المتوقع ان يهطل الثلج بين يوم وآخر ، وساعتها قل للدريس الوداع حتى العام القادم . ففى هذه الاماكن اذا لم تنقل الدريس فى الوقت المناسب ، فلا تحاول بعد ذلك حتى ان تفكر فيه . فلن تصل اليه . ويبدو انهم تأخروا فى السوفخوز اذ انشغلوا بشتى الاعمال ، وعندما ضاق الوقت قرروا ان ينقلوا الدريس دفعة واحدة ، بالسيارات كلها . ولكن هيهات ! . .
لم يكن الصبى يعرف ذلك ، وعلى العموم فما شأنه به ؟ راح فقط يجرى بفرح والحاح ليستقبل كل سيارة ويجاريها قليلا ، ثم يستقبل السيارة التالية . وكانت الشاحنات كلها جديدة ، بكبائن جميلة وزجاج عريض . وفى الكبائن جلس فرسان شبان ، كلهم

بلا شوارب كأنما اختاروهم اختيارا ، وفى بعض الكبائن كان يجلس شابان اثنان . كانوا ذاهبين لشحن الدريس وربطه . وبدوا جميعا للصبى جميلى الوجوه ، جسورين ، مرحين . كما فى الافلام .

وعموما لم يخطئ الصبى ، فذلك ما كان فى الواقع . كانـت سيارات الشبان فى حالة جيدة ، فانطلقوا بهـا مسرعين ، وعبروا المنحدر من جبل الحراسة على طريق حجرى صلب . وكان مزاجهم رائعا ، فالطقس لا بأس به ، وعلاوة على ذلك يظهر هذا الولـد الشقى من حيث لا تدرى ، فيركض لاستقبال كل سيارة وقد طار عقله من شدة الفرحة . فكيف اذن لا تضحك وتلوح لـه بيدك وتهدده مازحا ليزداد مرحا وشقاوة . . .

بل ان آخر شاحنة توقفت . واطل من كابينتها شاب فى زى جندى ومعطف بلا كتافيات وبدون عمرة عسكرية بل كان يرتدى «كسكتة» ، كان هو السائق .

وغمز للصبى بعينه محييا وقال بحفاوة :

— مرحبا ، ماذا تفعل هنا ؟

فأجاب الصبى بشىء من الخجل :

— هكذا . . لا شىء .

— هل انت حفيد الجد مأمون ؟

— نعم .

— هذا ما ظننته . اننى ايضا بوجى . وكل الشبان السائقين هنا بوجيون . ذاهبون لاحضار الدريس . البوجيون الآن لا يعرفون بعضهم البعض ، لقد تفرقوا . . . بلغ جدك السلام . قل له انك رأيت كولوبيك ابن تشوتباى . قل له ان كولوبيك عاد مـن الجيش ويعمل الآن سائقا فى السوفخوز . حسنا ، وداعا ! — واهدى للصبى وهو يودعه شارة عسكرية ، طريفة جدا ، تشبه الوسام .

زأرت السيارة كالنمر الجبلى ، وانطلقت لتلحق بالأخريات . واحس الصبى فجأة برغبة شديدة فى الرحيل مـع هذا الشاب البشوش الجسور ذى المعطف ، مع هذا الاخ البوجى . ولكن الطريق كان قد اقفر ، فعاد ادراجه الى البيت . عاد فخورا ، ولكنه اخبر جده بذلك اللقاء . اما الشارة فعلقها على صدره .

فى ذلك اليوم قبيل المساء هبت فجأة رياح سان-تاش مـن

هناك ، من القمة الواقعة تحت السماء ، وانقضت كالزوبعة . وطارت اوراق الشجر فوق الغابة وارتفعت كالعمود اعلى فاعلى ، ثم اندفعت فوق الجبال يصحبها هدير . وفى لحظة خاطفة ساء الجو الى درجة اصبح مستحيلا معها ان تفتح عينيك . وعلى الفور هطل الثلج . ارتمى الظلام الابيض على الارض ، وتمايلت الغابات ، وهدر النهر . وهطل الثلج غزيرا عاصفا .

وتمكنوا بعد جهد من ادخال الماشية فى الحظيرة ، وجمع بعض الاشياء من الفناء ، وتمكنوا كيفما اتفق من نقل المزيد من الحطب الى المنزل ، وبعد ذلك لم يجرؤوا على مجرد الاطلال من البيت . مستحيل فى مثل هذه العاصفة الرهيبة المبكرة .

وقال الجد مأمون باستغراب وقلق وهو يشعل الموقد :

— ما معنى هذا يا ترى . . .

وظل طوال الوقت يصغى الى صفير الريح ، ويقترب من النافذة بين الحين والآخر .

وخلف النافذة اخذ الظلام الثلجى المدوّم يطبق بسرعة .

ودمدمت الجدة متذمرة :

— اجلس فى مكانك واستقر ! هل هذه اول مرة ؟ — وقلدته ساخرة — «ما معنى هذا يا ترى ؟» . . معناه ان الشتاء جاء .

— مرة واحدة هكذا ، فى يوم واحد ؟

— ولم لا ؟ هل يستأذنك ؟ اراد الشتاء ان يأتى فأتى .

عوت المدخنة . وفى البداية احس الصبى بالرهبة ، كما انه شعر بالبرد وهو يساعد جده فى شئون المنزل . ولكن سرعان ما اشتعل الحطب وانتشر الدفء ، وفاحت فى البيت رائحة الصمغ الحار ودخان الصنوبر ، فهدأت نفس الصبى وسرى فيه الدفء .

وبعد ذلك تعشوا . ثم اووا الى الفراش . اما فى الفناء فاستمر الثلج يهطل ويدور ، وعربدت الريح .

وفكر الصبى وهو يصغى الى الاصوات خلف النافذة :

«لا بد ان الجو مخيف فى الغابة» . وتملكه الرعب عندما اخذت اصوات وصيحات ما تتناهى فجأة من الخارج . كان شخص ما ينادى احدا ، وشخص ما يرد على النداء . فى البداية ظن الصبى ان ذلك خيل اليه . فمن الذى يمكن ان يأتى فى هذا الوقت الى

الكوردون ؟ ولكن الجد مأمون والجدة ايضا اصاخا السمع بترقب .
وقالت الجدة :
– هناك ناس .
فرد العجوز بلا ثقة :
– نعم .
ثم اعتراه القلق : فمن اين جاءوا فى هذا الوقت ؟ وراح يرتدى ملابسه على عجل . واستعجلت الجدة ايضا . فنهضت واشعلت المصباح . ولسبب ما شعر الصبى بالخوف فارتدى ملابسه على عجل . وفى تلك الاثناء اقترب الناس من البيت . اصوات كثيرة وارجل كثيرة . وصر الثلج المتراكم تحت اقدام القادمين ، وقرقعت احذيتهم على ارضية الشرفة ، ثم توالت دقاتهم على الباب :
– افتح يا اكسكال ! نتجمد من البرد .
– من انتم ؟
– لسنا غرباء .
وفتح مأمون الباب . ومع دوامات البرد والهواء والثلج اندفع الى داخل البيت اولئك السائقون الشبان الذين مروا نهارا متجهين الى سهل «ارتشا» لجلب الدريس . كان الثلج يغطيهم . وعرفهم الصبى على الفور . وعرف فيهم كولوبيك ذا المعطف ، والذى اهدى اليه الشارة العسكرية . كانوا يسحبون احدهم من تحت ابطيه ، وكان يئن ويجرجر ساقه . وعلى الفور دب الهرج فى المنزل .
وردد الجد مأمون والجدة فى صوت واحد :
– يُستر الله ، ماذا جرى لكم ؟
– فيما بعد ، فيما بعد ! هناك سبعة من رجالنا فى الطريق . نخشى ان يضلوا . حسنا ، اجلس هنا . التوت قدمه – قال كولوبيك بسرعة وهو يجلس الشاب المتأوه على المصطبة بجوار الفرن .
فقال مأمون بعجلة :
– واين هم رجالكم ؟ ساذهب حالا وآتى بهم . وأنت اجرِ – قال للصبى – وقل لسيد احمد ان يأتى بالمصباح بسرعة ، المصباح الكهربائى .
اندفع الصبى خارجا فاختنق . وحتى آخر حياته ظل يذكر تلك

اللحظة الرهيبة . اطبق على زوره وحش خرافى مشعث ، بارد مصفرّ وراح يمزقه . ولكنه لم يجبن . افلت من مخالبه القابضة وركض الى بيت سيد احمد وهو يحمى رأسه بيديه . لم تكن المسافة تزيد عن عشرين او ثلاثين خطوة ، ولكن خيل اليه انه يركض الى بعيد عبر العاصفة كالبطل الاسطورى المسرع الى نجدة محاربيه . وامتلأ قلبه بالشجاعة والعزيمة . وبدا لنفسه مهولا لا يهزم . وخلال المسافة التى قطعها الى بيت سيد احمد تمكن من القيام ببطولات ومآثر تبهر الانفاس . قفز عبر الهوات من جبل الى جبل ، واعمل السيف فى جحافل الاعداء ، وانقذ الكثيرين من الموت حرقا وغرقا . وطارد بطائرة مقاتلة نفاثة براية حمراء خفاقة وحشا خرافيا مشعثا اسود كان يفر من امامه عبر الشعاب والصخور . وانطلقت مقاتلته النفاثة وراء الوحش كالرصاصة . واطلق الصبى عليه رشاش طائرته صائحا : «اضرب الفاشست !» وفى كل الاحوال كانت الغزالة الام ام القرون حاضرة . كانت فخورة به . وعندما وصل الصبى الى باب بيت سيد احمد قالت له الغزالة الام ام القرون : «والآن انقذ ابنائى ، السائقين الشبان !» — «سأنقذهم يا امنا الغزالة ام القرون ، اقسم لك !» — قال الصبى بصوت مسموع ودق الباب .

— اسرع يا عم سيد احمد ، هيا ننقذ رجالنا ! — اطلق الصبى هذه الكلمات بسرعة حتى ان سيد احمد وجول جمال قفزا رعبا .

— ننقذ من ؟ ماذا حدث ؟

— جدى قال ان تحضر المصباح الكهربائى جريا ، سائقو السوفخوز ضلوا الطريق .

فسبه سيد احمد :

— ايها الاحمق ، هكذا كان يجب ان تقول ، — واسرع يستعد .

ولكن ذلك لم يغضب الصبى ابدا . فمن اين لسيد احمد ان يعرف بالمآثر التى حققها حتى يصل اليهم واى قسم اقسمه . ولم يشعر الصبى ايضا بالحرج عندما عرف ان الجد مأمون وسيد احمد قابلا السائقين السبعة بجوار الكوردون مباشرة واحضراهم . ألم يكن من الجائز ان يحدث العكس ؟ الخطر بسيط عندما يمر . . . وعموما فقد عثروا على المفقودين ، واخذهم سيد احمد الى منزله .

حتى اروزكول استضاف خمسة منهم للمبيت ، فقد اضطروا الى ايقاظه هو ايضا . وازدحم الباقون فى منزل الجد مأمون .

ولم تهدأ العاصفة فى الجبال . وخرج الصبى الى الشرفة ، وبعد دقيقة لم يعد يعرف اين يمينه واين شماله ، واين فوق واين تحت . فقد عربد الليل العاصف . وهطل الثلج وتراكم حتى الركب .

والآن فقط ، بعد ان تم العثور على جميع سائقى السوفخوز ، وبعد ان تدفأوا وزايلهم الخوف والبرد ، استفسر الجد مأمون بحذر عما حدث لهم ، رغم انه كان من الواضح ان العاصفة دهمتهم فى الطريق . وبينما مضى الشبان يحكون اخذ الجد والجدة يتنهدان :

— اوه ، اوه . . . — كانا يبديان دهشتهما لما حدث ويحمدان الله ، ضامين ايديهما الى صدريهما .

وعاتبتهم الجدة وهى تصب لهم الشاى الحار :

— لبستـــم ملابس خفيفة يا اولادى . هل يجوز ان تذهبوا للجبال بهذه الملابس ؟ ما زلتم اطفالا . . كلكم تتعايقون ، تريدون التشبه بابناء المدينة . لو انكم ضللتم الطريق لما جاء الصباح الا وقد تجمدتم كالجليد ، لاقدّر الله .

فاجابها كولوبيك :

— ومن كان يدرى ان هذا سيحدث ؟ ولماذا نلبس ملابس ثقيلة ، ان سياراتنا بها مدافئ فى الداخل . فلتجلس كأنـــك فى بيتك . وما عليك الا ان تمسك بالمقود . انظرى الى الطائرة ، على اى ارتفاع تطير ، حتى ان هذه الجبال تبدو من اعلى وكأنها تلال ، ودرجة الحرارة خارج الطائرة اربعون تحت الصفر ، اما فى داخلها فالناس تجلس بالقمصان فقط . . .

كان الصبى راقدا على فروة خروف بين السائقين . انحشر بجوار كولوبيك وراح يصغى الى حديث الكبار بانصات شديد . ولـــم يحدس احد انه كان سعيدا بهبوب هذه العاصفة المفاجئـــة التى اجبرت هؤلاء الرجال على البحث عن مأوى لديهم فى الكوردون . وفى قرارة نفسه كان يود الا تهدأ العاصفة اياما طويلة ، على الاقـــل ثلاثة ايام . فليبقوا هنا ، فما احلى الحياة معهم ! وما اطرفهـــا . واتضح ان الجد يعرف الجميع . وان لم يعرف احدا فلا بد يعرف اباه وامه .

وقال الجد لحفيده ، ولاح فى نبرته شىء من التباهى :

— وهكذا ، فقد رأيت اخوتك البوجيين . والآن عرفت من هم . انظر كيف هيأتهم ! ما اطولهم فرسان هذه الايام ! فليهبكم الله العافية . اننى اذكر عندما جاءوا بنا اثناء الحرب فى شتاء عام اثنين واربعين الى مغنيتوغورسك للبناء . . .

وراح الجد يروى تلك القصة التى يعرفها الصبى جيدا ، كيف صفوهم ، هم جيش العمل الذين احضروهم من شتى انحاء البلاد ، صفا طويلا حسب طول قاماتهم ، واتضح ان جميع القيرغيزيين فى نهاية الصف ، فقد كانوا قصيرى القامة . ونودى عليهم ، ثم منحوا فترة راحة . واذا بعملاق احمر الشعر ضخم الجسم يقترب منهم ، ويصيح فيهم :

— من اين انتم ؟ من منشوريا ؟

وكان بينهم معلم عجوز ، فأجابه :

— نحن قيرغيزيون . وعندما كنا نحارب المنشوريين غير بعيد عن هنا ، لم يكن هناك حتى مجرد ذكر لمغنيتوغورسك . وكانت قاماتنا طويلة مثلك . انتظر حتى ننتهى من الحرب وعندئذ سنكبر . . .

تذكر الجد هذه الواقعة البعيدة . وتطلع مرة اخرى الى ضيوفه الليليين وهو يضحك بسرور .

— كان ذلك المعلم على حق . فعندما اذهب الى المدينة او فى الطريق اتأمل الناس فأراهم اصبحوا جميلى الوجوه ، طوال القامة . ليس كما كانوا فى الماضى . . .

وابتسم الشبان ابتسامة تدل على انهم يفهمون ان العجوز يهوى الثرثرة والمزح .

وقال احدهم :

— صحيح اننا طوال ، ولكننا اوقعنا السيارة فى خندق الطريق ، واجتمعنا كلنا فلم تسعفنا قوانا لانتشالها . . .

فقال الجد مأمون مهونا عليهم :

— هذا صعب . فالسيارة محملة بالدريس ، وفى مثل هذه العاصفة . لا بأس . ان شاء الله نسوى الامر غدا . المهم ان تهدأ الريح .

وروى الشبان للجد كيـــف وصلوا الى المحصد العلوى فى «ارتشا» ، حيث قامت ثلاثة اكوام كبيرة من الدريس الجبلى . وبدأوا الشحن من الاكوام الثلاثة دفعة واحدة . وجعلوا الاحمال عالية ، اعلى من المنزل بحيث كانوا يضطرون الى استخدام الحبال للنزول من فوقها . وهكذا شحنوا سيارة تلو سيارة . ولم تظهر مـــن السيارات حتى الكبائن ، بل الزجاج الامامى وغطاء المحرك والعجلات فقط . لقد ارادوا — طالما جاءوا — ان ينقلوا الدريس كله بحيث لا يعودون ثانية . فقد كانوا يعرفون انه اذا تبقى شىء من الدريس فسيظل هنا حتى العام القادم . عملوا بنشاط . وكان السائق الذى تشحن سيارته يقودها جانبا ويتركها ليشارك فى شحن السيارة التالية . وشحنوا الدريس كله تقريبا ، لم يتبـق الا حملان لا اكثر . ثم استراحوا قليلا ، واتفقوا على نظام السير ، وتحركوا قافلة . ساروا بحذر ، وكادوا يتحسسون الطريق وهم يهبطون من الجبال . فالدريس ليس حملا ثقيلا ، ولكنه غير مريح ، بل وخطر ، وخاصة فى الاماكن الضيقة وفى المنعطفات الحادة .

ساروا وهم لا يفطنون الى ما ينتظرهم .

وهبطوا من هضبة «ارتشا» وساروا عبر الشعب . وعند المخرج من الشعب ، وكان الوقت قبيل المساء ، هبت العاصفـة وهبط الثلج .

وقال كولوبيك :

— وعندها كان ما كان . حدث ما جعل العرق يتصبب غزيرا . خيم الظلام فجأة ، والريح تكاد تقتلع عجلات القيادة من ايدينا . وتخشى ان تنقلب السيارة بين لحظة واخرى . وفوق ذلـك هذا الطريق الخطر حتى فى النهار . . .

اصغى الصبى وهو لا يكاد يتنفس او يتحرك ، ولـم يحول عينيه البراقتين عن كولوبيك . نفس الريح ونفس الثلوج التى دار عنها الحديث كانت تعربد خلف النافذة . وكان كثير من السائقين والحمالين قد ناموا ممددين على الارض فى ثيابهم واحذيتهم — وكل ما عانوه اصبح يعانيه الآن من جديد هذا الصبى الكبير الرأس ذو العنق النحيل والاذنين المنتصبتين .

بعد بضع دقائق غاب الطريق عن البصر . وسارت السيارات

كل منها تمسك بالاخرى كما يمسك العميان بمن يقودهم ، وتطلق طول الوقت ابواقها حتى لا تنحرف احداها عن الطريق . وكان الثلج يهطل كالجدار ويتراكم على المصابيح ، ولم تلاحق المساحات مسح الجليد من الزجاج . فاضطروا الى قيادة السيارات ، وقد اطلوا باجسادهم من الكبائن . ولكن هل يمكن السير هكذا ؟ بينما استمر الثلج يهطل . . . وبدأت العجلات تدور «على الفاضى» . وتوقفت القافلة امام مصعد حاد . وزأرت محركات السيارات بجنون . . ولا فائدة . . . وقفز السائقون من الكبائن واخذوا يركضون من سيارة الى اخرى مسترشدين بالاصوات حتى تجمعوا عند مقدمة الطابور . ما العمل ؟ من المستحيل اشعال النار . واذا جلسوا فى الكبائن ينتظرون فمعناه ان يحرقوا بقية الوقود الذى لا يكاد يكفى الآن للوصول الى السوفخوز . واذا لم يدفئوا الكبائن فما اسهـل ان يتجمدوا . وارتبك الشبان . فقد وقفت الآلات الجبارة عاجزة . فما العمل ؟ اقترح احدهم تفريغ الدريس من احدى السيارات والاختباء فيه . ولكن كان واضحا انه ما ان تفك رباط الحمل حتى لا يبقى عود من الدريس ، ستبدده العاصفة فى غمضة عين . وفى تلـــك الاثناء أخذ الثلج يتراكم فوق السيارات ، وارتفعت اكوامه تحت العجلات . ارتبك الشبان تمامـــا وكادوا يتجمدون من البرد وهم واقفون فى الريح .

ومضى كولوبيك يروى للجد مأمون :

– وفجأة تذكرت يا أكسكال انه عندما كنا ذاهبين الى أرتشا قابلت هذا الاخ البوجى الصغير – واشار الى الصبى ومسد شعره برقة . – كان يجرى قرب الطريق . وتوقفت انا . . كيف لا ، وسلمت عليه . وتحدثنا . أليس كذلك ؟ لماذا لا تنام ؟

هز الصبى رأسه مؤمنا وهو يبتسم . وآه لو علم من حوله بالفرحة والفخار اللذين جعلا قلبه يدق بهذه الحرارة والعنف . لقد كان كولوبيك نفسه يتحدث عنه . كولوبيك أقوى هؤلاء الشبان وأشجعهم وأجملهم . لو يستطيع ان يصبح مثله !

وأثنى الجد على الصبى وألقى فى النار حطبا :

– هكذا هو . يحب سماع الاحاديث . انظر كيف نصـــب أذنيه !

ومضى كولوبيك يقول :

— كيف تذكرته فجأة فى تلك اللحظة ، لا اعرف ! فقلت للاولاد ، صرخت تقريبا ، اذ كانت الريح تصم الآذان : «هيا بنا نذهب الى الكوردون . والا فسنهلك هنا» . فصاح الاولاد فى وجهى تماما : «وكيف نذهب ؟ لن نصل سيرا على الاقدام ، ولا يمكننا ان نترك السيارات» .

فقلت لهم : «هيا ندفع السيارات الى الجبل ، ومن هناك ستنحدر مع الطريق . المهم ان نصل الى وادى سان-تاش فقط ، ومن هناك نستطيع ان نبلغ حراس الغابة على الاقدام ، فليسوا بعيدين» . ووافق الاولاد وقالوا : «هيا توّل القيادة» . حسنا ، ما دام الامر هكذا . . . وبدأنا بالسيارة الامامية : «اركب يا عثمان على فى الكابينة» ودفعنا جميعا السيارة باكتافنا . وتحركت ! فى البداية سارت الامور جيدا ، ولكن قوانا خارت تماما بعد ذلك . ولا نستطيع ان نتراجع . وخيل الينا اننا لا ندفع الى الاعلى سيارة بل جبلا كبيرا . فاى حمل ، كوم دريس على عجل ! لم اشعر بشىء سوى اننى فقط أصيح بكل قواى : «هيا ، هيا ، هيا !» ولكننى لا أسمع صوتى . والريح والثلوج تعصف فلا ترى شيئا . والسيارة تعول ، وتبكى كأنها مخلوق حى . وتتسلق بآخر قواها . ونحن بجوارها . ويخيل اليك ان قلبك سينفجر الآن ويتطاير شظايا . والرأس يدور . . .

فقال الجد مأمون متأوها :

— آه ، آه ، آه ! يا لكم من مساكين . اكيد ان الغزالة الأم أم القرون حمتكم ، انتم ابناءها . انقذتكم . والا فمن كان يدرى . . . اتسمع ؟ العاصفة لا تهدأ فى الخارج ، ما زالت تدور وتعصف . . .

كانت جفون الصبى تنطبق ، فيقاوم النعاس ولكن جفونه تعود تنطبق . واخذ سمعه وهو بين النوم واليقظة يلتقط مقاطع من حديث العجوز وكولوبيك ، فاختلطت فى وعيه الحقائق بصور الخيال . خيل اليه انه هو ايضا بين اولئك الشبان الذين فاجأتهم العاصفة فى الجبال . وتبدى لناظريه طريق صاعد بشدة نحو جبل ثلجى ناصع البياض . والصقيع يلسع خديه ، ويخز عينيه . وكانوا يدفعون الى أعلى سيارة ضخمة ، بحجم البيت ، محملة بالدريس .

صعدوا ببطء شديد . ولكن الشاحنة توقفت ثم بدأت تتراجع . شيء رهيب ! والعتمة شديدة ، والريح لاسعـــة . انكمش الصبى رعبا ، كان يخشى ان تنحدر السيارة وتسحقه . واذا بالغزالة الأم ام القرون تظهر فجأة . ركزت قرونها فى السيارة وأخذت تساعدهم فى دفعها الى اعلى . وصاح الصبى : «هيا ، هيا ، هيا !» . فتحركت السيارة . وصعدوا الى الجبل ، ثم انحدرت السيارة من تلقاء نفسها مع الطريق . ثم مضوا يدفعون السيارة الثانيـــة ، فالثالثـة ، فسيارات اخرى كثيرة . وفى كل مرة كانت الغزالة الأم أم القرون تساعدهم . لم يرها احد ، ولم يعرف احد انها بجوارهم . ولكن الصبى كان يرى ويعرف . فى كل مرة ، عندما يشق عليهم ويستولى عليهم الخوف من ان قواهم لن تسعفهم ، كان يرى كيف تأتـــى الغزالة الأم ام القرون راكضة فتساعدهم بقرونها على دفع السيارة الى اعلى . ويصيح الصبى : «هيا ، هيا ، هيا !» . وكان طول الوقت الى جانب كولوبيك . ثم قال له كولوبيك : «اجلس الى المقود» . فجلس الصبى فى الكابينة . وارتعشت السيارة وأزت . ودار المقود فى يديه بسلاسة ، من تلقاء نفسه ، كطوق البرميل الحديدى الذى كان يلعب به لعبة السيارة وهو طفل صغير . وشعر الصبـــى بالخجل من ان المقود أصبح فى يديه كاللعبة . وفجأة اخذت السيارة تميل وتسقط على جنبها . ثم سقطت محدثة دويا ، وتحطمت . وبكى الصبى بصوت عال . أحس بالخجل الشديد . خجل من النظر الى عينى كولوبيك .

— ماذا بك ؟ ماذا بك ، هه ؟ — أيقظه كولوبيك .

وفتح الصبى عينيه . وفرح عندما رأى ان ذلك كان حلما . اما كولوبيك فقد رفعه على ذراعيه وضمه اليه :

— ماذا ، حلمت ؟ خفت ؟ يا لك من بطل ! — وقبل الصبى بشفتيه الخشنتين الملوحتين . — حسنا هيا أرقدك ، ينبغى ان تنام .

أرقد الصبى على الارض فوق الكليم بين السائقين النائمين ، ورقد بجواره ، وقربه منه حتى صار فى كنفـــه ، وغطاه بطرف المعطف .

فى الصباح الباكر أيقظ الجد الصبى :

– اصبح – قال له بصوت خافت . – أثقــل من ملابسك . ستساعدنى . قم .

كان غبش الصباح قاتما عبر النافذة . وفى البيت كان السائقون راقدين مكومين .

وقال الجد مأمون :

– خذ ، البس الحذاء اللباد .

كانت رائحة الدريس الطازج تفوح من الجد . اذن فقد أطعم الخيول . وارتدى الصبى الحذاء اللباد وخرج مع جده الى الفناء . كان الثلج أكواما . ولكن الريح هدأت ، اللهم الا هبات قليلة فوق سطح الارض .

وارتجف الصبى قائلا :

– برد !

فدمدم الجد :

– لا بأس . يبدو سيتحسن الجو . يا سلام ، أمن اول مرة ينقلب هكذا ! طيب ، المهم ألا ينتهى بسوء . . .

ذهبا الى المعلف حيث توجد خمس نعاج ملك لمأمون . وتحسس العجوز بيده العمود حتى وجد المصباح عليه فأشعله . وأطلت النعاج من الركن ونفضت اجسادها .

وقال العجوز للصبى وهو يناوله المصباح :

– امسك ، سوف تضىء لى . سنذبح الشاة السوداء . فالبيت ملىء بالضيوف . علينا ان نعد اللحم قبل ان يستيقظوا .

اضاء الصبى بالمصباح لجده . وكانت الريح لا تزال تصفر فى الشقوق والجو لا يزال معتما باردا فى الخارج . وفى البدايـــة ألقى العجوز بحزمة من الدريس النظيف عند المدخل . وسحـب الشاة السوداء الى هذا المكان وقبل ان يرقدها ويوثق سيقانها توقف مفكرا ثم جلس القرفصاء .

وقال للصبى :

– ضع المصباح . اجلس انت ايضا .

وراح يتمتم وقد بسط راحتيه امام وجهه :

– يا والدتنا العظيمة ، يا أمنا الغزالة أم القرون . اقدم لك هذه الشاة السوداء ضحية . تقديرا لانقاذ ابنائنا ساعة الخطر .

وللبنك الابيض الذى أرضعته اسلافنا ، ولقلبك الطيب ، ولعينك الساهرة . لا تتركينا فى الممرات ، وفى الانهار الهادرة ، وفى الدروب الزلقة . لا تتركينا فى ارضنا الى ابد الآبدين ، نحـــن ابناءك . آمين !

ومسح وجهه هابطا براحتيه من الجبهة الى الذقن مسحـــة الدعاء . وفعل الصبى مثله . وعندئذ أرقد الجد الشاة على الارض وأوثق سيقانها . وأخرج خنجره الآسيوى القديم من غمده .

وأضاء الصبى له بالمصباح .

اخيرا هدأ الجو . أطلت الشمس بذعر مرتين او ثلاث مـن خلال الفجوات بين السحب الراكضة . وكانت آثار الليلة العاصفة الماضية فى كل مكان : اكوام الثلج المائلة ، والخمائل المهروسة ، والاشجار الفتية المحنية كالاقواس تحت ثقل الثلوج ، والاشجار العتيقة المقلوبة . وكانت الغابة وراء النهر تقف صامتة ، ساكنة وتلوح حزينة . اما النهر فكأنما غاص الى أسفل وارتفعت ضفافه من الثلج المتراكم وأصبحت اشد انحدارا . وخفت خرير المياه .

ولم تستقر الشمس على حال ، فكانت تظهر تارة ، وتختفى تارة اخرى .

ولكن شيئا من ذلك لم يعكر صفاء الصبى او يثر قلقه . نسى هموم الليلة الماضية ، ونسى العاصفة ، اما الثلج فلم يعقــه ، بالعكس كان هكذا أطرف . راح يجرى هنا وهناك وكتل الثلــج الصغيرة تتطاير من تحت قدميه . كان فرحا لان البيت ملئ بالناس ، ولأن الشبان استيقظوا واخذوا يتحدثون بصوت عال ويضحكون ، ولأنهم أكلوا بشهية لحم الضأن الذى أعد لهم .

وفى تلك الاثناء بدأت الشمس تستقر . أصبحت تسطع أنقى وأطول . وتفرقت السحب شيئا فشيئا . بل ان الجو صار دافئا . وأخذ الثلج المبكر يترسب بسرعة ، خاصة على الطرق والدروب .

صحيح ان الصبى اعتراه القلق عندما بدأ السائقون والحمالون يستعدون للرحيل . خرجوا جميعـــا الى الفناء ، وودعوا اصحاب الكوردون وشكروهم على ايوائهم واطعامهم لهم . ورافقهم عـــلى

الخيول الجد مأمون وسيد أحمد . حمل الجد معه حزمة حطب وحمل سيد احمد صفيحة كبيرة لتسخين الماء للمحركات المتجمدة .

وتحرك الجميع من الفناء .

وركض الصبى الى جده :

— يا جدى ، خذنى معك ، أريد ان اذهب .

— ألا ترى انى أحمل الحطب ، وسيد أحمد يحمل الصفيحة . لا احد يستطيع ان يأخذك . وما الداعى لذهابك ؟ ستتعب من الخوض فى الثلوج .

غضب الصبى وعبس . وعندئذ أخذه كولوبيك .

قال له وهو يأخذ بيده :

— هيا معنا . وفى العودة سترجع مع جدك .

وذهبوا الى مفترق الطرق ، الى المكان الذى كان ينحدر نحوه الطريق المفضى من محصد «أرتشا» . كان الثلج لا يزال كثيفا على الطريق . ولم يكن من السهل مجاراة هؤلاء الشبان الاقوياء فى السير . وبدأ الصبى يشعر بالتعب .

فقال له كولوبيك :

— تعال ، هيا اركب على ظهرى .

وأمسك بيد الصبى بمهارة ، وبمهارة ألقى به خلف كتفيه . حمله بطريقة معتادة وكأنه كان يحمله على ظهره كل يوم .

وقال السائق السائر بجواره :

— ما أشطرك يا كولوبيك فى هذا .

فرد كولوبيك متفاخرا :

— طول عمرى وانا أحمل اخوتى واخواتى . كنا ستة وكنت الاكبر ، وامى تعمل فى الحقل ، وأبى ايضا . والآن أصبح لاخواتى اولاد . وعندما عدت من الجيش ، أعزب ، لم التحق بعد بالعمل ، قالت لى اكبر اخواتى : «تعال وعش عندنا ، فانت شاطر فى تربية الاطفال» . فقلت لها : «لا ، كفانى ! الآن سأحمل ابنائى انا . . .»

وهكذا ساروا وهم يتحدثون فى شتى الامور . وكان الصبى يشعر بالراحة والطمأنينة وهو راكب على ظهر كولوبيك القوى .

وراح الصبى يحلم : «لو ان لى أخا مثله ! ما كنت أخشى

احدا . وليحاول اروزكول عندئذ ان يصيح فى جدى او يلمس احدا ، كانت نظرة غاضبة من كولوبيك تجعله ينكمش فورا» .

كانت السيارات المحملة بالدريس والتى تركوها ليلة الامس تقف على بعد حوالى كيلومترين الى اعلى مفترق الطرق . وكانت تشبه وهى مدفونة فى الثلج اكوام الدريس شتاء فى الحقول . وبدا انه لن يكون فى وسع احد ابدا ان يزحزحها من اماكنها .

ولكن ها هم قد أشعلوا النار . وسخنوا الماء وبدأوا يديرون المحرك بيد التشغيل ، فدبت الحياة فيه ، وعطس ، ثم دار . وبعد ذلك سارت الامور أسرع . أداروا كل سيارة بعد ذلك بالسحب . فكانت السيارة الدائرة الساخنة تقطر السيارة التى تقف خلفها فى الطابور .

وبعد ان دارت جميع الشاحنات قامت شاحنتان بسحب تلك التى سقطت ليلا فى خندق الطريق . وساعدها كل الحاضرين فى الصعود الى الطريق . والصبى ايضا وقف فى الطريق وايضا ساعد . كان طوال الوقت يخشى ان يقول له احدهم : «ما لك تتسكع هنا بين الاقدام ؟ هيا ابتعد ، امش من هنا !» . ولكن لم يقل له احد ذلك ولم يطرده . ربما لأن كولوبيك سمح له بالمساعدة . وهو هنا اقواهم ، وكلهم يحترمونه .

وودعهم السائقون مرة اخرى . وتحركت السيارات . فى البداية ببطء ، ثم بعد ذلك أسرع . وامتدت قافلتها على الطريق بين الجبال المكسوة بالثلوج . لقد رحل ابناء ابناء الغزالة الأم أم القرون . رحلوا وهم لا يعرفون ان الغزالة الأم أم القرون كانت تركض امامهم على الطريق وهى لا ترى . هكذا شاء خيال الصبى . كانت تركض بقفزات طويلة سريعة فى مقدمة قافلة السيارات . تحرسهم من المصائب والبلايا فى طريقهم الشاق . تحميهم من الانهيالات وانهيارات الثلوج ، ومن العواصف ، والضباب ، وغيرها من الاخطار التى ذاق القيرغيزيون منها الامرين طوال قرون من حياتهم المتنقلة . ألم يكن هذا هو ما طلبه الجد مأمون من الغزالة الام أم القرون عندما قدم لها الشاة السوداء ضحية ساعة الفجر ؟

رحلوا . ورحل الصبى ايضا معهم . بخياله . كان جالسا فى الكابينة مع كولوبيك . وقال له : «يا عم كولوبيك ، أتدرى ان

الغزالة الام أم القرون تركض امامنا على الطريـــق ؟» – «ماذا تقول ؟» – «صحيح . اقسم بشرفى . ها هى !»

وأفاق على صوت الجد مأمون :

– فيم تفكر ؟ ما لك واقف ؟ اركب ، هيا بنا . – وانحنى من فوق الحصان ورفع الصبى الى السرج . – هل انت بردان ؟ – قال العجوز وغطى الصبى جيدا باطراف معطفه .

لم يكن الصبى آنذاك قد دخل المدرسة .

والآن ، عندما كان يستيقظ بين الحين والحين من نومـــه المرهق ، يروح يفكر فى قلق : «كيف سأذهب غدا الى المدرسة ؟ لقد مرضت ، وحالتى سيئة . . .» ثم يغيب عن الوعى . ويخيل اليه انه ينقل الى دفتره الكلمات التى خطتها المدرسة على السبورة : «أت . أتا . تاكا» * . يملأ دفتره كله ، صفحة تلو صفحة بهذه التمرينات الكتابية لتلميذ الصف الاول . «أت . أتا . تاكا ، أت . أتا . تاكا» . ثم يتعب ، وتهتز فى عينيه المرئيات ، ويحس بالحر ، بالحر الشديد ، فيزيح عنه الغطاء ويتعرى . وعندما يرقد عاريا ويبرد ، تعاوده من جديد شتى الاحلام . فتارة يسبح سمكة فى نهر بارد المياه ، متجها الى السفينة البيضاء دون ان يتمكن ابدا مـن الوصول . وتارة تداهمه العاصفة الثلجية . وفى الزوبعة الدخانية الباردة تدور «على الفاضى» عجلات السيارات المحملة بالدريس على طريق صاعد بشدة الى الجبل . وتعول السيارات كما يعول البشر ، ومع ذلك لا تتحرك من مكانها . وتدور العجلات بسرعة جنونيـة وتصبح حمراء نارية . وتشتعل العجلات ويتصاعد منها اللهب . وتركز الغزالة الأم ام القرون قرونها فى صندوق السيارة وتدفعها بحمل الدريس الى الجبل . والصبى يساعدها بكل قواه . ويتصبب عرقا حارا غزيرا . وفجأة يتحول الحمـل الى مهد اطفال . وتقول الغزالة الأم للصبى : «فلنركض بسرعة ، ولنحمل المهد الى الخالة بيكى والعم أروزكول» . وينطلقان . ويتخلف الصبى عنها . ولكن

* حصان ، اب ، حدوة (بالقيرغيزية) .

جرس المهد يظل يرن هناك فى الامام ، فى الظلام . ويركض الصبى على نداء رنينه .

استيقظ على وقع خطوات فى الشرفة ثم صر الباب . عاد الجد مأمون والجدة وكأنما كانا اهدأ قليلا . يبدو ان وصول غرباء الى الكوردون اضطر اروزكول والخالة بيكى الى التزام الهدوء . او ربما تعب اروزكول من السكر ونام اخيرا . لم يسمع فى الفناء صراخ او سباب .

وحوالى منتصف الليل صعد القمر فوق الجبال . وتعلق قرصا ضبابيا فوق أعلى قمة جليدية . تسامى هذا الجبل المكبل بالجليد الدائم فى الظلام ، ولمعت كشبح اضلاعه غير المستوية . ومن حوله استقرت فى صمت مطبق الجبال والصخور والغابات السوداء الجامدة ، وهناك فى الاسفل تماما تدفق النهر بصخب مصطدما بالاحجار .

وسقط ضوء القمر الشاحب تيارا مائلا على النافذة . وازعج هذا الضوء الصبى ، فراح يتقلب ويزر عينيه . وأراد ان يطلب من جدته ان تسحب الستارة على النافذة ، ولكنه عدل . .. فقد كانت جدته غاضبة على جده .

همست وهى تأوى الى الفراش :

— يا احمق ، اذا كنت لا تعرف كيف تعيش بين الناس ، فلتصمت على الاقل ، ولتسمع كلام الآخرين . مصيرك فى يديه . وراتبك يأتيك عن طريقه . ليكن قليلا . ولكنه كل شهر . ومن تكون بدون راتب ؟ عجوز مخرف . . .

لم يرد العجوز . وصمتت الجدة . ثم قالت فجأة بصوت عال غير متوقع :

— اذا اخذوا من الرجل راتبه لا يعود رجلا . يصبح لا شىء .

ومرة ثانية لم يرد العجوز .

اما الصبى فلم يستطع ان ينام . تصدع رأسه واختلطت افكاره . كان يفكر فى المدرسة ويقلق . لم يكن قد غاب عن المدرسة بعد يوما واحدا ، ولا يستطيع الآن ان يتصور ماذا يفعل اذا لم يتمكن غدا من الذهاب الى مدرسته فى جيليساى . وفكر

الصبى ايضا فى انه لو طرد أروزكول جده من العمل فان الجدة ستسمم حياة العجوز . فماذا يفعلان اذن ؟

لماذا يعيش الناس هكذا ؟ ولماذا بعضهم شرير وبعضهم طيب ؟ لماذا يوجد سعداء وتعساء ؟ لماذا يوجد اناس يخشاهم الجميع ، واناس لا يخشاهم احد ؟ لماذا يوجد لدى البعض اطفال ولدى البعض الآخر لا يوجد ؟ ولماذا يمكن لبعض الناس ان يمنعوا الراتب عن الآخرين ؟ ربما كان افضل الناس هم اولئك الذين يتقاضون اكبر راتب . ولكن الجد يتقاضى قليلا ، والجميع يهينونه . آه ، لو أمكن تدبير الامر بحيث يحصل الجد على راتب اكبر ! ربما بدأ اروزكول عندها يحترم الجد .

وبسبب هذه الافكار ازدادت وطأة الصداع . وتذكر من جديد المارال التى رآها قبيل المساء عند مخاضة النهر . ترى كيف حالها الآن فى الليل ؟ انها وحدها فى الجبال الصخرية الباردة ، فى الغابة السوداء المطبقة . يا للرعب ! وماذا لو هاجمتها الذئاب ؟ من اذن سيأتى للخالة بيكى بالمهد السحرى على قرونه ؟

وراح فى سبات قلق ، وقبل ان ينام توسل الى الغزالة الأم أم القرون ان تأتى لاروزكول وللخالة بيكى بمهد من خشب البتولا . واستحلف الغزالة الأم ام القرون : «فليكن لديهما اطفال ، فليكن لديهما اطفال !» . وسمع رنين جرس المهد يتناهى من بعيد . كانت الغزالة الأم أم القرون تركض مسرعة حاملة على قرونها مهدا سحريا . . .

٧

فى الصباح الباكر استيقظ الصبى من لمسة يد . كانت يد الجد باردة فقد جاء من الخارج . وانكمش الصبى لااراديا .

— ارقد ، ارقد . — قال الجد ، وادفأ راحته بانفاسه وتحسس جبين الصبى ، ثم صدره وبطنه ، وقال بحزن — يبدو انك مرضت . عندك حمى . اما انا ففكرت : ما له راقد ؟ حان موعد المدرسة .

— حالا ، سأنهض ، — ورفع الصبى رأسه فدار كل شىء امام عينيه ، وأحس بطنين فى أذنيه .

لكن الجد أرقد الصبى على الوسادة :

– اياك حتى ان تفكر فى هذا . من الذى يأخذك الى المدرسة وانت مريض ؟ هيا أرنى لسانك .

وحاول الصبى ان يصر على موقفه :

– المدّرسة ستغضب . انها لا تحب ان يتخلف احد عن المدرسة . . .

– لن تغضب . سأخبرها بنفسى . هيا ، أرنى لسانك .

تفحص الجد باهتمام لسان الصبى وزوره . وبحث طويلا عن نبضه : وباعجوبة استطاعت أصابعه الخشنة المتخشبة من العمل الشاق ان تلمس نبضات القلب فى يد الصبى الساخنة المبللة بالعرق . وقال مهدئا بعد ان تأكد من شىء ما :

– الحمد لله . مجرد برد بسيط . البرد دخل جوفك . ارقد اليوم فى السرير ، وقبل النوم سأدهن لك قدميك وصدرك بدهن الخروف فتعرق ، وان شاء الله تنهض غدا كالحمار الوحشى .

وتذكر العجوز ما حدث بالامس وما ينتظره اليوم فدهمته الكآبة وهو جالس فى فراش حفيده ، وتنهد واستغرق فى التفكير ، ثم همس زافرا «منه لله !»

وخاطب الصبى :

– متى مرضت ؟ لماذا لم تقل ؟ هل كان مساء ؟

– نعم ، قرب المساء . عندما رأيت المارال عند النهر . جئت ركضا اليك . ثم أحسست بالبرد .

ولسبب ما قال العجوز بنبرة مذنبة :

– طيب ، لا بأس . . نم انت ، اننى ذاهب .

ونهض ، ولكن الصبى أمسك به :

– يا جدى ، أمنا الغزالة ام القرون كانت هناك بنفسها ، أليس كذلك ؟ تلك البيضاء كاللبن ، عيونها كبيرة ، وتنظر كالبشر . . .

فابتسم مأمون بحذر :

– ايها الاحمق الصغير . . . طيب ، ليكن كما تريد . – وقال بصوت مكتوم – ربما كانت هى . . أمنا الغزالة المقدسة ، من يدرى ؟ . . اما انا فأظن . . .

ولم يكمل العجوز كلامه ، فقد ظهرت الجدة في الباب . كانت قادمة من الفناء على عجل ، يبدو انها استكشفت شيئا ما .

وقالت وهي على العتبة :

— هيا يا شيخ ، اذهب الى هناك . — وعلى الفور ذبل مأمون عند سماعه هذه الكلمات وأصبح بائسا ذليلا . — انهم يريدون سحب الجذع من النهر بالسيارة . هيا اذهب ، افعل كل ما يأمرونك به . . . أوه يا الهي لم أغل اللبن بعد — تذكرت العجوز واسرعت تشعل الموقد وهي تقرقع بالاوعية .

عبس العجوز . أراد ان يعارض ويقول لها شيئا ما . الا ان الجدة لم تدع له فرصة ليفتح فمه .

قالت ثائرة :

— ما لك ، لماذا تحملق هكذا ؟ ما هذا العناد ؟ لسنا نحن مَنْ يعاند ، آه من حظى البائس ! من انت حتى تقف ضدهم ؟ انظر اى رجال جاءوا الى اروزكول . انظر الى سيارتهم . تستطيع حمل عشرة جذوع والسير بها في الجبال . أروزكول حتى لا يلتفت الينا . كم استعطفته . كم تذللت اليه . لكنه لم يسمح لابنتك بدخول البيت . انها جالسة عند سيد أحمد ، ابنتك العاقر . بكت حتى كادت تعمى . . وتلعنك ، تلعن أباها الاحمق . . .

— خلاص ، كفى ! . . — لم يطق العجوز صبرا . وقال لها وهو يتجه الى الباب : — اعطيه لبنا ساخنا ، الولد مرض . . .

— سأعطيه ، سأعطيه لبنا ساخنا ، اذهب انت لأجل الله . — ومضت تدمدم بعد ان شيعت العجوز . — ماذا جرى له فجأة ؟ لم يعارض احدا ابدا ، كان لا صوت له ولا حركة ، وفجأة يفعل هذا ! وعلاوة على ذلك يركب حصان اروزكول ، بل ويرمح به . كل هذا بسببك ، — ورمت الصبي بنظرة نارية . — لو كان هناك من يستحق ان يعرض نفسه من اجله للمتاعب . . .

ثم أحضرت للصبي لبنا ساخنا بسمن بلدى اصفر مسيّح . ولسع اللبن شفتيه . ولكن الجدة أصرت وضغطت عليه :

— اشرب ، اشربه وهو ساخن ، لا تخف . البرد لا يطرده الا الساخن .

وكوى اللبن الصبى ، وطفرت الدموع من عينيـــه ، وفجأة أصبحت الجدة طيبة :

– طيب ، برّده ، برده قليلا . . . – وتنهدت – يا الهى ، أتمرض فى هذا الوقت !

كان الصبى يريد ان يتبول منذ وقت طويل . ونهض وهـــو يشعر فى جسده كله بضعف غريب لذيذ . ولكن الجدة سبقته :

– انتظر ، سآتيك بالطست .

استدار الصبى محرجا وأطلق شلالا فى الطست ، وقد اخذته الدهشة من ان بوله كان الى هذه الدرجة اصفر ، ساخنا .

وأحس بانه افضل كثيرا ، وخف الصداع .

رقد الصبى فى الفراش فى هدوء ، شاكرا لجدته معروفها ، وفكر بانه يجب ان يشفى حتى الصباح ولا بد ان يذهـــب الى المدرسة . وفكر ايضا فى انه سيخبرهم فى المدرسة عن المارال الثلاثة التى ظهرت فى غابتهم ، وان أنثى المارال الوالدة البيضاء هى بالذات أمنا الغزالة أم القرون ، وان معها ولدها ، وهو كبير ومتين الجسم ، ومعهما مارال بنى عملاق بقرون ضخمة ، وهو قوى ، يحمى الغزالة الأم ام القرون وولدها من الذئاب . وفكر فى انه سيخبرهم ايضا بانه اذا بقيت المارال عندهم ولم ترحل فسوف تأتى الغزالة الأم ام القرون قريبا للعم اروزكول والخالة بيكى بمهد سحرى .

اما المارال فنزلت فى الصباح الى الماء . خرجت من الغابـة العليا عندمـــا صعدت شمس الخريف القصيرة فوق سلسلـــة الجبال . وكلما ارتفعت الشمس أعلى ازداد الضـــوء والدفء فى الاسفل بين الجبال . وبعد جمود الليل دبت الحياة فى الغابة وامتلأت بحركة الضوء والالوان .

سارت المارال بين الاشجار على مهل وهى تتدفأ فى الاماكـن المكشوفة المشمسة وتقضم الاوراق الندية من الاغصان . سارت بنفس الترتيب : الذكر ذو القرون الكبيرة فى المقدمة ، والمارال الصغير فى الوسط ، وفى المؤخرة الأم الغزالة ام القرون ، المستديرة الجنبين . سارت المارال على نفس الدرب الذى سار عليه بالامس

اروزكول ومأمون ساحبين جذع الصنوبر المشؤوم الى النهر . وكان أثر سحب الجذع على التربة الجبلية السوداء لا يزال طازجا مثل خط محراث تحفه قطع من النجيل الممزق . وكان هذا الدرب يفضى الى المخاضة ، حيث بقى الجذع المحشور فى احجار النهر .

توجهت المارال الى هذا المكان لأنه سهل المورد . وسار اروزكول وسيد أحمد والشخصان القادمان لأخذ الخشب الى هنا ليحددوا افضل طريقة لوضع السيارة التى ستنتشل الجذع من النهر بواسطة سلك . وسار الجد مأمون خلفهم مترددا ومطأطأ الرأس . كان لا يدرى كيف يتصرف بعد فضيحة الامس وكيف ينبغى ان يكون سلوكه وماذا يفعل . ترى هل سيسمح له اروزكول بالعمل ؟ ألن يطرده كما فعل معه بالامس عندما أراد ان ينتشل الجذع بالحصان ؟ وماذا لو انه قال له : «ماذا تريد هنا ؟ قلت لك انك مفصول من العمل !» ماذا لو انه شتمه امام الناس واعاده الى البيت ؟ تخاطفته الشكوك فسار وكأنما يساق الى العذاب ، بيد انه سار . ومن خلفه سارت الجدة . وكأنما لا علاقة لها بهم ، وانما جاءت بدافع الفضول . اما فى الواقع فقد مضت لتحرس العجوز . كانت تحث مأمون الهمام على مصالحة أروزكول وعلى ان يستحق منه العفو .

سار أروزكول بعظمة ، كالسيد فى املاكه . سار وهو يشخر ويخنف وينظر حوله بصرامة . ورغم انه كان يعانى الصداع من سكرة الأمس ، الا انه أحس بارتياح انتقامى . التفت الى الوراء فرأى الجد مأمون وهو يلاحقهم بخطواته القصيرة ، كأنما كلب وفىّ ضربه صاحبه . «مهلا ، ليس هذا كل شىء بعد ، سأربيك . لن أنظر اليك بعد الآن . انت بالنسبة لى لا شىء ، سوف ترتمى على قدمىّ بنفسك» — فكر اروزكول متشفيا ، وهو يتذكر كيف أعولت زوجته فى الليلة الماضية عويلا يمزق القلب وهى ملقاة تحت قدميه عندما أخذ يركلها ويطردها بالركلات بعيدا عن عتبة الدار . «فليكن ! بعد ان يرحل هؤلاء بالجذوع ، سأجمعها بأبيها ، فلينشبا أظفارهما فى بعضهما البعض . سوف تفقأ عينى أبيها . توحشت ، صارت كالذئبة» ، — هكذا فكر اروزكول فى فترات السكون التى تخللت حديثه مع الرجل الوافد اثناء سيرهما .

كان هذا الرجل يدعى كوكتاى . وكان رجلا اسمر عفيا ، يعمل محاسبا للسوفخوز . وكان على علاقة صداقة باروزكول منذ فترة طويلة . فمنذ حوالى اثنتى عشرة سنة شيد كوكتاى بيتا ، وساعده اروزكول بالخشب . باع له الجذوع بثمن بخس لتقطع الواحا . ثم زوج الرجل ابنه الاكبر ، فشيد للزوجين بيتا . ومده اروزكول ايضا بالخشب . والآن جاء دور الابن الاصغر فى الاستقلال ببيته ، ومن جديد احتاج الرجل الى الخشب . ومن جديـد انقذه صديقه القديم اروزكول . آه ، ما اصعب الحياة ! ما ان تنتهى من عمل وتقول لنفسك : الآن سأعيش مطمئنا ، حتى تخترع لك الحياة شيئا آخر . وهل تستطيع الآن ان تفعل شيئا بدون عون رجال مثل اروزكول . . .

– ان شاء الله ندعوك للاحتفال بالبيت الجديد قريبا . تعال وسوف نمرح بروعة ، – قال كوكتاى لاروزكول .

وراح هذا ينفخ برضا وينفث دخان سيجارته :

– شكرا . اذا دعينا لا نرفض ، واذا لـم ندع لا نتطفل . عندما تدعونى سآتى . ليست اول مرة انزل عليك ضيفا . وها انا الآن افكر : هلا انتظرت الى المساء ، لكى ترحل فى الظلام ؟ اهم شيء ان تمر عبر السوفخوز دون ان يلحظك احد . والا ، فلو ضبطوك . . .

فقال كوكتاى مترددا :

– هذا صحيح طبعا ، ولكن الانتظار الى المســاء يستغرق طويلا . سنرحل بهدوء . ليس هناك نقطـة تفتيش فى الطريق ، اليس كذلك ؟ ستكون صدفة بحتة لو قابلنا الشرطــة او احدا آخر . .

فدمدم اروزكول مكشرا بسبب الحموضة والصداع :

– تلك هى المسألة ! مائة سنة تسافر لقضاء اعمالك فلا تلقى فى الطريق كلبا واحدا ، وتنقل الخشب مرة واحدة فى المائة سنة فاذا بك تقع . هكذا دائما . . .

وصمتا ، وكل منهما يفكر فيما يخصه . كان اروزكول الآن فى غاية الاستياء من اضطراره الى ترك الجذع فى النهر بالامس . ولولا ذلك لكان جاهزا ولشحنوه بالامس ليلا ، ولأرسلوا السيارة

فى الفجر بعيدا عن الكوردون . . . آه ، أكان ينبغى ان يحدث ذلك بالامس بالذات ! مأمون العجوز الأبله هـــو السبب ، أراد ان يثور ، اراد ان يخرج عن طاعتى . طيب ! كل شىء الا هذا ، لن اتركها لك ! . .

كانت المارال تشرب الماء عندما وصل الرجال الى النهر من الشاطىء المقابل . ما أغربهـــم مـن مخلوقات هؤلاء الناس . . صاخبون ، كثيرو اللغط ، مشغولون باعمالهم واحاديثهم فلـم يلحظوا الحيوانات الواقفة قبالتهم ، على الشاطىء الآخر .

كانت المارال تقف فى الخمائل الصباحية الحمراء لحرش النهر فوق الحصى النظيف ، وقد ولجت الماء حتى الارساغ . وكانت تشرب جرعات صغيرة على مهل وتتوقف بين الحين والآخر . كان المـاء مثلجا . اما الشمس فأخذت تشع من اعلى دفئا وراحة متزايدين . وبعد ان ارتوت المارال وقفت تستمتع بالشمس . وكانت قطرات الندى الغزيرة التى سقطت من الغصون على ظهورها اثناء سيرهـا تجف ، فتصاعد بخار خفيف منها . كان صباح ذلك اليوم هادئـا مباركا .

اما الناس فلم يلاحظوا المارال . عاد رجل منهم الى السيارة ، وبقى الآخرون على الشاطىء . وحركت المارال آذانها المرهفة وهى تلتقط الاصوات المتناهية اليها احيانا ، وعندمـــا ظهرت السيارة بالمقطورة على الشاطىء الآخر سكنت المارال تماما بينما انتفض جلدها . كانت السيارة تهدر وتقرقع . وتحركت المارال وقد قررت ان تذهب . ولكن السيارة توقفت فجأة وكفت عن القرقعة والهدير ، فأبطأت الحيوانات ، ومع ذلك تحركت من مكانها بحذر ، فقد كان الناس فى الشاطىء الآخر يكثرون من الصياح والجلبة والحركة .

وسارت المارال بهدوء على الدرب فى حرش الشاطىء ، ولاحت ظهورها وقرونها وسط الخمائل من حين لآخر . ولم يلحظها الناس حتى الآن . وعندما بدأت المارال تعبر شريطا مكشوفا من رمـل الفيضان الجاف ، عندها فقط رآها الناس وكأنها على راحة اليد . رأوها فوق الرمل البنفسجى مغمورة باشعة الشمس الساطعة . وجمدوا بافواه مفغورة ، فى شتى الاوضاع .

وكان سيد أحمد اول من صاح :

– انظر ، انظر ، ما هذا ؟ غزلان ! من اين ظهرت هنا ؟

فقال أروزكول بلا اكتراث :

– لماذا تصرخ ، لماذا تصيح ؟ اية غزلان هذه ، انها مارال . بالامس رأيناها . من اين ؟ قد جاءت ، وكفى .

– يا سلام ! يا سلام ! – صاح كوكتاى العفى مبهورا ، ومن شدة الانفعال فك ياقة القميص التى كانت تخنقه . – يا لها من ناعمة . شبعانة . . .

وردد السائق وقد جحظت عيناه :

– والأم ، الأم ! انظر كيف تخطو . مثل الفرس بنت العامين ، اى والله ! اول مرة أرى شيئا كهذا .

– والفحل ! انظر الى قرونه ! كيف يقوى على حملها ! ولا يخشى شيئا . من أين جاءت يا اروزكول ؟ – ألح كوكتاى بينما برقت عيناه الخنزيريتان بنهم .

فأجاب اروزكول بعظمة وبشعور السيد المعتد بكرامته :

– يبدو أنها محمية . جاءت من وراء الممر ، من تلك الناحية . تقول انها لا تخاف ؟ لم يخوفها احد ، ولهذا لا تخاف .

وفجأة قال سيد أحمد بتهور :

– آه لو بندقية الآن ! حوالى قنطارين من اللحم ، هه ؟

وكان مأمون حتى الآن منزويا بوجل ، الا انه لم يطق صبرا فقال بصوت غير عال :

– ماذا بك يا سيد أحمد . صيدها ممنوع .

ورمى اروزكول العجوز بنظرة شذرة عابسة ، وقال فى نفسه بحقد : «أترفع صوتك ايضا !» – وأراد ان يسبه سبابا يصرعه به على الفور ، ولكنه ضبط اعصابه . فهنا يوجد غرباء على اية حال .

وقال بعصبية دون ان يتطلع الى مأمون :

– لا معنى للدروس الفارغة . صيدها ممنوع حيث تعيش . ولكنها لا تعيش عندنا . نحن لسنا مسئولين عنها . مفهوم ؟ – ونظر نظرة وعيد الى العجوز المرتبك .

فأجاب مأمون باذعان :

– مفهوم .

وطأطأ رأسه ، وانتحى جانبا .
وعلى الفور شدته الجدة من كمه خفية ، وفحّت مؤنبة :
- كان الافضل ان تسكت .
وأطرق الجميع فى خجل . ثم عادوا من جديد يحدقون فى اثر الحيوانات الراحلة على الدرب الصاعد . صعدت المارال الى الجرف فى طابور . فى المقدمة سار الذكر البنى ، حاملا قرونه الجبارة بكبرياء ، ومن خلفه المارال الصغير ، وفى مؤخرة الموكب سارت الغزالة الأم أم القرون . وعلى خلفية الجرف الطينى الصافية بدت المارال للانظار دقيقة رشيقة . كانت كل حركة منها وكل خطوة واضحة للعيان .
ولم يستطع السائق ان يكتم اعجابه . كان شابا جاحظ العينين يبدو هادئا جدا . وصاح :
- يا سلام ! يا للجمال ! خسارة اننى لم آخذ الكاميرا ، والا كنت . . .
فقاطعه اروزكول ساخطا :
- طيب ، كفاك جمالا . لا معنى للوقوف . الجمال لن يملأ البطن . هيا ارجع بمؤخرة السيارة الى الشاطئ ، انزل بها الماء ، من الطرف . وانت يا سيد أحمد ، اخلع حذاءك . - أصدر اوامره وهو معجب فى قرارة نفسه بسلطانه - وانت ايضا ، - قال مشيرا الى السائق . - هيا اربطوا السلك بالجذع . بسرعة . امامنا عمل آخر ايضا .
شرع سيد أحمد فى خلع حذائه . كان ضيقا عليه .
ولكزت الجدة مأمون خفية :
- ما لك تتفرج ، هيا ساعده . واخلع انت ايضا حذاءك وانزل الماء ، - نصحته بهمس شرير .
اندفع الجد مأمون لينزع الحذاء عن قدمى سيد أحمد ، وخلع هو حذاءه بسرعة . وفى تلك الاثناء كان اروزكول وكوكتاى يوجهان السيارة :
- هات هنا ، هات .
- شمال قليلا ، شمال . هكذا .
- هات قليلا .

وعندما سمعت المارال صخب السيارة غير المألوف فى الاسفل سارعت الخطو على الدرب . وقفزت الى الجرف وهى تتلفت بقلق ، واختفت بين اشجار البتولا .

– آه ، اختفت !

صاح كوكتاى بأسف كأنما أفلتت الفريسة من يديه .

فقال اروزكول مفاخرا وقد فطـن الى افكار كوكتاى ومسرورا بذلك :

– لا بأس لن تفلت منا ! لن ترحل اليوم قبل المساء ، ستكون ضيفا عليّ . هكذا شاء الله . سأقيم لك وليمة عظيمة .

وقهقه وربت على كتف صديقه . لقد كان فى وسع اروزكول ان يكون مرحا .

– حسنا ما دمت تأمر ، فانت صاحب البيت وانا الضيف .

قال كوكتاى العفى مستسلما وابتسم كاشفا عن اسنان صفراء جبارة .

كانت السيارة واقفة على الشاطئ بينما غاصت عجلاتها الخلفية فى الماء الى منتصفها . ولم يخاطر السائق بالخوض بها اكثر من ذلك . وكان عليهم الآن ان يسحبوا السلك الى الجذع . فاذا كان طول السلك كافيا فلن يشكل تخليص الجذع من اسر الاحجار عناء ما .

كان السلك فولاذيا ، طويلا وثقيلا ، ولا بد من سحبه فى الماء الى الجذع . وبدأ السائق يخلع حذاءه مكرها ، وهو ينظر الى الماء بتخوف . لم يكن قد استقر بعد على رأى نهائى : هل ينزل النهر بالحذاء ، ام الافضل ان ينزعه . وقال فى نفسه : «ربما من الافضل ان انزل حافيا . فالماء على اى حال سيتسرب الى رقبة الحذاء . المياه هنا عميقة ، حتى الفخذين تقريبا . وبعد ذلك اسيـر طول النهار فى حذاء مبلول» . ولكنه تصور ايضا مدى برودة ماء النهر فى هذا الوقت . وهذا ما استغله الجد مأمون .

فقد خف اليه قائلا :

– لا تخلع حذاءك يا بنى . سننزل انا وسيد أحمد .

فرد السائق محرجا :

– لا داع يا اكسكال . . .

ولكن الجد مأمون أصر :

– انت ضيف ونحن اهل الديار ، اجلس انت الى المقود .

وعندما أدخل هو وسيد أحمد الوتد فى لفة السلك الفولاذى وسحباه فى الماء صرخ سيد أحمد باعلى صوته :

– آى ، آى ، ثلج وليس ماء !

فضحك اروزكول وكوكتاى باستعلاء وقالا مشجعين :

– تحمل ، تحمل ! سنجد ما ندفئك به !

اما الجد مأمون فلم ينبس بحرف . بل انه حتى لم يشعر بالبرودة القارسة . دفن رأسه بين كتفيه حتى لا يلاحظوه وسار بقدمين عاريتين على احجار القاع الزلقة وهو يطلب من الله شيئا واحدا : ألا يعيده اروزكول ، ألا يطرده ، ألا يشتمه امام الناس ، ان يسامحه هو العجوز الاحمق البائس . . .

ولم يقل اروزكول شيئا . كان يبدو وكأنه لا يلاحظ جهود مأمون ولا يرى فيه انسانا . اما فى قرارة نفسه فكان يتهلل منتشيا : فقد استطاع مع ذلك ان يقهر العجوز المتمرد . وضحك اروزكول فى سره بخبث : «نعم هكذا ! ها قد جئت زاحفا وارتميت على قدمى . آه ، ليس فى يدى سلطان اكبر ، والا للويت اذرع من هم اقوى منك ! لجعلتهم يزحفون فى التراب . آه لو يعطونى كولخوزا او سوفخوزا على الاقل . اذن لفرضت هناك النظام . لقد أفسدوا الناس . والآن يشكون من ان الناس لا تحترم الرئيس او المدير . اى راع تافه يتحدث مع الرؤساء كأنه ند لهم . يستحقون ، فهم غير جديرين بالسلطة ! هل هكذا ينبغى ان يعاملوهم ؟ ألم يكن هناك عهد كانت الرؤوس فيه تطير ، ولا احد يفتح فمه ؟ نعم ، يا لها من ايام ! فماذا يحدث الآن ؟ حتى هذا الحقير ، أتفه التافهين ، يتجاسر على التحدى . طيب ، طيب ، فلتزحف الآن ، فلتزحف» ، – فكر اروزكول بتشف وهو يتطلع احيانا ناحية مأمون .

اما مأمون ، وهو يخوض فى الماء المثلج منكمشا ، ساحبا السلك مع سيد أحمد ، فكان قريرا بان اروزكول فيما يبدو قد سامحه . وفى نفسه قال مخاطبا اروزكول : «سامحنى انا العجوز على ما حدث . لم استطع ان أتحمل بالامس . ركضت الى حفيدى

فى المدرسة . انه وحيد ولذلك اشفق عليه . اما اليوم فلم يذهب الى المدرسة . مرض المسكين . انس ما حدث ، سامحنى . انت ايضا لست غريبا عنى . أتظن انى لا أرجو لك ولبنتى السعادة ؟ لو ان الله رزق ، لو انى سمعت صياح مولود زوجتك ، ابنتى ، فلأمت فورا ، ليأخذ الله روحى . أقسم لك ، لكنت بكيت من السعادة . لكننى أرجوك ، لا تهن ابنتى . اما عن العمل ، فسأعمل كل شئ ما دمت بصحتى . سأنفذ كل شىء ، مُرْ فقط . . . .»

كانت الجدة واقفة على الشاطئ غير بعيد عنهم . وكانت حركاتها ، وهيأتها كلها تقول للعجوز : «اجتهد يا شيخ ! انظر ، ها هو قد سامحك . افعل كما اقول لك وكل شىء سينصلح» .

كان الصبى نائما . استيقظ فقط مرة واحدة عندما دوت طلقة فى مكان ما . ثم عاد فنام . كان يغط فى نوم عميق هادئ بعد ان أنهكه مرض الامس والسهاد . وحتى فى المنام أحس بمدى الراحة التى تشعر بها وانت راقد فى الفراش ، مادا جسدك واطرافك فى حرية ولا تعانى من الحمى او رجفة البرد . ولولا الجدة والخالة بيكى لربما نام طويلا جدا . كانتا تحاولان الكلام بصوت منخفض ، ولكن الاوعية قرقعت فى ايديهما فاستيقظ الصبى .

وهمست الجدة بحيوية فى الغرفة الامامية :

– امسكى هذا الكوب الكبير . وخذى الطبق . وسأحمل انا الدلو والمنخل . آه يا ظهرى ! حيلى انهد ! اشتغلنا كثيرا . لكن الحمد لله . انا مبسوطة جدا .

– صحيح يا نينة ، وانا ايضا مبسوطة . بالامس كنت مستعدة ان أموت . ولولا جول جمال لقتلت نفسى .

فقالت الجدة بتعقل :

– ما هذا الكلام ! هل أخذت الفلفل ؟ هيا بنا . ربنا ذاته أرسل هديته ليصلح بينكما . هيا ، هيا .

وعند عتبة الباب ، وهما على وشك الخروج ، سألت الخالة بيكى الجدة عن الصبى :

– أما زال نائما ؟

فقالت الجدة :
— فلينم الآن . عندما نجهز الطعام سنأتيه بحساء ساخن .
لم ينم الصبى بعدها . تناهت من الفناء خطوات واصوات . ضحكت الخالة بيكى ، وضحكت جول جمال والجدة ردا على ضحكها . وبلغت مسامعه اصوات اشخاص غرباء . وقال الصبى لنفسه : «لا بد انهم اولئك الذين جاءوا ليلا . اذن فلم يرحلوا بعد» . الجد مأمون هو وحده الذى لم يسمع له صوت ، ولم يظهر . ترى اين هو ؟ وماذا يفعل ؟
أصغى الصبى للاصوات الخارجية وهو ينتظر جده . كان يتوق الى الحديث معه عن المارال التى رآها بالامس . فعما قريب سيحل الشتاء . ينبغى ان يتركوا لها المزيد من الدريس فى الغابة . فلتأكل . وينبغى ان يستأنسوها حتى لا تخاف الناس ، بل تأتى مباشرة عبر النهر الى فنائهم . وهنا يعطونها من الاطعمة اكثر شىء تحبه . ترى ما هو اكثر شىء تحبه ؟ وعليه ان يستأنس المارال الصغير حتى يتبعه اينما ذهب . كم يكون هذا رائعا . ربما ذهب معه الى المدرسة ؟ . . .
كان الصبى ينتظر جده ولكن هذا لم يظهر . وفجأة جاء سيد أحمد . كان راضيا جدا بشىء ما . ومرحا . وكان سيد أحمد يتمايل وهو يبتسم لنفسه . وعندما اقترب من الصبى زكمت انفه رائحة الكحول . وكان الصبى لا يطيق هذه الرائحة الحادة الكريهة التى تذكره بعنجهية اروزكول وبعذاب جده وخالته بيكى . ولكن سيد أحمد ، خلافا عن اروزكول ، يصبح طيبا ومرحا عندما يسكر ، وعموما يصبح عبيطا وادعا ، وان كان لا يتميز بذكاء ما وهو مفيق . وفى مثل هذه الاحوال كان يدور بينه وبين الجد مأمون مثل هذا الحديث تقريبا :
— ما لك تبتسم كالابله يا سيد أحمد ؟ انت ايضا شربت ؟
— كم أحبك يا اكسكال ! أقسم بشرفى يا اكسكال ، أحبك كوالدى !
— اخص ، فى شبابك تفعل هذا ! الشبان الآخرون يقودون السيارات وانت لا تتحكم حتى فى لسانك . لو كنت فى سنك لكنت الآن أقود جرارا على الاقل .

— يا اكسكال ، فى الجيش قال لى القائد انى لا أصلح لذلك . ولكننى مشاة يا اكسكال . وبدون المشاة لا تستطيع ان تتحرك خطوة . . .

— مشاة ! انت تنبل ولسـت مشاة . وزوجتك . . . ليس عند الرب نظر . مائة مثلك لا يساوون جول جمال واحدة .

— ولذلك فنحن هنا يا اكسكال . ليس هناك غيرى وغيرها .

— ما فائدة الكلام معك . قوى كالثور ، اما العقل . . . — ويشيح الجد مأمون بيده فى يأس .

— مو-و-و . . . — يخور سيد أحمد كالثور فى اثره ويضحك .

ثم يقف فى وسط الفناء ويغنى اغنيته الغريبة التى لا يعرف احد اين سمعها :

من الجبال الحمراء الحمراء
جئت على مهر أحمر
ايها التاجر الاحمر ، افتح الباب
ولنشرب خمرا احمر !
من الجبال البنية البنية
جئت على ثور بنى
ايها التاجر البنى ، افتح الباب
ولنشرب خمرا بنيا ! . .

وكان بوسعه ان يستمر فى ذلك الى ما لا نهاية ، لأنه كان يجئ من الجبال على جمل ، وعلى ديك ، وعلى فأر ، وعلى سلحفاة . . على كل ما يمكن ان يتحرك . وكان سيد أحمد الثمل يعجب الصبى حتى اكثر منه وهو مفيق .

ولذلك فعندما ظهر سيد أحمد ابتسم له الصبى ببشاشة .

فهتف سيد أحمد بدهشة :

— ها ! لكنهم أخبرونى انك مريض . انك لست مريضا ابدا . لماذا لا تركض فى الفناء ؟ هذا لا يجوز . . . — وانهار على الفراش فهبت على الصبى رائحة الكحول واللحم الطازج النيئ التى انبعث من يديه وملابسه ، وأخذ يهز الصبى ويقبله . ووخز خداه اللذان غطتهما لحية خشنة وجه الصبى .

ورجاه الصبى :

– كفى يا عم سيد أحمد . اين جدى ، ألم تره ؟

– جدك هناك ، يسوى هذا الـ . . . – وأدار سيد أحمد يديه في الهواء بحركة غامضة . – نحن هذا الـ . . انتشلنا الجذع من النهر . وشربنا للتدفئة . والآن فهو يسوى هذا الـ . . يسوى اللحم . هيا قم . البس وهيا بنا . هذا لا يجوز ! غير مضبوط . كلنا هناك ، وانت هنا وحدك .

فقال الصبى :

– جدى أمرنى ألا انهض .

– دعك من هذا الامر . قم تفرج . مثل هذا لا يحدث كل يوم . اليوم وليمة . الكوب فى الدهن ، والملعقة فى الدهن ، والفم فى الدهن . انهض !

وأخذ يلبس الصبى ملابسه بحركات السكارى الخرقاء .

– سألبس بنفسى . . . – حاول الصبى التملص وهو يشعر باقتراب نوبة دوار . . .

ولكن سيد أحمد الثمل لم يكن يسمعه . كان يعتقد انه يصنع خيرا لأنهم تركوا الصبى وحده فى البيت ، بينما اليوم يوم مشهود ، حيث الكوب فى الدهن ، والملعقة فى الدهن ، والفم فى الدهن . . .

وخرج الصبى من المنزل وراء سيد أحمد وهو يترنح . كان النهار فى الجبال شديد الرياح ، شبه غائم . وتحركت السحب فى السماء بسرعة . وبينما كان الصبى يعبر الشرفة تغير الجو مرتين تغيرا حادا : من نهار مشمس ساطع الى درجة لا تحتمل الى اكفهرار مقبض . وأحس الصبى بصداع من جراء ذلك . ولفحه دخان نار ، دفعه الهواء نحوه . وأحس بوخز فى عينيه . وفكر الصبى فى نفسه : «يبدو انهم يغسلون الملابس اليوم» ، لأنهم كانوا يشعلون النار فى الفناء عادة فى يوم الغسيل الكبير ، عندما يسخنون الماء للدور الثلاث كلها فى قدر ضخم اسود . هذا القدر لا تستطيع ان ترفعه وحدك . وكانت الخالة بيكى وجول جمال ترفعانه معا .

كان الصبى يحب يوم الغسيل الكبير . فأولا : كانت النار تشعل فى موقد مكشوف ، لا كما فى البيت ، ولذلك يمكن ان تلهو بالنار . وثانيا : كان من الممتع للغاية تعليق الملابس المغسولة .

ويزدان الفناء بالخرق البيضاء والزرقاء والحمراء المعلقة على الحبل . وكان الصبى يهوى التسلل الى الغسيل المنشور على الحبل ليلمس بخده القماش المبلل .

ولكن لم يكن هناك فى هذه المرة اى غسيل فى الفناء . وكانت النار المشتعلة تحت القزان قوية ، فتصاعدت سحب البخار من القزان المملوء حتى حافته بقطع كبيرة من اللحم . وكان اللحم قد بدأ ينضج ، فدغدغت رائحة اللحم والدخان أنفه مثيرة لعابه . وانحنت الخالة بيكى فوق النار وهى تنزع الرغوة بالمغرفة . كانت فى فستان احمر جديد ، وحذاء جلدى جديد ومنديل مورّد انحدر على كتفيها . وجثا الجد مأمون بقربها على ركبتيه وهو يقلب الحطب المشتعل فى الموقد .

وقال سيد أحمد للصبى :

— ها هو جدك . هيا بنا .

وما كاد يرفع عقيرته بالغناء :

من الجبال الحمراء الحمراء
جئت على مهر احمر ،—

حتى أطل من الحظيرة اروزكول ، حليق الرأس ، مشمر اكمام القميص ، والفأس فى يده .

وصاح فى سيد أحمد بغضب :

— اين اختفيت ؟ ضيفنا هنا يقطع الحطب ،— واشار الى السائق الذى كان يقطع الحطب ،— وانت تغنى .

فأسرع سيد أحمد يهدئه متجها نحو السائق :

— حالا ، حالا نقوم بذلك . . هات عنك يا اخى .

اما الصبى فاقترب من جده الجاثى على ركبتيه بجوار الموقد . جاء من وراء ظهره . وقال :

— يا جدى .

ولم يسمع الجد .

فكرر الصبى وهو يلمس كتفه :

— يا جدى .

التفت العجوز فلم يعرفه الصبى . كان جده ايضا ثملا . ولم

يستطع الصبى ان يتذكر متى رأى جده ثملا ولو قليلا . لم يحدث ذلك ، اللهم الا اذا كان فى احد مآتم شيوخ ايصيق-كول ، حيث تقدم الفودكا للجميع ، حتى للنساء . اما ان يشرب هكذا بلا مناسبة فلم يحدث هذا لجده .

القى العجوز على الصبى نظرة غريبة بعيدة شاذة . وكان وجهه ساخنا احمر ، وعندما عرف حفيده ازداد احمرارا . تضرج بحمرة ملتهبة ثم شحب على الفور . ونهض الجد على قدميه فى عجلة .

— ماذا بك ؟ هه ؟ — قال بصوت مكتوم وهو يضم حفيده اليه . — ماذا بك ؟ هه ؟ ماذا بك ؟ — ولم يستطع ان ينطق بشىء غير هذه الكلمات وكأنما فقد القدرة على الكلام .

وانتقل اضطرابه الى الصبى ، فسأله بقلق :

— هل مرضت يا جدى ؟

فدمدم الجد مأمون :

— لا ، لا ، انا هكذا ، لا شىء . اذهب انت ، تمش قليلا . وانا هنا . . الحطب ، هذا الـ . . .

ودفع عنه الصبى تقريبا ، واستدار الى الموقد ثانية وكأنما أدار ظهره للدنيا كلها . جثا على ركبتيه ولم يلتفت ، ولم ينظر الى شىء ، مشغولا بنفسه وبالنار فحسب . ولم ير العجوز كيف وقف حفيده فى مكانه حائرا ، ثم سار فى الفناء متجها الى سيد أحمد الذى كان يقطع الحطب .

لم يفهم الصبى ما الذى حدث لجده ولا ماذا كان يدور فى الفناء . وعندما اقترب من الحظيرة انتبه ساعتها فقط الى كتلة كبيرة من اللحم الاحمر الطازج المكوم فوق بعضه على جلد مفروش على الارض بناحيته المشعرة الى اسفل . وكانت خيوط من الدم الشاحب لا تزال تسيل من اطراف الجلد . وغير بعيد عنه ، هناك حيث كانوا يرمون النفايات ، كان الكلب يمزق احشاء ما وهو يزمجر . وبجوار كوم اللحم جلس القرفصاء كالكتلة الصخرية رجل غريب ضخم اسمر الوجه . كان ذاك كوكتاى . وكان مع اروزكول يقطعان اللحم بالسكاكين . وبهدوء وتؤدة كانا يوزعان قطع اللحم على مكانين مختلفين فوق الجلد المفروش .

وقال الرجل العفى الاسمر بنبرة غليظة وهو يتشمم اللحم :

— يا للمتعة ! يا لها من رائحة !

— خذ ، خذ ، ألق فى كومك ،— قال اروزكول بكرم . — لقد أعطانا الله من قطعانه فى يوم مجيئك . هذا لا يحدث كل يوم .

وكان اروزكول يشحر ، وينهض بين الحين والآخر ويمسح على بطنه المشدود ، كأنما اصابته تخمة . وبدا ملحوظا على الفور انه أفرط فى الشراب . وكان يختنق وهو يلهث ، فيطوح رأسه الى الوراء ليلتقط انفاسه . ولمع وجهه المكتنز كضرع البقرة طافحا بالشبع والرضى عن النفس .

ذهل الصبى ، وغمرته موجة باردة عندما رأى عند جدار الحظيرة رأس مارال بقرون . كان هذا الرأس المقطوع ممرغا فى التراب الملوث ببقع دم داكنة . وكان يشبه جذل شجرة معقد الجذور القى به بعيدا عن الطريق . وبجوار الرأس تناثرت اربع قوائم بحوافر قطعت عند مفاصل الركبة .

نظر الصبى برعب الى هذا المشهد الرهيب ، ولم يصدق عينيه . كان ما امامه هو رأس الغزالة الأم أم القرون . وأراد ان يهرب من هنا ، ولكن ساقيه لم تطاوعاه . وظل واقفا يتطلع الى رأس المارال البيضاء المشوه الميت ، تلك المارال التى كانت بالامس فقط الغزالة الأم أم القرون ، تلك التى كانت بالامس فقط تحدق فيه من الشاطئ الاخر بنظرة طيبة فاحصة ، تلك التى كان يتحدث معها فى خياله واستحلفها ان تأتى على قرونها بالمهد السحرى ذى الجرس . كل هذا تحول فجأة الى كوم من اللحم وجلد مسلوخ ، وأرجل مقطوعة ورأس مطوح هناك .

كان ينبغى ان يبتعد ، ولكنه ظل واقفا ، جامدا ، لا يدرك كيف حدث كل هذا ولماذا . اما الرجل العفى الاسمر ، الذى كان يقطع اللحم ، فقد استخرج بسن سكينه من كوم اللحم كلية ، ومدها للصبى . وقال :

— خذ يا ولد ، اشوها فى النار ، ستكون لذيذة .

ولم يتحرك الصبى .

فأمر اروزكول :

— خذ !

ومد الصبى يده وهو لا يحس بها ، ووقف الآن قابضا فى يده

الباردة على كلية الغزالة الأم أم القرون الطرية الدافئة بعد . اما اروزكول فقد رفع رأس المارال الأم البيضاء من قرونه .
وهزه فى الهواء :
— اوه ، ثقيل ! كم تزن القرون وحدها !
ووضع الرأس على الارومة من جنبه وامسك بالفأس ، وراح يفصل القرون عن الجمجمة .
— يا لها من قرون ! — أخذ يردد وهو يغرز حد الفأس فى منبت القرون . — هذا لجدك ، — وغمز بعينه للصبى . — عندما يموت سنضع هذه القرون على قبره . فليقل أحد اذن اننا لا نحترمه . اى احترام اكثر من هذا ! من اجل هذه القرون ليس حراما ان يموت اليوم ! — وضحك ضحكة قصيرة وهو يسدد الفأس .
ولم تستسلم القرون . واتضح ان فصلها ليس بهذه البساطة . وكانت ضربات أروزكول الثمل غير محكمة مما أثار حنقه . وسقط الرأس عن الارومة ، فأخذ اروزكول يوجه اليه ضرباته وهو على الارض . وراح الرأس يقفز واروزكول يلاحقه بالفأس .
كان الصبى ينتفض مع كل ضربة ويتراجع لاراديا الى الوراء ، ولكنه لم يستطع ان يجبر نفسه على الابتعاد عن هنا . وكما فى كابوس مفزع وقف الصبى مسمرا بقوة رهيبة غامضة ، مندهشا من ان عين الغزالة الأم ام القرون التى اصبحت زجاجية ، لا تحاذر من الفأس . لا تطرف ولا تطبق الجفون خوفا . وكان الرأس منذ وقت بعيد قد تمرغ فى الوحل والتراب ، ولكن العين ظلت نظيفة ، وبدا وكأنها لا تزال تنظر الى الدنيا بتلك الدهشة الخرساء المتحجرة التى فاجأها فيها الموت . وخاف الصبى ان يصيب اروزكول الثمل هذه العين .
ولكن القرون لم تستسلم . وجن جنون اروزكول وازداد شراسة ، وراح يضرب الرأس دون تمييز وكيفما اتفق بظهر الفأس وبحدها .
واقترب منه سيد أحمد :
— هكذا قد تكسر القرون . اعطنى انا .
فصاح اروزكول بصوت متحشرج وهو يلوح بالفأس :

– ابتعد ! انا بنفسى ! لن أكسرها . . عليها اللعنة !
– كما تشاء .
وبصق سيد أحمد وهو يتجه الى داره .
وتبعه ذلك الرجل الاسمر العفى . كان يجرجر كيسا بـه نصيبه من اللحم .
ومضى اروزكول بعناد مخمور يمزق رأس الغزالة الأم أم القرون خلف الحظيرة . وكان يبدو وكأنه يأخذ بثأر قديم .
أخذ ، والزبد يغطى شفتيه ، يركل الرأس بحذائه ، وكأنما كان بوسع الرأس الميت ان يسمعه :
– ايها الوغد ! خسئت ! لن تفلت ، – وانهال عليه بالفأس ثانية وثالثة . – لن اكون انا اروزكول ان لم أخلّص عليك . خذ ! خذ ! – صاح وهو يعمل فيه الفأس .
طقطقت الجمجمة ، وتطايرت شظايا العظام فى شتى الاتجاهات .
ندت عن الصبى صرخة قصيرة عندما هوت الفأس صدفة بعرض العين . ومن محجر العين الممزق تدفق سائل كثيف داكن . وماتت العين ، تلاشت ، أقفرت . . .
وزمجر اروزكول فى نوبة حقد وغضب وحشى على هذا الرأس البرىء :
– أستطيع ان أحطم رؤوسا اقسى منك ! وأكسر قرونا أصلب من قرونك !
واخيرا تمكن من كسر الجمجمة عند الجبهة واليافوخ . عندئذ ألقى بالفأس ، وأمسك القرون بكلتا يديه وضغط الرأس الى الارض بقدمه ، ولوى القرون بقوة وحشية . كان يخلعها ، فراحت تطقطق كجذور تتمزق . نفس القرون التى كان من المفروض ان تحمل عليها الغزالة الأم أم القرون ، استجابة لدعوات الصبى ، مهدا سحريا لاروزكول والخالة بيكى . . .
أحس الصبى بالغثيان . واستدار ، وأسقط من يده الكلية على الارض ، وابتعد ببطء . كان يخشى بشدة ان يسقط او يداهمه القىء هنا امام الناس . مضى شاحبا والعرق البارد اللزج يغطى جبينه ، ومر من امام الموقد الذى كانت النار تستعر فيه

ومن فوقه تصاعدت من القزان سحب البخار الساخن ، والذى كان الجد مأمون التعيس يجلس بجواره كما كان ، وجهه الى النار ، مديرا ظهره للجميع . ولم يشأ الصبى ان يزعج جده . كان يريد ان يصل الى الفراش بسرعة وان يرقد ويتغطى حتى رأسه . . فلا يرى ولا يسمع شيئا . ان ينسى . . .

قابلته الخالة بيكى . كانت متأنقة بصورة خرقاء ، ولكن ظهرت على وجهها آثار زرقاء قرمزية من لكمات اروزكول ، وبدت نحيلة ومرحة بلا مناسبة وهى تهرول اليوم منهمكة فى مشاغل «اللحم الكبير» .

وأوقفت الصبى :

— ماذا بك ؟

فقال لها :

— عندى صداع .

— آه يا حبيبى المريض ، — قالت فى نوبة حنان مفاجئة وأمطرت الصبى بقبلاتها .

كانت هى الاخرى ثملة . وفاحت منها ايضا بشدة رائحة الفودكا الكريهة .

— عنده صداع ، — تمتمت برقة . — آه يا حبيبى الغالى ! ربما تريد ان تأكل ؟

— لا ، لا اريد . أريد ان أرقد .

— طيب ، تعال ، تعال ، سأرقدك . لماذا ترقد وحدك . كلهم سيكونون عندنا . الضيوف وجماعتنا . واللحم نضج . — وشدت الصبى معها .

وعندما مرا من جديد بجوار الموقد ، ظهر اروزكول من خلف الحظيرة عرقان بوجه أحمر كالضرع الملتهب . وألقى بقرون المارال التى اجتثها بجوار الجد مأمون بظفر . ونهض العجوز من مكانه .

ودون ان يتطلع اليه رفع اروزكول دلو الماء وأماله نحوه وراح يشرب والماء ينساب عليه .

— الآن تستطيع ان تموت .

قال بلا اكتراث بعد ان رفع فمه عن الدلو قليلا ، ثم عاد ثانية اليه .

وسمع الصبى جده يتمتم :

– شكرا يا بنى ، شكرا . الآن لم أعد أخشى الموت . وكيف أخشاه بهذا التقدير والاحترام . . .

– سأذهب الى البيت ، – قال الصبى وقد أحس بضعف فى جسده .

ولكن الخالة بيكى لم تستجب له :

– لن تبقى وحدك .

واخذته الى بيتها بالقوة تقريبا . وأرقدته على السرير فى ركن الغرفة .

كان كل شىء فى بيت اروزكول جاهزا للوليمة . كان هناك الكثير من الطعام المسلوق والمحمر والمسبَّك . وكانت الجدة وجول جمال المنتعشتان تعدان كل ذلك . اما الخالة بيكى فكانت تهرول ما بين البيت والموقد فى الفناء . وفى انتظار اللحم الكبير أخذ اروزكول وكوكتاى الاسمر العفى يشربان الشاى مضطجعين على بطاطين ملونة والوسائد تحت مرفقيهما . وعلى الفور تقمصتهما العظمة وأحسا بنفسيهما كالامراء . وكان سيد أحمد يصب لهما الشاى بجرعات قليلة فى قاع الفناجين .

اما الصبى فرقد فى الركن ساكنا ، مقيد الحركة ، متوترا . عاودته الرعشة ثانية . واراد ان ينهض وينصرف ، ولكنه كان يخشى ان هو هبط من السرير ان يداهمه القئ فى الحال . ولذلك كتم فى داخله بتشنج تلك الغصة التى وقفت فى زوره . وكان يخشى ان يأتى بحركة زائدة .

وبعد ذلك دعت النساء سيد أحمد الى الفناء فخرج . ثم ظهر من جديد فى الباب حاملا جبلا من اللحم الداخـــن فى وعاء ضخم . وبصعوبة سار بهذا الحمل حتى وضعه امام اروزكول وكوكتاى . وفى اثره دخلت النساء حاملات شتى المأكولات .

واتخذ الجميع مجلسهم مرة ثانية ، وأعدوا السكاكين والاطباق . واثناء ذلك صب سيد أحمد الفودكا فى الاقداح . وقهقه وهو يشير الى الزجاجات فى الركن :

– سأكون انا قائد الفودكا .
وجاء الجد مأمون آخر الجميع . كان منظره اليوم غريبـــا ، بائسا للغاية بالمقارنة مع المألوف . أراد ان ينزوى جانبا فى مكان ما ولكن كوكتاى الاسمر العفى طلب منه بسماحة ان يجلس الى جواره :
– تفضلوا هنا يا اكسكال .
وحاول الجد مأمون ان يرفض :
– شكرا ، سنجلس هنا ، نحن اصحاب البيت .
ولكن كوكتاى أصر :
– لا ، انتم اكبرنا ، – وأجلسه بينه وبين سيد أحمد . – فلنشرب يا اكسكال بمناسبة التوفيق الذى حالفكم اليوم . الكلمة الاولى لكم .
سعل الجد مأمون مترددا ، ثم قال بمعاناة :
– نخب الوئام فى هذا البيت . وحيث يوجد الوئام توجـد السعادة يا اولادى .
– مضبوط ، مضبوط . . – أمَّن الجميع وأفرغوا الاكواب فى حلوقهم .
– وانتم ماذا ؟ لا ، لا يجوز ! تتمنون السعادة لصهركـــم وابنتكـــــم ولا تشربون ، – عاتـــب كوكتاى الجـــد مأمون المحرج .
فقال الجد متعجلا :
– طبعا ، ضرورى ، اذا كان لأجل السعادة . .
ولدهشة الجميع أفرغ حتى القاع كوب الفودكا الملء تقريبا ، ثم هز رأسه العجوز ذاهلا .
– يا سلام !
– شيخنا لا يجاريه احد !
– شيخكم جدع !
ضحكوا جميعا ، وكانوا مسرورين جميعا ، واثنوا على الجـد جميعا .
أصبح الجو فى البيت حارا وخانقا . ورقد الصبى وهو يعانى عذابا ممضا ، ويشعر طول الوقـت بالغثيان . كان راقدا مغض

العينين وهو يسمع كيف كان هؤلاء الناس السكارى يمصمصون ويمضغون ويشحرون وهم يلتهمون لحم الغزالة الأم أم القرون ، وكيف كانوا يضيفون بعضهم البعض بالقطع اللذيذة ، ويقرعون الاكواب الملوثة بالدهن ويلقون بالعظام فى الطبق .

واثنى كوكتاى على اللحم وهو يمصمص بشفتيه :

– الذ من لحم المهر الصغير .

وقال اروزكول :

– وهل نحن حمقى حتى نعيش فى الجبال ولا نأكل مثل هذا اللحم .

فجاراه سيد أحمد :

– مضبوط ، والا فلماذا نعيش هنا .

امتدح الجميع لحم الغزالة الأم أم القرون : الجدة ، والخالة بيكى ، وجول جمال ، وحتى الجد مأمون . وقدموا للصبى ايضا اللحم ومأكولات اخرى فى طبق والحوا عليه ، ولكنه رفض ، وعندما رأى السكارى انه مريض كفوا عن الالحاح .

رقد الصبى كازا على اسنانه . وخيل اليه انه بذلك سيسهل عليه منع الغثيان . ولكن اكثر ما عذبه هو احساسه بعجزه ، وبانه غير قادر على ان يصنع شيئا بهؤلاء الناس الذين قتلوا الغزالة الأم أم القرون . وفى غضبه الطفولى العادل ويأسه ، راح الصبى يبتكر شتى وسائل الانتقام ، وكيف يستطيع معاقبتهم واجبارهم على ان يدركوا اية جريمة شريرة ارتكبوا . ولكنه لم يتوصل فى خياله الى شىء افضل من دعوة كولوبيك . نعم ، ذلك الشاب ذو المعطف العسكرى الذى جاء مع السائقين الشبان لنقل الدريس فى تلك الليلة العاصفة . فمن بين كل من عرفهم الصبى كان هو الشخص الوحيد الذى يستطيع ان يكبح جماح اروزكول ، ويلقى اليه بالحقيقة فى وجهه .

. . . جاء كولوبيك بالشاحنة مسرعا تلبية لنداء الصبى ، وقفز من الكابينة والرشاش فى يديه ، وسأل :

– اين هم ؟

– انهم هناك !

وركضا معا الى بيت اروزكول ، وشدا الباب بعنف .

– لا احد يتحرك ! ارفعوا ايديكم ! – أمر كولوبيك بصرامة وهو على العتبة وسدد اليهم الرشاش .

وصعقوا جميعا . وشل الخوف حركتهم فجمدوا فى اماكنهم . وغصت حلوقهم بقطع اللحم . كانوا يمسكون بقايا اللحم فى ايديهم الملوثة بالدهن ، وخدودهم وافواهم ملوثة بالدهن . كانوا متخمين ، سكارى ، فلم يستطيعوا حتى ان يتحركوا .

– انهض يا وغد ! – وألصق كولوبيك الرشاش بصدغ اروزكول ، فارتجف بدنه كله ، وارتمى على قدمى كولوبيك وهو يتهته :

– الر . . حمة ، لا تقـ . . . تـ . . . تلنى !

ولكن كولوبيك كان لا يلين :

– اخرج يا وغد ! حلت نهايتك !

وركل كولوبيك اروزكول ركلة قوية فى مؤخرته السمينة ، وأجبره على الوقوف والخروج من البيت .

وخرج جميع الحاضرين مرتعبين صامتين الى الفناء .

وأصدر كولوبيك امره الى اروزكول :

– قف الى الحائط ! عقابا على قتلك الغزالة الأم أم القرون ، وعلى قطعك لقرونها التى كانت تحمل عليها المهد ، حكم عليك بالموت !

انكفأ اروزكول فى التراب ، واخذ يزحف وهو يجأر ويئن :

– لا تقتلونى ، ليس عندى اولاد . وحيد انا فى الدنيا . لا ابن عندى ولا بنت . . .

اين اختفت عنجهيته وغطرسته ! جبان حقير تافه . لم تعد ثمة رغبة فى قتل شخص مثله .

فقال الصبى لكولوبيك :

– طيب ، لن نقتله . ولكن فليرحل هذا الشخص من هنا ولا يعد أبدا . لا احد يحتاجه هنا . فليذهب .

ونهض اروزكول ، وشد سرواله ، وجرى مبتعدا وهو يخشى ان يلتفت . . سمينا ، معفرا مهدل السروال . ولكن كولوبيك أوقفه :

– قف ! سنقول لك كلمة أخيرة . لن يكون لديـــك اولاد ابدا . انت رجل شرير فاسد . لا احد هنا يحبك . الغابـــة لا تحبك ، ولا شجرة واحدة فيها ولا حتى حشيشة واحدة تحبك . انت فاشستى . اذهب ، ولا تعد ابدا . هيا ، بسرعة !

وهرول اروزكول موليا الادبار .

وقهقه كولوبيك فى اثره وصاح :

– شنيل ! شنيل ! *

ولكى يخوفه فتح نيران رشاشه فى الهواء .

كان الصبى فرحا يهلل . وعندما اختفى اروزكول عن الاعين قال كولوبيك للبقية ، الواقفين عند الباب شاعرين بالذنب :

– كيف كنتم تعيشون مـــع شخص كهذا ! ألا تشعرون بالخجل ؟

أحس الصبى بارتياح . لقد تمت المحاكمة العادلة . وآمـن الصبى بهذا الحلم حتى انه نسى اين هو ، وباية مناسبة يسكرون فى بيت اروزكول .

. . . دوى انفجار القهقهات فأخرج الصبى من حالة الهنـــاء هذه . فتح عينيه وأصغى . لم يكن الجد مأمون فى الغرفة . يبدو انه خرج الى مكان ما . وكانت النساء يجمعن الاوعية استعدادا لتقديم الشاى . وكان سيد أحمد يروى شيئا ما بصوت عال ، والحاضرون يضحكون من كلماته :

– وبعد ذلك ؟

– احكِ !

وطلب منه اروزكول وهو يكاد يموت من الضحك :

– لا ، اسمع ، احكِ ثانية . بخصوص الحكايات . . احكِ كيف أخفته . أوه ، لا استطيع !

– هكذا اذن . . – بدأ سيد أحمد يعيد عن طيب خاطر ما رواه من قبل . – ما ان اقتربنا من المارال ، التى كانت واقفة فى طرف الغابة ، ثلاثتها هناك ، وما ان ربطنا الخيول فى الشجر حتى أمسك عجوزنا بيدى فجأة ، وقال : «لا يمكن ان نطلق النار على

---

* بسرعة ! بسرعة ! (بالالمانية) . **المعرب** .

المارال . نحن بوجيون ، ابناء الغزالة الام ام القرون !» . ونظر الي كالطفل ، وعيناه تتوسلان . اما انا فكدت أموت من الضحك ، ولكنني لم أضحك ، بالعكس ، تصنعت الجدية ، وقلت له : «ماذا دهاك ، هل تريد ان تدخل السجن ؟» فقال : «لا» . — «فهل تعرف ان هذه الحكايات الاقطاعية قد ألفوها في عهود الاقطاع المظلمة لكي يرهبوا بها فقراء الناس !» ففغر فمه ثم قال : «ماذا تقول ؟ !» قلت له : «نعم ، انتبه . ودعك من هذه الثرثرة ، والا فلن أراعي انك عجوز واكتب فيك بلاغا الى الجهات المعنية» .

— ها-ها-ها ! — قهقه الحاضرون بصوت واحد .

وكان اروزكول اكثرهم ضحكا . ضحك من صميم قلبه .

— ثم أخذنا نتسلل . لو كان حيوان آخر لهرب فلم يترك اثرا ، اما هذه المارال المعتوهة فلم تركض ، كأنما لا تخاف منا . فقلت لنفسي : هذا أحسن . — ومضى سيد أحمد الثمل يروي متفاخرا — وسرت في المقدمة ومعي البندقية ، والعجوز من ورائي . وهنا داهمتني الشكوك . انني لم أصب في حياتي حتى عصفور . فما بالك بهذا العمل . اذا لم أصبها فستنطلق في الغابة ، ولتبحث عنها اذن . وهل يمكن ان تلحق بها . ستمضي الى ما وراء الممر . أمن المعقول اذن ان نترك هذا الصيد يهرب ؟ وعجوزنا صياد ، كان يصرع الدب في زمانه . فقلت له : «خذ البندقية يا شيخ ، اطلق النار» . فأبى بتاتا ! قال لي : «أطلق بنفسك» ، فقلت له : «لكنني سكران» وأخذت أتمايل كأني لا اقوى على الوقوف . وكان قد رآني عندما شربت معكم زجاجة فودكا بعدما أخرجنا الجذع من النهر . ولهذا تصنعت السكر .

— ها-ها-ها !

— قلت له : «اذا انا لم أصب فستفلت المارال منا ، ولن تعود ثانية . ولا ينبغي لنا ان نرجع بأيد خاوية . انت تعرف هذا . انت حر . لماذا أرسلونا الى هنا ؟» فصمت ، ولكنه لم يأخذ البندقية . فقلت له : «طيب ، كما تشاء» . وألقيت بالبندقية على الارض وكأني أهم بالانصراف . فجرى ورائي . فقلت له : «انا لا يهمني ، فلو طردني اروزكول فسأذهب الى

السوفخوز واعمل هناك . وانت ، الى اين تذهب وأنت عجوز ؟»
فسكت . وأخذت انا أغنى على مهل ، يعنى لتكتمل الصورة :

من الجبال الحمراء الحمراء
جئت على مهر أحمر
ايها التاجر الاحمر ، افتح الباب ! . .

– ها-ها-ها !
– وصدق انى سكران حقا ، فعاد لاحضار البندقية . وعدت أنا ايضا . وبينما كنا نتجادل ابتعدت المارال قليلا . فقلت له : «احذر ، قد تبتعد فلا تلحق بها . اضرب قبل ان تجفل» . فأخذ العجوز البندقية . ورحنا نتسلل ، بينما كان يتمتم طول الوقت كالمعتوه : «سامحينى يا أمنا الغزالة أم القرون ، سامحينى . . .» اما أنا فأخذت اكرر : «احذر ، لو اخطأت الهدف فلتهرب مع المارال الى آخر الدنيا ، الافضل الا تعود» .
– ها-ها-ها ! . .

وسط ابخرة الفودكا والقهقهات أحس الصبى بان الجو أصبح حارا خانقا . وكاد رأسه ينفجر من الصداع المنتفخ الذى لا يتسع له رأسه . وخيل اليه ان احدا ما يركله فى رأسه بقدمه ، وان احدا ما يمزق رأسه بالفأس . وخيل اليه ان احدا ما يسدد الفأس الى عينيه ، فأخذ يهز رأسه محاولا ان يتفادى الضربة . وفجأة وجد نفسه ، وهو يلهث من الحر ، فى نهر شديد البرودة . وتحول الى سمكة . الذيل والجسم والزعانف . . كل شىء مثلما فى السمك ، الا رأسه فظل كما هو ، وايضا كان يؤلمه . سبح فى الاعماق الباردة المظلمة المكتومة ، وفكر فى انه سيبقى منذ الآن والى الابد سمكة ، ولن يعود الى الجبال . وقال لنفسه : «لن أعود . الافضل ان اكون سمكة ، الافضل ان اكون سمكة . . .»

ولم يلحظ أحد كيف هبط الصبى من السرير وخرج من البيت . وما كاد ينعطف خلف ركن البيت حتى دهمه القئ . تشبث بالجدار وهو يئن ، وبكى ، ودمدم من خلال الدموع وهو يختنق :
– لا ، الافضل ان اصبح سمكة . سأسبح بعيدا عن هنا . الافضل ان أصبح سمكة .

وخلف النوافذ فى بيت اروزكول تصاعدت قهقهات وتصايحت اصوات مخمورة . وأصمّت هذه القهقهة الوحشية الصبى وسببت له عذابا وألما لا يطاق . وخيل اليه ان السبب فى سوء حالته هو سماعه لهذه القهقهة الفظيعة . وبعد ان استرد انفاسه مضى الى الفناء . كان الفناء مقفرا . وبجوار الموقد المنطفئ عثر الصبى على الجد مأمون ثملا الى حد الموت . كان العجوز ممددا هنا فى التراب بجوار القرون المفصولة عن رأس الغزالة الأم أم القرون . وكان الكلب يقضقض قطعة من رأس المارال . لم يكن هناك احد آخر .

وانحنى الصبى فوق جده وهزه من كتفه قائلا :

— يا جدى ، هيا الى البيت . هيا بنا .

ولم يرد العجوز عليه ، فلم يكن يسمع شيئا ، ولم يستطع ان يرفع رأسه . وما الذى كان بوسعه ان يرد به ، ماذا يقول ؟

ورجاه الصبى :

— انهض يا جدى ، فلنذهب الى البيت .

من يدرى . . هل كان الصبى يدرك بعقله الطفولى ، ام انه لم يجل بخاطره ، ان مأمون العجوز كان ممددا هنا تكفيرا عن حكايته عن الغزالة الأم أم القرون ، وانه رغما عنه تطاول على ما كان يوصيه به طوال حياته : على ذكرى الجدود ، على ضميره ووصاياه ، وانه أقدم على ذلك من اجل ابنته المنحوسة ، ومن اجله هو ، حفيده . . .

والآن ، رقد العجوز صريع البلوى والعار ، رقد كالقتيل ، منكفئا على وجهه ، لا يرد على نداء حفيده .

جلس الصبى الى جوار جده محاولا ان يوقظه . وأخذ يرجوه :

— يا جدى ، ارفع رأسك ، هيا . . . — كان وجه الصبى شاحبا وحركاته ضعيفة ، ويداه وشفتاه ترتعش . — يا جدى هذا انا . هل تسمعنى ؟ — ومضى يقول — حالتى سيئة جدا ، — وبكى — رأسى يؤلمنى . يؤلمنى جدا .

وأنّ العجوز ، وتحرك قليلا ، ولكنه لم يستطع ان يفيق .

وفجأة سأله الصبى من خلال دموعه :

— يا جدى ، هل سيأتى كولوبيك ؟ — وراح يهزه — قل لى ، هل سيأتى كولوبيك ؟

وأجبر جده على ان ينقلب على جنبه ، وانتفض عندما تحول الى ناحيته وجه العجوز المخمور ، الملوث بالوحل والتراب ، بلحية صغيرة بائسة ملبدة ، وتراءى للصبى فى تلك اللحظة رأس المارال الأم البيضاء الذى مزقته فأس اروزكول منذ وقت قريب . أجفل الصبى فزعا ، وتقهقر مبتعدا عن جده ، وقال :

— سأصبح سمكة . هل تسمعنى يا جدى ؟ سأرحل . وعندما يأتى كولوبيك قل له اننى أصبحت سمكة .

ولم يرد العجوز .

ومضى الصبى يجرجر قدميه . هبط الى النهر . وخطا فى الماء مباشرة . . .

لم يكن احد قد عرف بعد ان الصبى سبح سمكة فى النهر . وفى الفناء ترددت أغنية ثملة :

من الجبال الحدباء الحدباء
جئت على جمل أحدب
ايها التاجر الاحدب ، افتح الباب
سنشرب خمرا مرا ! . .

لقد رحلت يا ولدى . لم تنتظر كولوبيك . ياللأسف لم تنتظر كولوبيك . لماذا لم تركض الى الطريق . فلو انك ركضت طويلا على الطريق ، لقابلته حتما . ولعرفت سيارته من بعيد . ولو انك رفعت يدك لتوقف كولوبيك على الفور .

ولسألك :

— الى اين ؟

ولأجبته :

— اليك !

ولأخذك معه فى الكابينة . ولانطلقتما . انـــت وكولوبيك . ولركضت امامكما على الطريق الغزالة الأم أم القرون دون ان يراها احد . اما أنت فكنت تراها .

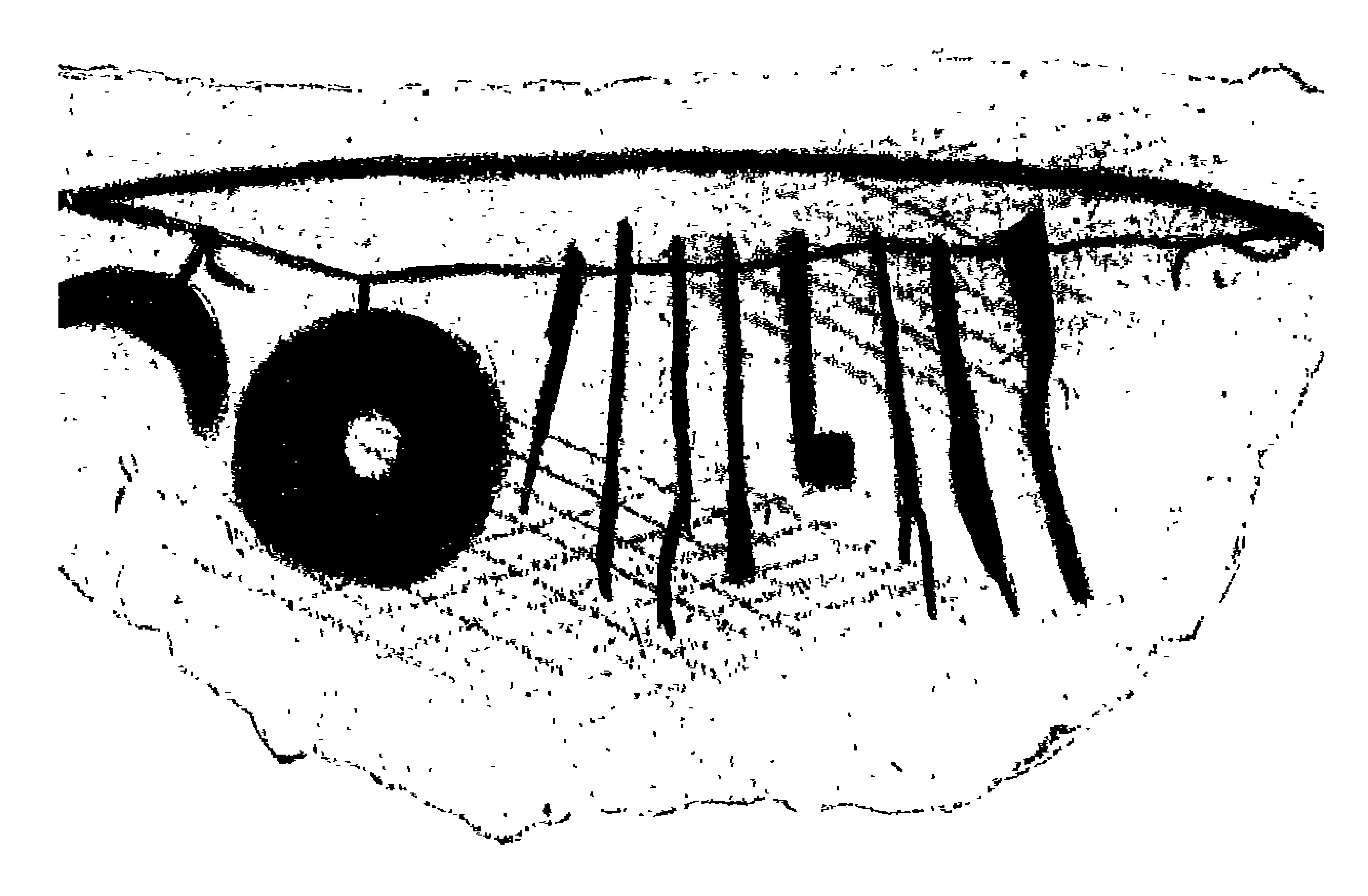
ولكنك رحلت . فهل كنت تعلم انك لن تصبح سمكة ابدا . وانك لن تصل الى ايصيق-كول ، ولن ترى السفينة البيضاء ، ولن تقول لها : «مرحبا ايتها السفينة البيضاء ، هذا انا !»

ليس لدى ما اقوله الآن الا هذا : لقد رفضت ما لم تستطع روحك الطفولية ان تسلم به . وفى هذا عزائى . لقد عشت كالبرق الذى لمع مرة وانطفأ . والبروق تقدحها السماء . والسماء خالدة . وفى هذا عزائى .

وعزائى ايضا ان ضميـر الاطفال فى الانسان هو كالجنين فى البذرة ، وبدون الجنين لا تنبت البذرة . وايا كان ما سنلقاه فى الدنيا فستبقى الحقيقة الى أبد الآبدين ، ما ظل الناس يولدون ويموتون . . .

واذ أودعك يا ولدى ، فاننى اردد كلماتك : «مرحبا ايتها السفينة البيضاء ، هذا انا !»

الكلب الابلق الراكض



عند حافة البحر

مهداة الى فلاديمير سانجى

فى ليلة حالكة ، مشبعة بالرذاذ المتطاير والبرودة ، وعلى امتداد شاطئ بحر أخوتسك كله ، على جبهة التقاء الماء واليابسة بطولها ، دار الصراع الابدى المشبوب بين قوتين من قوى الطبيعة : فقد كانت اليابسة تقف بوجه حركة البحر ، وكان البحر يهاجم اليابسة بلا كلل .

وفى الظلام كان البحر يهدر ويتململ وهو ينقض ويتحطم على الصخور . وتأوهت الارض الصخرية الصلبة بلوعة وهى تصد ضربات البحر .

وهكذا هما فى هذا الصراع منذ بدء الخليقة . . منذ ان اصبح النهار نهارا والليل ليلا ، وسيظلان هكذا قدما ، طوال الايام والليالى ما بقيت الارض والبحر فى الزمن اللانهائى .

طوال الايام وطوال الليالى . . .

وها هى ليلة اخرى تمر . ليلة ما قبل الخروج الى البحر . لم ينم تلك الليلة . لاول مرة فى حياته لم ينم ، لاول مرة فى حياته يذوق طعم السهاد . كانت الرغبة شديدة فى ان يأتى النهار بسرعة ، لكى يندفع الى البحر . وسمع وهو راقد على جلد فقمة كيف كانت الارض تهتز تحته هزات لا تكاد تلحظ من ضربات البحر ، وكيف دوت الامواج وتململت فى الخليج . لم ينم وظل يصغى الى الليل . . .

فى زمن ما كان كل شيء مختلفا تماما . اما الآن فلا يمكن حتى مجرد تصور ذلك ، ولا يعرف احد ، بل ولا حتى يخمن بانه لولا بطة «لوفر» آنذاك لاصبح العالم غيره تماما ، ولما واجهت اليابسة الماء ، ولما واجه الماء اليابسة . ففى اول البداية — فى بداية المبتدأ — لم يكن للارض اى وجود فى الطبيعة ، لم تكن هناك حتى ذرة غبار . كانت المياه ممتدة فى كل مكان ، المياه ، ولا شيء غير المياه . ظهرت المياه من تلقاء نفسها فى حركتها الدائمة ، فى الاغوار السحيقة السوداء والدوامات الهائلة . وتدفق الموج فوق الموج ، وانتشر فى جميع جهات العالم الذى كان بلا جهات آنذاك ، من لا مكان الى لا مكان .

اما بطة «لوفر» ، نعم ، نعم ، تلك البطة العادية ذات المنقار العريض التى ما تزال الى اليوم تحلق فوق رؤوسنا اسرابها ، هذه البطة كانت تحلق فى ذلك العهد وحيدة تماما فوق العالم ، ولا تستطيع ان تجد مكانا لتضع فيه بيضتها . لم يكن فى العالم كله شيء غير المياه ، لم تكن هناك حتى قشة لتصنع منها العش .

حلقت بطة «لوفر» وهى تصيح عاليا . . كانت تخشى الا تستطيع الاحتفاظ بالبيضة فتسقط منها فى الاغوار السحيقة . واينما اتجهت بطة «لوفر» ، واينما بلغت فى طيرانها ، فقد كانت الامواج تطرطش تحت جناحيها ، وكانت المياه العظيمة منبسطة على المدى بلا بداية ولا انتهاء ولا شطآن . وارهقت بطة «لوفر» ، وايقنت انه لا مكان فى العالم كله لتبنى فيه عشها .

وعند ذاك حطت بطة «لوفر» على الماء ، وانتزعت ريشات من صدرها وصنعت منها عشا . ومن ذلك العش الطافى بدأت اليابسة تتكون . وشيئا فشيئا كبرت اليابسة ، وشيئا فشيئا اخذت تقطنها شتى الدواب . وكان الانسان بينها ، وفاقها جميعا . . . فقد تمكن من السير على الثلج بزلاجات والسباحة فى الماء بقارب . واصبح يصطاد الحيوان ، والاسماك ، ويطعمهما ويكثر نسله .

وآه لو علمت بطة «لوفر» كم ستصبح الحياة صعبة بظهور اليابسة وسط مملكة المياه المطلقة . فمنذ ان ظهرت الارض والبحر لا يستطيع ان يهدأ . ومن يومها والبحر يصارع اليابسة ، واليابسة تصارع البحر . وقد تشق الحياة على الانسان احيانا غاية

المشقة وهو بينهما ، بين اليابسة والبحر ، والبحر واليابسة . والبحر لا يحبه لانه متعلق بالارض اكثر . . .

اقترب الصباح . ليلة اخرى مرت ، وصباح جديد يولد . وفى الغسق الرمادى الذى بدأ يشف ، اخذ يبين تدريجيا تلامس البحر الهادر بالشاطئ كما تبين شفة الايل عبر غلالة بخار زفيره الزرقاء . كان البحر يتنفس . وعلى امتداد التلامس الفوار بين اليابسة والبحر تصاعد بخار الرذاذ المتطاير البارد ، وعلى الشاطئ كله ، بطول امتداده ، ارتفع صخب اصطفاق الامواج العنيدة .

كانت الامواج عنيدة فى مسعاها . . تندفع جبارة ، موجة اثر موجة لمهاجمة اليابسة وهى تصعد فوق طبقة الرمال الباردة الصلبة ، وتتسلق جلاميد الصخر البنية الملساء صاعدة الى اعلى بكل ما وسعها من قوة وامتداد ، وتتلاشى الموجة اثر الموجة كما يتلاشى الزفير عند قمة ارتقائها ، مخلفة وراءها رغوة خاطفة ، ورائحة عطنة من الاعشاب البحرية المخضوضة .

وفى بعض الاحيان كانت دفقة الامواج تقذف الى الشاطئ بشظايا كتل جليدية لا يعلم احد من اين جاءت بها حركة المحيط الربيعية . وما ان تستقر هذه الكتل الضالة على الرمل حتى تتحول الى قطع من البحر المتجمد لا حول لها ولا معنى . وتعود الامواج التالية بسرعة فتحملها ثانية الى البحر الهادر .

اختفى الظلام . وراح الصباح يمتلئ نورا اكثر فاكثر . وبالتدريج بدأت تتضح ملامح الارض ، وبالتدريج راقت صفحة البحر .

اما الامواج التى اثارتها ريح الليل فمضت تفور على الشاطئ بذؤاباتها البيضاء المتلاحقة ، الا انها قد هدأت واستكنت فى الاعماق فى آماد البحر البعيدة ، وترقرقت باهتزازات ثقيلة كالرصاص عند ذلك الطرف البعيد .

وزحفت غيوم من البحر وهى تقترب من تلال الشاطئ .

وفى هذا الموضع ، بالقرب من خليج «الكلب الابلق» ، فى شبه الجزيرة الجبلية هذه ، ارتفعت رابية صخرية مائلة نحو البحر ، متميزة عما عداها ، وكانت من بعيد تشبه بالفعل كلبا ابلق ضخما ، يركض عند حافة البحر لبعض شئونه . وكانت هذه الرابية المغطاة من جنباتها بالاحراش والشجيرات المتناثرة بقعا

بقعا ، والمحتفظة حتى ذروة الصيف الحار ببقعة بيضاء من الثلج فوق الرأس ، كما لو كانت اذنا طويلة مهدلة ، وببقعة اخرى بيضاء كبيرة بين الفخذين – فى الفجوة الظليلة – كانت رابية الكلب الابلق ترى دائما من كل اتجاه . . من البحر ومن الغابة .

ومن هنا ، من خليج الكلب الابلق ، فى الصباح ، عندما ارتفعت الشمس بمقدار قامتى شجرة حور ، ابحر قارب من قوارب النيفخ * . وكان فى القارب ثلاثة صيادين ومعهم صبى . وجلس اثنان من الرجال – وكانا الاكثر شبابا وقوة – يجذفان بمجاذيف اربعة . وفى مؤخرة القارب استقر اكبرهم سنا يدير الدفة ، وهو يمص غليونه الخشبى بوقار . كان شيخا بنى الوجه ، نحيلا ، بارز الحرقدة ، مليئا بالتجاعيد ، وخاصة رقبته المخددة بالشقوق العميقة ، وكانت يداه متسقتين مع هيئته : كبيرتين ، محرشفتين عند المفاصل ، مغطاتين بالندوب والشقوق . كان اشيب . ابيض تقريبا . وعلى خلفية وجهه البنى برز بشدة حاجباه الاشيبان . وكان العجوز كالعادة يزر عينيه الدامعتين الحمراوين ، فقد كان طوال حياته يحدق فى صفحة المياه بانعكاسات اشعة الشمس عليها ، وكأنه يوجه القارب فى الخليج وهو لا يرى . اما فى الطرف الآخر للقارب فقد تربع كطائر البكاشين على مقدمة القارب تماما صبى اسود العينين ، فى الحادية عشرة او الثانية عشرة ، وهو يسترق النظر الى الكبار بين الحين والحين ، ويجبر نفسه بجهد بالغ على الثبات فى موضعه والاقلال من تململه حتى لا يثير غضب العجوز العابس .

كان الصبى مضطربا . واتسع منخاراه بتوتر من شدة الانفعال ، وظهرت على وجهه بقع النمش المختفية . لقد ورث ذلك عن امه ، فهى ايضا عندما تسر بشدة ، تظهر على وجهها بقع النمش المختفية . وكان ثمة ما يثير اضطراب الصبى . فهذه الرحلة فى البحر كانت مخصصة له ، لتعويده على حرفة الصيد . ولهذا كان الصبى كيريسك يدير رأسه حواليه كالبكاشين ، ويجيل طرفه

---

* النيفخ – قومية من قوميات سكان آسيا القدماء . تقطن عند مصب نهر آمور وجزيرة سخالين . **المعرب** .

فى كل ما حوله باهتمام لا يفتر وفروغ صبر . فلأول مرة فى حياته يخرج كيريسك الى عرض البحر مع صيادين حقيقيين ، فى رحلة صيد كبير حقيقية ، وفى قارب العشيرة الكبير . وساورته رغبة شديدة فى النهوض من مكانه وحث المجذفين على الاسراع ، وتاق بشدة الى ان يمسك بالمجاذيف وينهمك فى التجذيف بكل قواه ، لكى يصلوا بسرعة الى الجزر التى كان من المقرر ان يقوموا فيها بصيد الحيوان البحرى . ولكن هذه الرغبات الصبيانية قد تبدو مضحكة للكبار الجادين . ولما كان يخشى ذلك فقد حاول بكل طاقته الا يفصح عنها . ولكنه لم يفلح فى هذا تماما . فقد كان عسيرا عليه ان يكتم سعادته ، وفضحته الحمرة الملتهبة التى ضرجت خديه الاسمرين المشدودين . واهم من ذلك عيناه . . . عينا الصبى المشرقتان ، الصافيتان ، الملهمتان ، اللتان لم يكن بوسعهما ان تخفيا الفرحة والكبرياء الطاغيتين على روحه المتهللة . فأمامهم البحر ، وامامهم الصيد الكبير ! ! !

وكان العجوز اورجان يفهم الصبى . وبينما كان يحدد اتجاه القارب فى البحر بعينيه المزرورتين كان يلاحظ مزاج الصبى المتململ فى جلسته لفروغ صبره . ويشع الدفء من عينى العجوز — آه يا للطفولة ، ياللطفولة ! — ولكنه كان يكتم البسمة فى زاويتى فمه الغائر فى الوقت المناسب بالانكباب على مص الغليون شبه المنطفئ . لا ينبغى ان يكشف عن ابتسامه . فالصبى لم يركب معهم القارب للتسلية . بل كان عليه ان يبدأ حياته كصياد بحرى . . يبدأها لكى ينهيها فى وقت ما فى البحر . . ذلك هو مصير الصياد البحرى ، لانه ليس هناك فى الدنيا ما هو اصعب واخطر من الصيد فى البحر . ولا بد من التعود على ذلك منذ الصغر . ولذلك قال الاسلاف «الذكاء من السماء ، والمهارة منذ الصغر» . وقالوا ايضا : «الصياد السيئ عالة على العشيرة» . وهكذا فاذا اراد الرجل ان يكون مطعما فعليه ان يستوعب حرفته منذ الصغر . وقد جاء الدور على كيريسك ، وحان وقت تدريبه وتعويده على البحر .

كان الجميع يعرفون ذلك ، جميع سكان قرية «حورية البحر» عند رابية الكلب الابلق كانوا يعرفون ان رحلة اليوم الى البحر قد

دبرت من اجله هو ، كيريسك ، الصياد والمطعم المقبل . فهكذا جرت العادة ، فكل من ولد رجلا عليه ان يتآخى مع البحر منذ الصغر ، حتى يعرفه البحر وحتى يحترم هو البحر . ولذلك مضى شيخ العشيرة نفسه ، العجوز اورجان ، واثنان من افضل الصيادين : والد الصبى ، امرايين ، وابن عم ابيه ، ميلجون ، مضوا الى البحر وفاء لدين الكبار امام الصغار ، اى وفاء لدينه هو الصبى كيريسك هذه المرة ، حيث عليه منذ الآن والى الابد ان يعرف البحر ، منذ الآن والى الابد ، وفى ايام التوفيق والفشل .

ليكن كيريسك صبيا بعد ، وليكن لبن الام على شفتيه لم يجف بعد ، وليس معروفا ما اذا كان سيفلح ام لا ، ولكن من يدرى ، ربما اصبح كيريسك بالذات مطعم العشيرة وعمادها ، عندما يتنحون عن العمل بعد ان يصبحوا شيوخا لا حول لهم . تلك طبيعة الاشياء ، وهكذا تجرى الامور عبر الاجيال ، جيلا بعد جيل . وهذه سنة الحياة .

ولكن احدا لن يتحدث عن ذلك علانية . فالمرء يفكر فى ذلك بينه وبين نفسه ، ولا يفصح عنه الا نادرا . ولهذا فان احدا من ابناء «حورية البحر» هناك على شاطئ الكلب الابلق ، لم يعر اهتماما خاصا لهذا الحدث : اول رحلة صيد لكيريسك . على العكس ، لقد تظاهر ابناء عشيرته بانهم لا يلاحظون خروجه الى البحر مع الصيادين الكبار ، وكأنهم لا يأخذون مأخذ الجد هذه المبادرة .

لم تودعه سوى امه ، وحتى هى ودعته قبل ان يبلغا الخليج ودون ان تجهر بكلمة عن الرحلة المزمعة . «حسنا ، اذهب الى الغابة !» — قالت لابنها بعبارة واضحة متعمدة ، ولم تنظر الى البحر بل الى ناحية الغابة — «واجتهد ان تكون الاحطاب جافة ، ولا تضل طريقك فى الغابة !» . كانت تقول ذلك لكى تخفى الآثار وتحمى ابنها من الارواح الشريرة . ولم تذكر كلمة واحدة عن ابيه ، وكأنما لم يكن امرايين اباه ، وكأنما هو لا يذهب الى عرض البحر مع ابيه بل مع اناس جمعته بهم محض صدفة — وكان اعراضها عن ذكر ابيه مقصودا ايضا لكى لا تعرف الارواح الشريرة ان امرايين وكيريسك اب وابن . فالارواح الشريرة تمقت الآباء

والابناء عندما يشتركون معا فى الصيد . فقد تودى بأحدهما حتى تسلب الآخر قواه وارادته ، وحتى يقسم احدهما من هول الفاجعة الا يعود الى البحر والا يلج الغابة . وهكذا هى الارواح الشريرة التى ما تفتأ تتربص وتتحين الفرصة لكى تنزل الضرر بالبشر .

اما كيريسك فلم يكن يخاف الارواح الشريرة ، اذ لم يعد صغيرا . ولكن امه تخافها ، وتخاف عليه بصفة خاصة . تقول له : انت ما زلت صغيرا . وما اسهل ان تضللك وتودى بك . وهذا صحيح . آه من هذه الارواح الشريرة ! كم من بلايا تنزلها بالصغار . . قد تصيبهم بشتى الامراض ، او بضرر ما ، او قد تلحق بالطفل عاهة حتى لا يصبح صيادا ، وعندئذ من سيكون بحاجة اليه ! ولذلك فمن المهم جدا ان تحذر الارواح الشريرة ، وخاصة وانت صغير لم تبلغ الرشد بعد . اما حين يقف الانسان على قدميه ، ويصبح قائما بذاته ، فلا خوف عندئذ من اية ارواح شريرة . فلن تقدر عليه ، فهى تخشى الاقوياء .

وهكذا ودعت الام ابنها . وقفت قليلا فى صمت ، وقد كتمت فى هذا الصمت خوفها وضراعتها واملها ، ثم قفلت عائدة دون ان تلتفت خلفها الى البحر مرة واحدة ، ودون ان تذكر والد الصبى بكلمة ، وكأنها حقا لم تعرف الى اين يمضى زوجها وابنها ، علما بانها فى العشية رتبت لهما متاع الرحلة ، واعدت لهما طعاما يكفى لثلاثة ايام فى البحر ، اما الآن فتظاهرت بأنها لا تعرف شيئا من شدة خوفها على ابنها . ومن شدة خوفها لم تبدر منها بادرة تنم عن قلقها ، حتى لا تفطن الارواح الشريرة الى الخوف الذى يعتمل فى قلبها .

عادت الام قبل ان يبلغا الخليج ، ومضى الصبى فى طريق متعرج بين الاحراش حتى يخفى اثره ويضلل من يقتفيه من الارواح الشريرة الخفية كما اوصته امه ، اذ لم يشأ ان يشقيها فى يوم كهذا ، ثم انطلق ليلحق بالرجال الذين سبقوه كثيرا .

وسرعان ما لحق بهم . كانوا يسيرون دون عجلة ، محملين بالزاد والبنادق والعتاد على الاكتاف . سار فى المقدمة العجوز اورجان ، ومن خلفه امرايين الملتحى ، بقامته المديدة وكتفيه العريضتين ، ومن ورائه ميلجون الربعة المكتنز المستدير كالجدع

وهو يخطو بساقيه المعوجتين . كانوا يرتدون ثيابا قديمة ، من اجل البحر ، مصنوعة من الفراء والجلود المدبوغة لكى تحفظ الدفء ولا تبتل . اما كيريسك فكان يبدو انيقا بالمقارنة بهم . فقد اهتمت امه بذلك ، واعدت له لباسه البحرى منذ وقت بعيد . وطرزت له الحذاء والملابس الخارجية من اطرافها . ولم تكن ثمة حاجة لذلك فى البحر ، ولكن الام هى الام .

وعندما حاذاهم كيريسك ابدى ميلجون دهشته مازحا وقال :

— أوه ، كنا نظنك ستبقى . . ظننا انهم سحبوك من يدك الى البيت !

وكاد كيريسك يختنق من شدة الغضب وهو يقول :

— ولماذا ابقى ؟ هذا لا يمكن ابدا ! انا ابقى ؟ !

فقال ميلجون يطيب خاطره :

— حسنا ، حسنا ، الا تفهم المزاح ، دعك من هذا . مع من نتكلم فى البحر سوى مع انفسنا . خذ ، احمل هذا افضل !

وناوله بندقيته فسار الصبى بجواره ممتنا .

كان امامهم شحن القارب والاقلاع .

وهكذا خرجوا الى البحر . اما العودة فستكون بصورة مختلفة ، اذا حالفهم الحظ فعادوا بالصيد . عندها سيكرمون الصبى بما يستحقه من تكريم . سيكون عيد لقاء الصياد الفتى ، وسيغنون الاغانى عن كرم البحر ، الذى تتكاثر فى اعماقه اللامتناهية الاسماك والحيوانات التى هى من نصيب الصيادين الاقوياء الاشاوس . وسيمجدون فى الاغانى حورية البحر التى انجبتهم ومنها خرج نسل حورية البحر الى الارض . وعندها ستدوى الطبول المصنوعة من الجذوع المجوفة تحت ضربات العصى من اغصان القيقب ، ووسط الراقصين سيتحدث العرّاف — اكثر الناس حكمة — مع الارض والمياه عنه ، عن كيريسك ، الصياد الجديد . نعم ، نعم ، عنه سيتحدث العرّاف الى الارض والمياه ، وسيضرع ويبتهل لكى تظلا رحيمتين به ، ولكى يصبح صيادا عظيما ، ويكون الحظ حليفه دوما فى البر والبحر ، ويكتب له ان يقسم الصيد بالعدل على الكبار والصغار . وسيضرع العرّاف الحكيم ويبتهل ايضا لكى يولد

لكيريسك ابناء ، ويبقوا جميعا على قيد الحياة ، حتى يتكاثر نسل حورية البحر العظيمة ويتصل الخلف :

اين تسبحين يا حورية البحر العظيمة ؟
رحمك الدافىء يهب الحياة
رحمك الدافىء انجبنا عند البحر
رحمك الدافىء افضل بقعة فى الدنيا
اين تسبحين يا حورية البحر العظيمة ؟
ثدياك الابيضان . . مثل رأسي فقمة
ثدياك الابيضان ارضعانا عند البحر
اين تسبحين يا حورية البحر العظيمة ؟
اقوى رجل فينا سيسبح اليك
لكى يزدهر رحمك ،
لكى يتكاثر فى الارض نسلك . . .

مثل هذه الاغانى ستغنى فى العيد وسط الرقص والصخب . وفى ذلك العيد سيتخذ اجراء آخر هام بالنسبة لكيريسك . فسيعهد العرّاف ، وهو يرقص بجنون ، بمصير كيريسك الصياد الى احدى نجوم السماء . فلكل صياد نجمته التى تحميه . ولكن احدا لن يعرف ابدا ما هى النجمة التى سيعهد اليها بمصير كيريسك ، لن يعرف بذلك سوى العرّاف نفسه وتلك النجمة الحارسة الخفية ، ولا احد غيرهما . وما اكثر النجوم فى السماء . . .

بالطبع ستفرح امه واخته اكثر الجميع ، وستغنيان بصوت اعلى من الكل وسترقصان . وابوه امرايين سيسمى بالوالد بملء الفم ، وسيكون هو ايضا سعيدا وفخورا . اما الآن فليس ابا بعد . فليس فى البحر آباء وابناء ، بل الجميع فى البحر سواسية ويمتثلون للاكبر سنا . فكما يقول الاكبر سنا يفعلون . ولن يتدخل الاب . ولن يشكو الابن لابيه . هكذا الواجب .

وعلى الارجح ستفرح موزلوك ايضا كثيرا ، تلك الفتاة التى كان يلعب معها صغيرا . اصبحا الآن يلعبان اقل . ومنذ هذه الساعة لن يلعبا ابدا ، فليس لدى الصياد وقت للعب . . .

* * *

سار القارب حثيثا وهو يتأرجح قليلا مع الامواج . وخلفوا وراءهم منذ وقت بعيد خليـــج الكلب الابلق ، واجتازوا «الرأس الطويل» ، وعندما خرجوا من الخليج الى البحر وجدوا ان امواجه ليست اعلى من امواج الخليج . كانت الامواج تطرطش على ارتفاع واحد ، وعلى فترات متساوية . وفوق مثل هذه الامواج الثابتة يمكن الابحار بسرعة .

سار الزورق سيرا طيبا وبهمة . . هذا الزورق المحفور من جذع شجرة حور هائلة . وكان راسخا فى سيره فوق الموج الامامى والجانبى على حد سواء ، وسلس القياد .

كان العجوز اورجان يمص غليونه الذى انطفأ ويشعر بالمتعة من سير الزورق الراسخ ، وفى اعماق قلبه يحس بانه هو نفسه الزورق المبحر فى البحر البارد ، وقد غاص الى نصف جنبـه فى الماء . وكأنما هو نفسه يسبح فى آفاق البحر ، على وقع صريـر المجاذيف المنتظم وضرباتها المتسقة . كأنما هو نفســه يتحرك ويشق مرونة الامواج المقابلة بصدره ، ويتأرجح قليلا من صدمات الماء ودفعه . واثار فيه هذا الاحساس بالاندماج الكامل مع حركة القارب تأملات غريبة . كان راضيا عن القارب ، بل وجد راض ، اليس هو الذى حفره ونجره . اجتثوا شجرة الحور معا ، فلم يكن هذا بوسعه وحده ، ولا حتى بوسع اربعة . ولكنه عمل فى اعداد القارب وحده . ظل ثلاثة اصياف يجففه وينجره ، وحتى آنذاك فقد ادرك انه سيكون افضل قارب بين القوارب التى صنعهـــا فى حياته . ولكنه شعر لاارادیا بالحزن وهو يفكر فى ذلك . . فماذا لو ان هذا القارب آخر واحد فى عمره ؟ كم يود ان يعيش قليلا ، وان يخرج الى الصيد فى البحر ، ويصنع قاربين آخرين قبـــل ان يكل بصره ويفقد حسه .

وبينما كان يفكر فى هذا ، راح يحدث القارب بافكاره : «اننى احبك واثق فيك يا اخى القارب . انك تعرف لغة البحر . انـك تعرف طباع الموج ، وهذا سر قوتك . انت قارب جدير ، احسن قارب صنعته . انت قارب كبير ، تتسع لفقمتين كبيرتين وفقمة صغيرة . انت تجلب الحظ لنا ، ولهذا احترمك . نحن جميعا نحبك

عندما تئن تعبا من ثقل صيدنا ، وعندما تعود الى الشاطىء غائصا حتى حوافيك ، بل وينزلق الماء الى داخلك .. عندها يركض الجميع الى الشاطىء لاستقبالك ، يا اخى القارب !

فاذا مت انا ، فلتعش طويلا ، ولتبحر بعيدا الى الاماكن الغنية بالصيد . واذا مت ، فلتسبح فى البحر مع صيادين شبان اقوياء . واذا مت فلتكن فى خدمتهم كما كنت فى خدمتى . ولتعش يا اخى القارب ، حتى ترى غرّنا هذا ، الجالس هناك فى المقدمة يدير رأسه ولا يطيق صبرا – فلو كان ما امامه ليس ماء بل ارضا ، لركض وحده الى الصيد الكبير وانجز كل شيء بمفرده كما يخيل اليه – لتعش يا اخى القارب حتى يكبر هو ايضا ، وحتى يبحر معك الى الاماكن البعيدة والقريبة . اما اليوم فهو معنا فى البحر لاول مرة . هذا مطلوب . فليتعود . نحن سنمضى ، اما هو فامامه سنوات طويلة . فاذا ما وفق ان يصبح مثل ابيه ، امرايين ، فسيكون انسانا نبيها ، وليس واحدا من امثال هؤلاء الثرثارين . فامرايين على الارجح احسن صياد بين الصيادين الحاليين . رجل قوى ، شاطر . فى وقت ما كنت انا هكذا . فى اوج قواى . والنساء كن يحببننى آنذاك . وكنت اظن ان العمر دهر . ولا تدرك ان الامر ليس كذلك الا متأخرا . اما الشبان فلا يخطر لهم ذلك على بال . فمثلا امرايين وميلجون فى الغالب لا يفكران فى هذا بعد . حسنا ، سيعرفان فيما بعد . اما الآن فيجذفان بمهارة وقوة . وميلجون ند لامرايين . انهما زوج يعتمد عليه ، ذو جَلَد . يبدو القارب وكأنه يسير وحده دون عناء . ولكن ذلك يبدو فقط . ففى البحر يسير المرء بيديه . ولا يزال امامهم الكثير من التجذيف . سيبحرون اليوم حتى حلول الظلام الى ان يصلوا الى «الحلمة الثالثة» . وسيمضون نهار الغد كله فى طريق العودة . من الصباح الى المساء . وسأتناوب التجذيف مع كل منهما . ولكن ما اشق ان تعبر البحر كله بالمجاذيف . وعندما نعود بالصيد سنقيم عيدا .

هل تسمعنى ، هل تفهمنى يا اخى القارب ؟ ستحملنا الى الجزر ، الى «الحلمات الثلاث» ، الى موضع الصيد الكبير . فمن اجل هذا نبحر . فهناك على الشاطىء ، فى المراقد ، سنجد الفقمة . قريبا يبدأ موسم التكاثر ، ولذلك تجتمع الفقمات اسرابا على الجزر .

هل تفهمنى يا اخى القارب ؟ نعم انت تفهمنـــى . لقد بدأت احدثك قبل ان تعرف البحر بعد ، عندما كنت لا تزال فى رحــم شجرة الحور العظيمة فى الغابة . لقد اطلقتك من رحم الشجرة ، وها نحن نبحر معا .

وعندما لا اعود على قيد الحياة ، لا تنسنى يا اخى القارب . تذكرنى عندما تكون فى البحر . . .» .

هكذا كان اورجان يفكـــر ، وهو يوجـه القارب مسترشدا بالعلامة الرئيسية على الشاطىء ، رابية الكلب الابلق ، ومنهـــا الى البحر فى خط مستقيم . كان لهذه الرابية الصخرية خاصية غير عادية اشار اليها كل من ابحر . ففى الجو الصحو كانــت تبدو وكأنها تعلو كلما ابتعدت عنها . وكأنما الكلب الابلق يقتفى اثر المبحرين وهو لا يريد ان يتخلف عنهـم . وكلما تلفت تجـد الكلب الابلق ظاهرا . وتظل هذه الرابية مرئيــة طويلا بعد ان تبتعد عنها ، ثم تختفى فجأة عن الاعين خلف هوة المياه . اذن فقد رجع الكلب الابلق ، اذن فقد خلفوا الارض بعيدا وراء ظهورهم . . .

وعندئذ ينبغى ان تتذكر ، وتتذكر جيدا ، فى اية جهة بقــى الكلب الابلق ، وينبغى ان تتذكر اتجاه الريح وموضع الشمس بالنسبة للرابية ، وان ترصد السحب اذا كنت مبحرا فى جو هادىء ، وتمضى فى البحر حتى الجزر متذكرا طوال الوقت موقع الكلـــب الابلق ، حتى لا تضل فى آماد البحر .

مضوا الى الجزر الواقعة على مسافة نهار سباحة . كانت تلك جزرا صخرية صغيرة مقفرة . . ثلاث قطع من اليابسة ، تنتصب على شكل ثلاث حلمات وسط المياه اللامحدودة . ولذلك سميت بجزر «الحلمات الثلاث» : الصغرى ، والوسطى ، والكبرى . واذا ابحرت الى ما وراءها فستجد الطريق الى المحيط ، الذى لم تكن له ابعاد ، ولا يعرف احد ما اسمه . . مياه عظيمة ، مجهولة ، لم يبحر بها احد . مياه الخلود التى ظهرت من تلقاء نفسها ، منذ بدء الخليقة ، منذ ذلك العهد الذى كانت تحلق فيه بطة «لوفـــر» صارخة ، بحثا عن مكان صغير لعشها ، قطعة من اليابسة بحجــم راحة اليد ، فلم تستطع ان تجدها فى الدنيا كلها . وهناك فى تلك الجزر ، على تخوم البحر والمحيط ، وفى هذه الايام الربيعية امتدت

مراقد الفقمة . ومن اجل هذا مضوا الى هنا ، من اجل ذلك ولوا وجوههم الى هنا . . .

ذهل الصبى اذ رأى البحر مختلفا تماما عما كان يتصوره وهو يلهو على سفوح الكلب الابلق ، بل ومختلفا عما كان عليه اثناء النزهات بالقوارب . واحس بذلك بصورة حادة ، خاصة لما خرجوا من الخليج ، عندما انفسح البحر فجأة فملأ كل المدى المنظور حتى السماء ، واصبح جوهر الكون الوحيد المترامى الذى لا يحده البصر .

صعق البحر العريض كيريسك . لم يكن يتوقع ان يرى مشهدا كهذا . فلا شيء سوى المياه . . المياه المتحركة الثقيلة . . ولا شيء سوى الموج ، الذى ينبثق بسرعة ، ويندثر على الفور . . ولا شيء سوى الاعماق . . الاعماق المظلمة المنذرة . . ولا شيء سوى السماء ، بسحب بيضاء متنقلة ، خفيفة بعيدة المنال . ذلك هو العالم الكائن ، ولا شيء آخر ، ولا شيء غيره سوى البحر نفسه . . لا صيف ، ولا شتاء ، لا كثبان ولا وهاد .

كانت المياه تغمر الكون من طرف الى طرف .

بينما سار القارب يتهادى فوق الامواج كما كان . وظل الصبى منتظرا الصيد الكبير بشوق وسرور كما كان . الا ان كل ما رآه ولاحظه من حوله – فى المياه وفوق المياه – كان يتلقاه هذه المرة على عجل ، بنصف انتباه ، لان روحه كانت متعجلة ، وكلها انتظار لانطباعات اخرى . ولو كان فى وقت آخر لاثارت انتباهه لعبة الاشعة التى لا تنتهى على سطح المياه وهى تنزلق بصورة مدهشة ، مغيرة وجه البحر بدرجات الالوان من البنفسجى الرقيق والازرق الغامق ، الى الظلمة الداكنة فى ظل القارب . وكان سيفرح كثيرا بالاسماك الغريبة الفضولية التى سبحت بقرب القارب ، ويضحك من اسماك السلمون التى اصطدم سربها بهم ، وبدلا من ان تتفرق ، ازدادت تلاصقا من الخوف وراحت تقفز خارج المياه وتسقط على ظهورها بطريقة مضحكة بعد ان تتعلق فى الهواء .

لم يعر ذلك كله اهتماما خاصا ، فقد بدا له شيئا تافها . كان يتحرق الى شيء واحد : ان يبلغوا الجزر بسرعة ! وان يبدأوا العمل باسرع ما يمكن !

ولكن سرعان ما تغير مزاج الصبى من تلقاء نفسه وبصورة غريبة ، وان لم يفصح عن ذلك . فكلما ابتعدوا عن الارض ، وخاصة بعد ان اختفى الكلب الابلق فجأة عن الانظار خلف المياه السوداء المتصاعدة ، احس بخطر غامض ينبعث من البحر ، وادرك تبعيته المطلقة للبحر . . ادرك ضآلته اللانهائية وعجزه اللانهائى امام هذه القوة العظيمة .

كان هذا جديدا عليه . وهنا ادرك مدى معزة الكلب الابلق الذى لم يكن يتذكره ابدا من قبل ، وهو يلهو على سفوحه بلا خوف او هموم ، ويتملى من فوق قمته صفحة البحر الذى لم يكن يهدد باى شيء . ادرك الآن كم هو عظيم وطيب الكلب الابلق ، الرابض قويا راسخا فى مكانه .

ادرك الآن الفرق بين اليابسة والبحر . فعندما تكون على الارض لا تفكر فيها . اما اذا كنت فى البحر فانك لا تكف عن التفكير فيه ، حتى لو كنت تفكر فى شيء آخر . وقد اثار هذا الاكتشاف حذر الصبى . فقد كان ثمة شيء ما خفى وملح ومسيطر فى كون البحر يجبرك على التفكير فيه دائما . . .

لكن الكبار كانوا مع ذلك هادئين . ومضى امرايين وميلجون يجذفان كما كانا يفعلان ، ضربة تلو ضربة ، كأنهما رجل واحد ، فى ايقاع منتظم متسق ، فتمس المياه اربعة مجاذيف دفعة واحدة فتنتقل الحركة المتواصلة الى القارب بسهولة وطلاقة . ولكن ذلك كان يكلف المجذفين جهدا مستمرا . ولم يكن كيريسك يرى وجهيهما ، اذ كانا جالسين وظهراهما نحوه ، ولكنه كان يرى اكتافهما وهى تتقلص وتنبسط . كانا نادرا ما يتبادلان الكلام . صحيح ان اباه كان يتمكن من الالتفات احيانا ، ويبتسم من خلال لحيته لابنه وكأنه يسأله : «حسنا ، كيف الحال ؟» .

وهكذا مضوا . كان الكبار هادئين واثقين من انفسهم . اما العجوز اورجان فكان بارد الاعصاب تماما . ظل كما كان يمص غليونه ويوجه القارب من مكانه . وهكذا مضوا وكل منهم مشغول بعمله . وقد حاول كيريسك مرتين ان يجذف ، تارة مع ميلجون ، وتارة اخرى مع ابيه . وترك له الرجلان بسرور احد المجاذيف . . فليجرب . ورغم انه اخذ يحرك المجذاف بكلتا يديه ، فلم تسعفه

قواه طويلا ، اذ كان القارب ثقيلا جدا عليه ، كما ان المجذاف كان كبيرا . لكن احدا لم يلمه على ذلك ولم يشفق عليـــه . كانوا معظم الوقت يعملون فى صمت .

وعندما اختفى «الكلب الابلق» عن الانظار فجأة ، دبت الحركة فيهم لسبب ما .

وقال الاب :

– الكلب الابلق عاد الى البيت !

فأمّن ميلجون على كلامه :

– نعم عاد !

وتطلع العجوز اورجان الى تلك الناحية وقال :

– حقا ؟ اذن فقد عاد . حسنا ، اذن فالامور تسير على مـا يرام .– ثم خاطب الصبى بمكر – يا كيريسك ، هلا ناديت على «الكلب الابلق» ، فربما جاء ؟

وضحكوا جميعا ، وضحك كيريسك . وبعد ان فكر قليلا قال بصوت عال :

– علينا فى هذه الحالة ان نرجع ، وعندئذ سيجئ !

فهتف اورجان ضاحكا :

– يا لك من شاطر ! الافضل ان تعمل شيئا . تعال هنا . كفاك تطلعا ، فلن تستطيع رؤية البحر كله .

وترك كيريسك مجلسه فى مقدمة القارب ومضى يشق طريقه الى المؤخرة وهو يخطو من فوق الامتعة الملقاة فى قاع الزورق : البندقيتين الملفوفتين فى جلد ايل وحربة الصيد ، ولفـــة حبال ، وبرميل ماء صغير وكيس به المؤونة ولفافات وملابس . وعندما كان الصبى يمر بجوار حافة القارب والمجذفين ويتخطى المجاذيف شم رائحة العرق الرجالى القوى والتبغ المنبعثة من الاقفية والظهور العرقانة . نفس رائحة ملابس ابيه ، الرائحة التى تهوى امـــه تشممها عندما يكون ابوه غائبا فى البحر ، اذ تأخذ سترته الجلدية القديمة وتضمها الى وجهها .

واومأ الاب لابنه ولكزه بكتفه لكزة خفيفــة دون ان يترك المجذافين . ولكن كيريسك لم يتوقف استجابة لملاطفة ابيه هذه . وماذا فى ذلك ! الجميع فى البحر سواسية . لا يوجد فى البحـــر

ابناء وآباء ، بل يوجد فقط الاكبر سنا . وبدون الرجوع اليه لا تستطيع ان تحرك اصبعا . . .

واشار اورجان الى مكان وقال وهو يلمس كتفه بيده الطويلة المعروقة :

— اجلس هنا بجانبى . اظنك قد خفت قليلا ، هــه ؟ فى البداية لا بأس ، ولكن بعد ذلك . . .

وارتبك كيريسك ، فقد ادرك العجوز ما يعتمل فى نفسه ، الا انه مع ذلك قال محتجا :

— كلا يا جدى ، لم اخف ابدا ! مم اخاف ؟

— انها اول مرة تخرج فيها الى البحر مع ذلك .

فلم يتراجع كيريسك :

— فلتكن اول مرة ، ماذا فى ذلك ؟ ! اننى لا اخاف شيئا .

— حسنا ، ليكن . اما انا ، فعندما خرجت الى البحر ، وكان ذلك من زمن بعيد جدا ، فقد خفت بصراحة . نظرت فاذا الشاطئ اختفى منذ وقت طويل ، وذهب الكلب الابلق الى مكان ما ، وليس من حولى سوى الموج . شعرت برغبة فى العودة . وعندك امرايين وميلجون ، اسألهما ، كيف كان احساسهما ، الم يشعرا بالخوف ؟

ورد هذان على ذلك بابتسامة فاهمين ، واومآ برأسيهمـــا موافقين ، وانكبا على المجاذيف .

ولكن كيريسك تشبث برأيه :

— اما انا فلا !

فقال العجوز مطيبا خاطره :

— ما دام الامر كذلك فأنت شاطر ! والآن خبرنى فى اية جهة بقى الكلب الابلق ؟

فوجئ كيريسك بالسؤال فاعمل فكره قليلا ثم قال مشيرا بيده :

— هناك !

— هل انت واثق ؟ ارى يدك ترتعش .

سيطر الصبى على يده المرتعشة واشار الى اليمين قليلا وقال :

— هناك !

فأمّن اورجان موافقا :

— الآن اشرت بدقة . حسنا ، ولو استدار القارب الى هذه الناحية ، فاين سيكون الكلب الابلق ؟

— هناك !

— ولو ساقتنا الريح الى الناحية الاخرى ؟

— هناك !

— ولو انحرفنا الى اليسار ؟

— هناك !

— حسنا ، والآن خبرنى كيف تحدد المكان ، فليس من حولك شيء تراه سوى المياه . هل تستطيع ان تشرح لى ؟

فقال الصبى :

— عندى عيون اخرى .

— أية عيون ؟

— لا اعرف ، ربما كانت فى بطنى ، ولكنها ترى دون ان تبصر .

— فى بطنك ؟ . . . — وقهقه الجميع .

فرد اورجان :

— هذا صحيح . توجد اعين كهذه . ولكنها ليست فى البطن ، بل فى الرأس .

فأصر كيريسك على رأيه :

— ولكنها عندى فى البطن . — رغم انه وافق فى نفسه على ان مثل هذه العيون لا يمكن ان تكون الا فى الرأس .

وبعد مضى فترة من الزمن عاود العجوز اختباره ، وعندما تأكد من فطنته وقدرته على تذكر جهات البحر ، شعر بالرضى ودمدم :

— حسنا ، حسنا ، لديك عيون جيدة فى بطنك .

واستهوى هذا المديح كيريسك فراح يطرح على نفسه مسائل ويجد لها الحلول . ولم يكن ذلك بالامر العسير طالما البحر هادىء نسبيا . ففى كل مرة كان الكلب الابلق الامين والعظيم يفصح عن نفسه بلا تردد ، ويظهر دون جهد خاص امام بصر كيريسك الداخلى فى الجهة التى كان فيها فعلا ، وكأنما يتجسد حيا ، بكل ضخامته ، وبالاحراش المشعثة على سفوحه وبقع الثلج على «رأسه» و«بين فخذيه» وباصطفاق الموج الراعد الخالد الذى لا يكل عند قدميه .

وعندما تصور الصبى الكلب الابلق لم يستطع ان يمنع نفسه من التفكير فى الروابى الاخرى المحيطة به ، وبدأ لاإراديا يفكر فى دارهم . ولاحت فى مخيلته صورة واد صغير بين روابى الشاطئ ، وفى ذلك الوادى ، عند طرف الغابة ، على شاطئ النهر الصغير ، مضرب العشيرة : البيوت الخشبية والكلاب والدجاج ، وحبال تجفيف السمك ، والدخان والاصوات ، وامه واخته «بسولك» . تصورهما بوضوح وتخيل ماذا تفعلان الآن . امه بالطبع تفكر سرا فيه وفى ابيه وفيهم جميعا ، الصيادين فى البحر . نعم ، لا بد انها تفكر فيهم الآن . تفكر وتشعر بخوف شديد من ان تفطن الارواح الشريرة الى افكارها وتكتشف خوفها . ولا بد ان موزلوك هى الاخرى تفكر فيه . وفى الغالب فقد جاءت الى بيتهم بحجة اللعب مع بسولك . وربما نهرتها امه لو انها ذكرت اسمه عرضا او سألت عنه ، هو الغائب فى البحر . حتما ستوبخها امه : «ماذا تثرثرين ، الا تعرفين انه ذهب الى الغابة لاحضار الحطب ؟» . وستستدرك الفتاة فتلزم الصمت محرجة . وعندما تصور كيريسك ذلك احس بالشفقة عليها . كان يود ان تفكر موزلوك فيه ، ولكنه لم يشأ ان يوبخوها بسببه .

وظل القارب يسير وهو يتهادى مع الامواج . ولمع البحر المتموج من حولهم فى رغوة الامواج الخفيفة . وحسب الصيادون حسابهم على ان يبلغوا عند منتصف النهار ، وعلى اقصى تقدير فى آخره ، اول جزيرة («الحلمة الصغرى» ، اقرب جزيرة فى «الحلمات الثلاث») واذا حالفهم التوفيق فسيبدأون الصيد هناك . وبعد ذلك كان عليهم ان يصلوا قبل حلول الظلام الى الجزيرة الثانية — «الحلمة الوسطى» — وهناك يبيتون ليلتهم ، خاصة وان هناك خليجا هادئا قرب الشاطئ . وفى الصباح الباكر يخرجون الى البحر من جديد . فاذا كان الحظ حليفهم فى المساء السابق فاصطادوا ثلاث فقمات ، فسوف ينطلقون فى الصباح عائدين ادراجهم دون ابطاء . وايا كان الامر ، فقد كان عليهم ان يعودوا فى النصف الاول من النهار ، فى موعد لا يتجاوز ارتفاع الشمس فى السماء قدر جذعى حور . فمن المعروف انه كلما بكرت بمغادرة البحر كان ذلك افضل .

كل ذلك دبره العجوز اورجان ، فقد كان لديـــه لكـل شيء حسابه . كما ان مساعديـــه – امرايين وميلجون – يعرفان جيدا ما هو المطلوب ، فليست هذه اول مرة يذهبان فيها الى «الحلمات الثلاث» . اهم شيء ان يكون الجو هادئـا وان يكتشفوا الفقمات مبكرا فى مراقدها . هذا هو المهم ، وكـــل ما عدا ذلك فرهـن بمهارتهم ، وبقدرة كل منهم على التصرف .

لم يكن خروج العجوز اورجان الى البحر بدافع الحاجة وحدها . الحاجة شيء طبيعى ، فمن الواضح انه لا يمكن ان تعيش بدون الحصول على الطعام من البحر . ولكن البحر كان دائما يشد العجوز اليه . فالآفاق البحرية كانت تسلمه الى خواطره المنشودة . وكانت لديه افكاره الدفينة الخاصة . وفى البحر لا يعوقه شيء عـــن الاستسلام لها . لان كل ما كان يبغى التفكير فيه ولا يجد الوقت له هناك على اليابسة ، وسط المشاغل اليومية ، كان البحر يتيح له الفرصة ، فلم يكن ثمة ما يصرف اورجان عن افكاره العظيمة . كان يحس بنفسه هنا على صلة قرابة بالبحر والسماء .

كان يدرك ان الانسان فى القارب لا يعنى شيئا امام لانهائية الآفاق . ولكن الانسان يفكر ، وبذلك يرقى الى عظمة البحـــر والسماء ، وبذلك يؤكد ذاته امام قوى الطبيعة الخالدة ، وبذلك يمكن ان يضاهى عمق البحر وارتفاع السماء . ولذلك فطالمـــا الانسان حى فهو عظيم بروحه كالبحر ، ولا نهاية له كالسماء ، لانه لا حد لافكاره . وعندما يموت فسوف يواصل احد آخر التفكير الى ابعد منه ، والشخص التالى سيفكر الى ابعد من ذلك ، وهكذا الى ما لا نهاية . . . وكان هذا الادراك يمنح العجوز حلاوة مرة ، حلاوة التسليم اللامستسلم .

كان يدرك ان الموت حتمى ، وان نهاية حياته ليست بعيدة . كان يدرك ان الموت نهاية كل شيء ، ومع ذلك كان يأمل بان اعظم ما يكنه فى نفسه وما ينشده – الا وهى احلامه العظيمة عن حورية البحر – سوف تبقى معه حتى بعد الموت . لم يكن يستطيع ان يسلم احلامه لغيره ، فالاحلام لا تنقل ، ولذلك اعتبر انها بوفاته لا ينبغى ان تختفى بلا اثر . . . لا ينبغى . فحورية البحر

العظيمة خالدة ، وعلى ذلك فينبغى ان تكون الاحلام عنها خالدة ايضا .

كان كثيرا ما يفكر فى ذلك وهو فى عرض البحر . وكان يلوذ طويلا بالصمت ، وينطوى على نفسه ولا يتبادل اى حديث مع رفاقه . كان يتطلع الى البحر ويخاطب مجهولا راجيا شيئا واحدا : ان تُترك له احلامه عن حورية البحر العظيمة . امن المستحيل ان ترحل الاحلام مع الانسان الى العالم الآخر ، وان تتراءى له دوما ، الى ابد الآبدين ؟ واذ لا يجد اجابة عن تساؤله يروح يفكر معذبا وهو يحاول ان يقنع نفسه بان ذلك هو ما سيكون ، وان احلامه ستبقى معه . . .

. . . فى عهد ما ، منذ زمن بعيد جدا لا يذكره احد ، عاش ثلاثة اشقاء على الشاطىء قرب «الكلب الابلق» . وكان الاخ الاكبر سريع الساقين ، خفيف الحركة ، ينجز كل شىء بسرعة ، فقد تزوج ابنة ملك الايائل واصبح مالكا لقطعان الايائل ، ورحل الى التندورا ولم يعد . وكان الاخ الاصغر صيادا وراميا لا يخطىء الهدف . وقد تزوج هو الآخر من ابنة اهل الغابة ، ومضى الى غابات التايجا ، واصبح صيادا هناك . اما الاخ الاوسط فكان اعرج منذ الولادة ، سيىء الحظ ، يستيقظ مبكرا وينام متأخرا ، وما الفائدة . فلن يستطيع اللحاق بالايائل او صيد الوحوش فى الغابة . ولم يزوجه احد من ابناء الناحية ابنته ، وهجره اخواه ، فبقى وحيدا على شاطىء البحر الازرق . وكان يدبر حياته بصيد السمك بالسنارة ، وما اقل ما تستطيع اصطياده بها . . .

وذات مرة كان هذا الاخ الاعرج البائس جالسا فى الزورق ، وقد القى بسنارته فى البحر ، واذ به يشعر فجأة بالسنارة ترتعش فى يده بشدة . ففرح بالصيد الثمين الذى سيخرجه من الماء ! وراح يشد هذه السمكة الكبيرة نحو القارب شيئا فشيئا .

واذ به يرى . . . يا للأعجوبة ! سمكة فى هيئة امرأة ! وراحت تضرب الماء ، وتلتوى وتريد الهروب . وكان جمالها لا مثيل له . . جسدها ناعم ، يلمع كالفضة ، كحصى النهر فى ضوء القمر ، وثدياها ابيضان بحلمتين داكنتين مشرئبتين مثل كوزى صنوبر ، وعيناها خضروان تشعان شرارا . واخرج الحورية من

البحر وامسك بها من تحت ابطيها فعانقته ورقدا فى القارب . ودار رأس الاخ الاعرج من هذه السعادة . ولم يذكر ما حدث له ، وخيل اليه ان القارب طار الى السماء . تأرجح البحر حتى بلـــغ عنان السماء ، وتأرجحت السماء حتى بلغت البحر . ثم سكن كل شيء مرة واحدة ، كأنما بعد العاصفة . وهنا قفزت الحورية من القارب وغابت فى البحر . وهب الاخ الاعرج يناديها ويتوسل اليها ان تعود ، الا انها لم ترد ، واختفت فى اعماق البحر .

هذا ما جرى للاخ الاوسط الاعرج الذى هجره الجميع وبقى وحده على الشاطئ . مضت الحورية ، ولم تظهر بعد ذلك ابدا . اما الاخ الاعرج فقد استولت عليه الكآبة منذ ذلك اليوم . ومنذ ذلك اليوم وطوال الايام والليالى التالية كان يسير على الشاطئ وهو يبكى ويدعو الحورية ويضرع اليها ويتوسل ان تظهر له على الاقل ولو من بعيد .

حين يجيء المد يغنى :

اين تسبحين يا حورية البحر العظيمة ؟

حين يجيء الجزر يغنى :

اين تسبحين يا حورية البحر العظيمة ؟

فى الليل القمرى يغنى :

هذا البحر شجونى ،
هذا الماء دموعى .

فى قلب الظلماء يغنى :

والارض رأسى الوحيد !
اين تسبحين يا حورية البحر العظيمة ؟

حين يجيء المد يغنى ، حين يجيء الجزر يغنى . . .

ومضى الشتاء ، ثم مضى الربيع ، وذات مرة اثناء الصيف ، وبينما كان الاخ البائس الاعرج يتخبط على الشاطئ ، ويخوض فى

مياه البحر الى ركبتيه ويجيل النظر فى البحر عله يرى حورية البحر ، وينادى اذ ربما ترد النداء ، سمع فجأة صوتا اشبه ببكاء طفل عند لسان البحر . كان اقرب ما يكون الى صوت طفل يبكى بحرقة . فركض الى هناك ، ولم يصدق عينيه . فعلى لسان البحر ، قرب الماء تماما جلس طفل عريان ، والموج تارة يغطيه وتارة ينحسر عنه ، بينما الطفل يبكى ويصيح بصوت عال : «من هو ابى ؟ اين ابى ؟» . وازدادت دهشة الاخ الاعرج ، وحار المسكين فيم يفعل ، وعندما رآه الطفل قال له : «انت ابى ! خذنى اليك فانا ابنك !» .

يالها من حكاية ! واخذ الرجل ابنه وحمله الى البيت .

وكبر الطفل سريعا . واصبح يخرج الى البحر . واشتهر كصياد شجاع قوى . لقد ولد محظوظا : فما ان يلقى بالشباك حتى تمتلىء بالاسماك ، وما ان يطلق سهما حتى يردى الحيوان البحرى فورا . وطبقت شهرته الآفاق ، فزوجه اهل الغابة بابنتهم بكل مظاهر الاحترام . وانجب اطفالا ، وتكاثر البشر من نسل حورية البحر .

ولهذا تغنى هذه الاغنية فى الاعياد :

اين تسبحين يا حورية البحر العظيمة ؟
رحمك الدافىء يهب الحياة
رحمك الدافىء انجبنا عند البحر
رحمك الدافىء افضل بقعة فى الدنيا
اين تسبحين يا حورية البحر العظيمة ؟ . . .
ثدياك الابيضان . . مثل رأسى فقمة
ثدياك الابيضان . . ارضعانا عند البحر
اين تسبحين يا حورية البحر العظيمة ؟ . .
اقوى رجل فينا سيسبح اليك
لكى يزدهر رحمك ،
لكى يتكاثر فى الارض نسلك . . .

* * *

كان هذا الحلم يتصاعد من اللاوعى ، كالمد القادم من اعماق المحيط دون هوادة ليغمر الساحل والعشب والرمال بغلالة مسحورة من ظلمات الاعماق .

وفى كل مرة كان هذا الحلم يترك فى نفس اورجان احساسا مذهلا ، لا تمحى آثاره طويلا . وآمن العجوز به ايمانا قويا حتى انه لم يبح لاى مخلوق بلقاءاته مع حورية البحر فى الحلم ، مثلما لن يبوح لاى انسان باشياء كهذه لو حدثت فى الحياة العادية .

كان ذلك حلما - ملازما ، كثيرا ما يتراى للعجوز فيهبه السعادة والحزن وعذابا روحيا ساميا . ومن مميزات هذا الحلم المدهشة انه كان فى كل مرة يصعق اورجان بمكنونه اللامتناهى وبتلميحاته الكثيرة الدلالات الكامنة فى تحولات هذا الحلم اللامعقولة واعاجيبه . وعندما فكر اورجان فى ذلك وهو يحاول التوصل الى سر الاسرار ، الى تلك العلاقة التى لا تلمس ابدا والمتغيرة دوما بين الاحلام والحياة ، العلاقة التى تعذب الانسان بألغازها وبدلالاتها الخفية ، عندما فكر اورجان فى ذلك اكتشف انه رغم كل قلقه الروحى فانه يتحرق الى مجىء هذه الاحلام ، ويتلهف بلوعة عارمة الى لقاء حورية البحر العظيمة . . .

كان يلتقى بها فى البحر . يخرج الى الشاطىء فى انتظار ظهورها ، ويسير على رمال الشاطىء المقفرة التى لا تحتفظ بآثار الاقدام لكنها تحتفظ بظلال سوداء ثابتة من اشعة شمس النهار المنطفئة . كانت هذه الظلال تستلقى كالثلج الاسود ، ويسير هو عليها معذبا تكتنفه لوعة لاانسانية قاهرة . كانت آلام الحب ، وآلام الشوق والامل تملؤه ، بينما يظل البحر مقفرا لامباليا . لا ريح ، لا اصوات ، لا حفيف فى عالم الوحدة ذاك المتوتر الصامت . اما هو فكان ينتظر ، يحدق فى البحر وينتظر المعجزة ، ينتظر ظهورها .

وتزداد كآبة روحه وهو يرى الامواج الصامتة تتكسر دون صوت وتنتشر زبدا ابيض على طول طريقه . وطيور النورس الصامتة تحلق فوق رأسه كندف ثلج كبيرة هائمة . وفى هذا الفراغ الاصم الابكم لا يجد لنفسه مستقرا ، ويشعر كيف تنقبض روحه ، وكلما طال انتظاره تصاعدت من اعماقه بصورة اكثر عذابا وحدّة لوعة اليها لا تهدأ ولا تلين ، وحتى فى الحلم كان يدرك انه سيعانى وسيهلك فى فراغ الوحدة اذا لم يرها ، واذا لم تظهر . وعندئذ يأخذ فى الصياح مناديا عليها . الا انه لا يميز صوته ، لان صوته لا وجود له ، مثلما لا وجود لكل الاصوات فى هذا الحلم الغريب .

ويظل البحر صامتا . لم يكن يتعقبه الا صوت انفاسه الثقيلة المتقطعة والعالية بصورة لا تعقل ودقات قلبه المستمرة ، المدوية بجنون فى صدغيه . كان هذان الصوتان يثيران حنقه ، فلا يعرف كيف يتخلص من نفسه . كان ينتظر حورية البحر كالمجنون ، ينتظرها بشوق ووله كما ينتظر الغريق آخر امل فى النجاة . كان يعرف انها وحدها ، حورية البحر ، هى التى تستطيع ان تمنحه السعادة . . . كان يعرف وينتظر بآخر قواه .

واخيرا ، عندما تندفع طافية فوق سطح الماء وتسبح نحوه وعيناها مصوبتان اليه ، ويلوح وجهها غير واضح المعالم وسط الامواج ، كان صمم العالم ينهار . ويستقبل هو صارخا ومهللا عودة الاصوات : زئير الموج المتكسر وصخب الريح ونعيق النوارس فوق رأسه . ويلقى بنفسه فى الماء صارخا ومهللا ، ويسبح اليها بعد ان يتحول الى مخلوق سريع العوم كالحوت .

اما هى ، حورية البحر ، فتنتظره وهى تدور دورات عاصفة ، وتقفز خارج الماء ، وتتعلق فى الهواء لحظة وجسدها كله يرتعش ، وتتبدى فى تلك اللحظات جسما حيا من لحم ودم ، كأنما امرأة عادية جميلة الفخذين ظهرت فى البحر فجأة .

ويسبح حتى يبلغها ، فيمضيان الى المحيط .

يسبح بجوارها ، جنبا الى جنب ، ويتلامسان برقة فى حركتهما المندفعة المتسارعة . كان ذلك ما يصبو اليه وينتظره فى عذاب اللوعة وصمت الوحدة .

الآن اصبحا معا . وانطلقا بقوة وسرعة لا تعقل الى الافق الوامض فى المحيط الليلى المشع من الاعماق بريقا غير عادى على خط الافق المتذبذب . انطلقا الى هناك ، الى الافق الذى لا يطال ، وهما يشقان بجسديهما ذؤابات الامواج المزبدة المندفعة للقائهما بلا اكتراث . انطلقا عبر قمم الامواج اللانهائية ، تارة محلقين عاليا ، وتارة هابطين الى اسفل مبهورين بتحليقهما الفرح . . الى اعلى والى اسفل ، ومن قمة الى قمة ، ومن ذؤابة الى ذؤابة . وبالقرب منهما يركض القمر الاصفر مصاحبا لهما ، لاهثا فى اثرهما على شكل بقعة فضية ممدودة . وفى هذه الآفاق المحيطية اللامحدودة لم يكن سوى القمر وهما ، هو وحورية البحر ، وحدهما

فى المحيط ! تلك كانت ذروة السعادة ، ونشوة الحرية ، وحلاوة اللقاء . . .

انطلقا بقوة واستمرارية ، مشدودين برغبة جامحة فى ان يبلغا بسرعة ذلك المكان المخصص لهما فى الدنيا ، حيث اخيرا يتحدان ، وقد استحوذتهما الشهوة ، وحيث يدركان فى لحظة خاطفة واحدة كل الحلاوة والمرارة فى ابتداء الحياة وانتهائها . . .

وهكذا سبحا بانطلاق عاصف على امل بلوغ الهدف المنشود .

وكلما ازدادت سرعتهما توقد فيه سعار الشهوة الجسدية المتلهفة . كان يسبح ولا يشعر بتعب ، وينطلق الى الامام بأقصى جهده ، كسمكة السلمون التى تنطلق الى مكان وضع البيض مستنفدة كل قواها حتى آخر قطرة . كان يسبح مستعدا للموت من اجل الحب . اما حورية البحر الغامضة فمضت تجذبه أبعد فأبعد الى اعماق المحيط ، محلقة فوق الامواج فى سحابة من الرذاذ وقوس الطيف الوهاج وآسرة فؤاده بدفء جسدها اللؤلؤى ومرونته وانسيابه . وانبهرت انفاسه من جمالها المكتمل ، المغتسل فى زرقة وبياض تيارات الماء العاصفة .

لم ينبسا ببنت شفة بل ظل كل منهما يحدق فى الآخر دون ان يحول عنه عينيه ، محاولا ان يكتشف ملامح وجهه الغامضة وسط الرذاذ وتيارات الماء . وواصلا انطلاقهما فى المحيط بلا توقف ، يمضهما الانتظار المتزايد للمكان واللحظة اللذين حددهما لهما القدر . . .

لكنهما لم يبلغا قط ذلك المكان ، ولم تحل قط تلك اللحظة . . .

ففى معظم الاحيان كانت احلامه تنتهى بلا شىء – ينقطع كل شىء فجأة ، ويتلاشى كالدخان . وعندئذ يفيق مذهولا ، ويحزن حزنا حقيقيا ، ويظل بعد ذلك يكابد اللوعة طويلا ، ويراوده احساس بنوع من عدم الرضا ، وبالنقصان . واحيانا ، وبعد مضى فترة طويلة ، كان يتذكر كل شىء من البداية ، ويستغرق فى التفكير عن معنى كل ذلك ، وعما يبشر به لأنه كان فى اعماق روحه يؤمن بأن ما رآه يفوق أى حلم . فالحلم العادى ، حتى اذا تذكرته ، فستنساه سريعا الى الابد . ولكن اورجان لم ينس قط حورية

البحر ، بل كان يفكر فيها ويتأمل وكأنها واقع حي . وربما لذلك كان العجوز يعانى بصدق فى كل مرة وهو ينظر الى لقائه بحورية البحر وفراقه لها فى حلمه كحدث حقيقي .

ولكن العذاب الأكبر كان ينهش قلبه عندما ينتهى الحلم تلك النهاية الفاجعة . عندها كان العجوز يئن تحت وطأة اليأس والحزن العظيم ويحار فى تفسير تلك النهاية الغامضة .

كان يحلم بأنهما على وشك بلوغ المكان المنشود ، وها هو ثمة شاطىء يلوح . كان ذاك شاطىء الحب . . الشاطىء الذى كانا يقصدانه ، ويحثان السير نحوه بكل ما وسعهما من قوة ، وقد استبدت بهما الرغبة المستعرة فى بلوغ هذا الشاطىء بسرعة ، حيث يسلم كل منهما نفسه للآخر . وها قد بقيت مسافة قصيرة ويبلغانه ، واذ بهما يصطدمان بالقاع الرملى للميـــــاه الضحلة ، حيث لا يبلغ الماء الركبة ، وحيث لا تمكن السباحة . ويتنبه اورجان ويتلفت حوله ، فاذا حورية البحر تتخبط فى المياه الضحلـــة بجنون ، وهى تحاول عبثا ان تفلت من اسر الرمال . ويتصبب العرق البارد من اورجان وهو يهم لنجدتها . ولكن دهرا طويلا يمضى وهو يزحف على ركبتيه ويغوص فى طين القاع الذى يشده اليه كوحل المستنقعات ، ويجرجر ساقيه اللتين لا تطيعانه وكأنهما ساقا شخص آخر . كانت حورية البحر على مرمى ذراع منه ، ولكن الوصول اليها كان عذابـــا ، واحتبست انفاسه ، واختنق وهو يغوص فى طين القاع والاعشاب البحرية اللزجة تلتف على ساقيه . اما العذاب الأكبر فرؤيته لحورية البحر الرائعة وهى تتلوى وتنتفض أسيرة فى الميـــاه الضحلة . وعندما بلغها أخيرا ، وحملها على ذراعيه ومضى الى الشاطىء مترنحا من دوار الرأس وضمها الى صدره ، سمع بوضوح قلب حورية البحر وهو يدق بعنف ويكاد ينفجر ، وكأنها طائر جريح امسكوا به بعد مطاردة . ولهذا ، ولأنه كان يحملها على ذراعيه ، ضاما اياهــا بقوة ، ولأنه امتلأ كله رقة وشفقة عليها ، وكأنما كان يحمل على ذراعيه طفلا وديعـــا ، لهذا احتبست فى زوره عبرة حارة جامـــدة كالحجر . وجاهد كى لا يبكى وقد بلغ منه التأثر كل مبلغ ، وأحس بالخجل من حورية البحر . حملها خافق القلب ، ومضى يخطو برفق وحذر وفكره معها فى كل خطوة . اما هى فأخذت تتوســـل اليه ،

وتستحلفه من بين دموعها ان يعيدها الى البحر ويطلق سراحها .
كانت تختنق وتحتضر ، لم يكن بوسعها ان تحبه بعيدا عن البحر الكبير . كانت تبكى وتتطلع اليه فى صمت بأعين ضارعة مستعطفة حتى انه لم يستطع ان يصمد امامها . استدار عائدا عبر المياه الضحلة الى البحر وهو يغوص اعمق فأعمق فى الماء ، ثم اطلقها برفق من احضانه .

وغابت حورية البحر فى طيات الموج ، وبقى هو وحيدا مصعوقا ، يحدق فى اثرها . ويستيقظ وقد علا نحيبه . . .

اين تسبحين يا حورية البحر العظيمة ؟
هذا البحر شجونى ،
هذا الماء دموعى .
والارض رأسى الوحيد
أين تسبحين يا حورية البحر العظيمة ؟

كان تذكر ذلك صعبا لا يطاق ، وكأنه بالفعل كان يحمل حورية البحر على ذراعيه واطلق سراحها بنفسه . لماذا يحدث ذلك ؟ وهل من المستحيل ان تتحقق فى الحلم آمال الانسان اية كانت ؟ بمن يرتهن ذلك ؟ ومن يقف وماذا يقف وراء هذا ، واى مغزى هنا وما القصة وما دلالتها ؟ وتنتاب اورجان شتى الظنون فيبعد عنه هذه الأفكار ويحاول ان ينسى والا يفكر فى حورية البحر .

ولكنه عندما يخرج الى البحر للصيد لا يلاحظ كيف بدأ يفكر فيها وفى كل ما يرتبط بها . فى البحر يشعر وكأنه عاش قصة الحلم الغريب كلها من جديد ، وعندما يفكر فى ذلك بعقل صاف يدهش ويتساءل : لماذا يفكر فى هذا ، وهل من شأن رجل عجوز ان يكابد اللوعة من أجل حورية بحر لا وجود لها ؟ كان يؤنب نفسه ، وفى الوقت نفسه يعترف لها : لو لم تكن حورية البحر لضقت بنفسى . . فها انذا قد هرمت ، ولم تعد قواى كما كانت ، ولا نظرى كما كان ، ومضى جمال الشباب وتساقطت الأسنان . كل ما كنت ازهو به يغيب ويتحطم ، والموت ليس ببعيد ، لكن القلب وحده لا يستسلم ، وما زالت الرغبات فيه تتوقد كما فى ايام

الشباب ، المصيبـــة ان الروح لا تشيخ . ولهذا تترى مثل هذه الافكار ، وتخطر مثل هذه الاحلام ، ذلك ان الانسان يبدو لنفسه خالدا وحرا فى الاحلام والافكار فقط . بالأمل يصعد الى ذرى السماء ويغوص الى اعماق البحار . وعظمة الانسان انه يفكر فى كل ما فى الحياة حتى ساعة الموت . ولكن الموت لا يأبه بذلك ، ولا يبالى بحياة الانسان ، ولا بعظمة افكاره ، ولا بما رأى من احلام ، ولا كيف ولا اى شأو بلغ ، كل ذلك لا يهم الموت . فلماذا تجرى الامور هكذا فى الدنيا ؟ لتكن حورية البحر حلما ، ولكن ليبق هذا الحلم الى الابد هناك ، فى العالم الآخر . . .

وكما كان اورجان يؤمن بحورية البحر فقد آمن ايضا بأن البحر يصغى اليه . هنا كان يحس بانطلاق روحه وافكاره . هنـــا كان ينفس عن نفسه . واحيانا كان يسأل نفسه وهو غارق فى افكاره : «ترى ألم امر معها بهذا المكان ؟» .

فى تلك اللحظات كان يحشو غليونه من جديد ، ويتلذذ بدخان التبغ : «ترى اين ينمو مثـــل هذا العشب . . يبدو وكأنه عشب ضار ، لكنه يخفف عن النفس . . . يقول التجار انه فى منشوريا . يأتون به من هناك . بعيدة منشوريا هذه ، اوه ما أبعدها . لم يسافر اليها واحد من رجالنا . . أحقا ينمو التبغ هناك كما ينمو العشب فى الغابة ؟ ما أكثر العجائب فى هذه الدنيا . . .» .

* * *

مالت الشمس عن وسط السماء . وخلال تلك الفترة غابـــت بضع مرات خلف سحب اتت فجأة من وراء الأفق ، وكأنما عشش هناك الطقس السيئ . وعندها كان البحر يكفهر فورا ، وتربـــد سحنته ، ويصبح المكان معتما غير مريح . ثم تظهر الشمس ثانية وتضيء من وراء السحب بصفـــاء وسخاء ربيعيين فيتراقص البحر بالاشعة الحية السابحة الباهرة ، فتعود البهجة الى النفس .

ورغم ان كيريسك ألف البحر ، بل وشعر ببعض الملل الا انه لم يفارقه الاحساس بالدهشة من ضخامة وامتداد الآفاق البحرية . منذ متى وهم فيه وهو يبدو بلا نهاية او حدود . ولـــو كان على

اليابسة ، لما أحس بالدهشة مهما كان اتساع الارض ، كما يحس الآن فى البحر .

اما الكبار فلم يدهشهم شيء . كان كل ذلك مألوفا لهم . ومضى امرايين وميلجون يجذفان بانتظام ويضربان بالمجاذيف سطح الماء ضربات قصيرة . كانا يعملان بلا كلل ، ولم يسمحا لاورجان ان يحل محل احدهما ولو لالتقاط الانفاس ، وقالا له ان من الافضل ان يساعدهما فى طريق العودة عندما يكون الزورق محملا ، اما الآن فلينصرف الى توجيه القارب . وجلس العجوز اورجان برقبته الطويلة ذات الحرقدة عند مؤخرة الزورق منكمشا كأنه نسر يتحفز للانقضاض على فريسته . وكان صامتا يفكر فى شيء ما .

ومضى القارب وهو يتمايل قليلا مع الامواج ، وكانت الامواج كما فى السابق معتدلة ، والريح سطحية مستقرة الاتجاه .

هكذا مضوا . . .

وفجأة صاح كيريسك بفرح وهو يشد اورجان من ذراعه :

– يا جدى ، يا جدى ! ها هى الجزيرة ! الحلمة الصغرى !

– اين الجزيرة ؟ – قال اورجان غير مصدق ووضع راحته قرب عينيه . ونظر المجذفان بدهشة الى الجهة التى اشار نحوها الصبى .

– لا ينبغى ان تكون هناك – دمدم العجوز لأن الصبى اشار الى جهة اخرى تماما غير متوقعة .

كان الصبى محقا . فهناك بعيدا جدا لاح بالفعل خط اغبر داكن يبدو وكأنه نتوء يابس وسط المياه . وظل اورجان يحدق طويلا ، واخيرا قال بثقة :

– كلا ، ليست هذه جزيرة . علينا لكى نصل الى الحلمة الصغرى ان نواصل السير فى خط مباشر نحو الغرب ، فى الاتجاه الذى نسير عليه الآن . اما هذه ففى جهة اخرى – ومضى يقول – ليست هذه جزيرة . يخيل الىّ انها ليست جزيرة .

وقال ميلجون :

– مثل هذه الجزيرة لم تكن موجودة فى هذا البحر ، لم نر ابدا جزيرة كهذه . الحلمة الصغرى ستكون على يسارنا ، اما هذه فلا اعرف ما هى .

وقال امرايين :

– أليس هذا ضبابا او سحابة ما ؟ ام هـــو موج عاصف ؟ اذن فلماذا لا يتحرك ؟
فاجاب اورجان :
– نعم ، ما هذا حقا ؟ لا ندرى ضباب هو ام سحابة . انه بعيد عن هنا . لكنه ليس جزيرة . اما اذا كان ضبابا فهو لا يبشر بخير .
فأبدى امرايين رأيه وهو ينكب على التجذيف :
– لا بأس ، المهم الا تغير الريح اتجاهها . انه ثابت فى مكانه لا يتحرك . ليس لدينا ما نفعله فى تلك الناحية ، فليكن هناك ما يكون . . .
احس كيريسك فى البداية بخيبة امل لأن ما اكتشفه اتضح انه شيء غير محدد ، ولكنه سرعان ما نسى ذلك .
اما الصيادون فلم يخطئوا . اذ سرعان ما لاحت جزيرة الحلمة الصغرى وسط المياه عن يسارهم ولم تكن ثمـــة شكوك . كان ذلك بروزا صخريا صغيرا جدا من الارض وسط المياه ، مغطى بالنتوءات ، وكان يشبه بالفعل الحلمة .
ودب النشاط فيهم جميعا عندما رأوا الجزيرة ، وخاصـــة كيريسك . اذن فالبحر ليس بلا نهاية . وهنا بدأ امتع جانب فى الرحلة .
وقال اورجان وهو يمسد القلنسوة على رأس الصبى :
– انظر ، ها هو الكلب الابلق قد اوصلنا الى الجزيرة رغم انه بقى هناك . فلو انه ركض وراءنا لغرق ، أليس كذلك ؟
فأجاب كيريسك وقد أدرك مغزى اللعبة :
– طبعا !
– نحن بحاجة الى الكلب الابلق هناك ، لكى يحرس البيت ، ولكى نصل نحن الى مكان الصيد مهتدين به فلا نضل الطريق . ما رأيك هل نحن الآن بحاجة الى الكلب الأبلق ؟
فاجاب كيريسك بثقة تامة :
– كلا ، لسنا بحاجة اليه . نحن الآن بدونه نعرف الطريق .
فعاتبه اورجان قائلا :
– هلا فكرت قليلا ؟ يا لك من عجول ، فكر قليلا .

لم يفطن كيريسك الى ضرورة وجود هذا الكلب الأبلق وهم بعيدون فى البحر عند الجزيرة ، فسأل :

— وما حاجتنا الى كلبنا الأبلق هنا ؟

— وكيف ستعود الى البيت ؟ الى أين ستتجه ؟ هيا ، فكر ! هل خمنت ؟ فلتتذكر جيدا الجهة التى جئنا منها الى الجزيرة ، واى جوانب الجزيرة يطل على الكلب الابلــق ، وعندئذ ستعرف فى اى اتجاه تمضى عندما تعود .

وافق كيريسك صامتا ، ولكنه أحس بان كبرياءه قد جرح ، وربما لذلك سأل بشىء من الاندفاع :

— واذا كان الوقت ظلاما ؟ ماذا لو وجدنا انفسنــا فى البحر ليلا ؟ هه ؟ ما العمل اذا لم نكن نرى شيئا حولنا ؟ كيف سنعرف اين يوجد الكلب الابلق ، وفى اية جهة هو ؟

فأجابه اورجان على ذلك بهدوء :

— حسنا ، يمكنك ايضا ان تعرف . فمن اجل ذلك توجــد النجوم فى السماء . النجوم لن تخدعك ، بل ستدلك على الطريق . المهم ان تعرف مواقعها . اصبر قليلا وستعرف ذلك . هل تعرف برج بطة اللوفر ؟

فأجاب كيريسك بتردد :

— اعرف على ما اظن . . . ونظر الى أبيه . وادرك امرايين سبب تردد ابنه فقال :

— يعرف قليلا ، فقد أريتــه ذلك ذات مرة . ولكن هــذا قليل ، ينبغى ان يتعلم اكثر . . .

هكذا مضوا وهم يقتربون شيئا فشيئا من الجزيرة . وعندما بدأت تتضح معالم بعض الاحجار والصخــــور على الشاطئ اخذوا يدورون حول الجزيرة وهم يحدقون باهتمام فى الشاطئ علهــــم يكتشفون مراقد الفقمات . واجهد كيريسك عينيه فقد كان يريد ان يكون أول من يكتشف القطيع . ولكنهم حذروه الا يصدر اى صخب عندما يكتشف الحيوانات . وقال اورجان ان الفقمات ترقد فى مكان ما بين الصخور قرب الماء ، اذ انها تزحف من البحر طلبا لدفء الشمس . وينبغى ان تكتشف اين ترقد ، وبعد ذلك عليهــم ان ينزلوا الى الشاطئ سرا ، ويقتربوا منهـــا بحذر لكى لا تفزع

وتهرب . ولكن كيريسك لم ير شيئا . كان الشاطئ مقفرا كئيبا . . غطته كله الصخور الموحشة التى فتتها الزمن وتناثرت بلا نظام . واحاطت بالجزيرة حلقة من الزبد الابيض الفوار من تكسر الامواج التى كانت تهم باجتياح كتل الاحجار المكسوة بالجليد . كلا ، لم ير كيريسك اى شيء على الجزيرة غير ركام الاحجار ، ولا أثر لدابة حية .

كان ميلجون اول من اكتشفها . وبينما كان كيريسك يتلفت محاولا ان يكتشف مكان اختباء الفقمات ، ابتعـــد القارب عن ذلك المكان حتى لا تراهم الفقمات من مراقدها .

وادرك اورجان العجوز ان كيريسك لم ير شيئا فسأله :

— هه . . هل رأيت ؟

فلم يجرؤ الصبى على الكذب وقال بصراحة :

— كلا ، لم أر .

فأصدر اورجان أمره :

— فلنعد مرة اخرى . . — وخاطب الصبى — تعلم كيف تميز بين الاحجار ، والا فلن تصبح صيادا .

وانصاع المجذفان للأمر ، واعادا القارب الى الموضع السابق ، رغم ما فى ذلك من مخاطرة . فلو ان فقمة واحدة اطلقت صيحة فزع ، لهب القطيـــــع كله واختفى فى البحر . ولكن الحيوانات لم تلحظ الصيادين لحسن الحظ . كانت راقدة خلف سلسلة حجرية بين الاحجار الملتوية المتناثرة على الشاطئ فى فوضى على حافـة المياه تماما .

وقال ميلجون لكيريسك :

— انظر ، أترى ذلك الحجر المسنون ، مثل الناب المكسورة ، وقريبا منه نتوء أحمر قليلا مكسو بالجليد . . انظر فيما بينهما .

وحدق كيريسك مليا . وفى تلك الاثناء مضى امراييين وميلجون يجذفان من حين لآخر لابقاء القارب ثابتا فى مكانـــــه . وهنا رأى كيريسك ظهور الحيوانات البحرية واجسادها القوية ذات الذيول . كانت ظهورها الرمادية المنقطة اللامعة جامدة لا تتحرك . ولم تكن العين غير الخبيرة بقادرة على تمييزها هناك وسط الاحجار .

ومنذ تلك اللحظة تملك الصبى الانفعال . ها هى البداية !

هذه هى الحيوانات البحرية الحقيقية ! وها هو الصيد الكبير !

وعندما نزلوا الى الشاطئ كان مستثارا ، مليئا بالشجاعة والاعجاب . الشجاعة لأنه أحس بنفسه فى تلك اللحظة قويا وهاما . والاعجاب لانه رأى كيف يعمل الصيادون بروعة واتساق . رأى كيف رسوا بالزورق على الشاطئ ، وكيف ثبت امراايين والعجوز اورجان القارب عند خط تكسر الامواج على الشاطئ ، بينما قفز ميلجون بمهارة على حصى الارض ، ثم جر القارب بالحبل الذى القى طرفه اليه بعد ان لفه على كتفه ، ثم كيف حمل ابوه البنادق وقفز الى الشاطئ . وفى اثره قفز هو نفسه ، بمساعدة العجوز اورجان طبعا ، وان كان قد بلل قدميه فى مياه موجة قرب الشاطئ فتلقى من أبيه توبيخا خافتا .

تخلف اورجان فى القارب ليبقيه عائما قرب الشاطئ ، اما ثلاثتهم – امراايين وميلجون وكيريسك فأسرعوا نحو مرقد الفقمات . ركضوا مع الشاطئ ، محنيى القامة ، فى قفزات سريعة من مخبأ الى مخبأ . لم يتخلف كيريسك ولم يشعر الا بدقات قلبه المدوية فى صدره ، وبدوار يصيب رأسه احيانا من الشعور المتصاعد بالفخار والانفعال .

آه لو استطاع بنو حورية البحر ان يروه الآن ، وهو يركض بسرعة مع الصيادين الكبار الى حيوان البحر ! لو رأته امه الآن لأحست بالفخر به ، بهذا الذى سيصبح صيادا عظيما ومطعم العشيرة ! آه لو رأته الآن موزلوك ، التى كثيرا ما لعب معها ، ولكنه لن يلعب معها بعد الآن ابدا ، لأنه اصبح منذ الساعة صيادا ، ولو رأته وهو يمضى بعيدا عن الكلب الابلق العزيز ، فوق شاطئ مجهول هادر ، وسط الاحجار والصخور الموحشة ، نحو مرقد الفقمات . واذا كانت البنادق مع ميلجون وامراايين فلا بأس ، فقد وعده ابوه بأن يسلمه البندقية اذا حان وقت اطلاق النار .

وهكذا اخذوا يتسللون الى المرقد ، ثم زحفوا على الارض ، وزحف كيريسك ايضا . كان الزحف على الاحجار الصلبة والجليد المسنن صعبا ومتعبا ، ولكن كيريسك ادرك ضرورة ذلك .

زحفوا وهم يتنفسون بصعوبة والعرق يتصبب منهم ، ويختبئون

بين الحين والحين متلفتين حولهم ومتفحصين . وعندما اصبحوا على وشك التصويب واطلاق النار سكنوا متربصين .

سيذكر كيريسك الى الابد هذه اللحظة وهذا اليوم الربيعى ، وهذه الجزيرة الحجريـــة الباردة وسط البحر الهائـــل اللامحدود باحجارها الحمراء الداكنة الموحشة ، التى اقتلعتهـا وبعثرتها قـوة مجنونة مجهولة ، وهذه الارض الجرداء المتجمدة القاسية الخالية من الحياة والمغطاة بالجليد بعد ، والتى تمدد على بطنه فوقها ، وبجواره ابوه وميلجون المستعدين للرمى ، بينما هناك فى الامام ، على حافة البحر تماما ، وسط ركام الصخور المتعرجـــة التى مزقتها الرياح والعواصف يرقد قطيع صغير من الفقمات هادئـــا مستكنا وهو لا يحدس بشىء بعد . وفوق مرقد الفقمات ، وفوق الجزيرة ، وفوق البحر ، تمتد سماء جامدة ، تميل الى الظلمة ، وهى تنتظر بتوتر ، كما خيل اليه آنذاك ، الطلقة الاولى .

وفكر وهو يركز فى كتفه مؤخرة البندقية التى اعطاها له ابوه :

«لا بد أصيب !»

فى تلك اللحظة القصيرة التى طال انتظارهـــا ، عندما رأى نفسه – متباهيا – صيادا شجاعا ذائع الصيت ، اذهلـــه فجأة ان الظهور الحية ، والاجناب الحية لهذه الحيوانات البطيئة الثقيلة ، المحشورة فى الفجوة الحجرية طلبا للدفء الشمسى الشحيح ، تبدو مكشوفة بهذه الصورة وسهلة المنال . ولكن ذلك الاحساس لم يكن سوى لحظة تردد عابرة . فقد تذكر انه صيـــاد وان الناس ينتظرون عودته بالفريسة ، وان الحياة بدون لحم الفقمة وشحمها تصبح حياة جوع وعوز ، وفى نفس الوقت طاف بذهنه خاطر ، وهو انه ينبغى ان يكون اول من يطلق النار ويظهر نفسه . واستعاد رباطة جأشه وسدد بيد راسخة كما نصحه ابوه تحت الزعنفـــة اليسرى الى اليمين قليلا ، اى الى قلب فقمة كبيرة مبرقشة . وكأنما احست الفقمة بالخطر القادم ، فنفرت فجأة ، رغم انها لم تر الصيادين ولم يكن بامكانها ان تشم رائحتهم ، اذ كانت الريح تأتى من ناحية البحر . وكان عليه ان يتحرك قليلا وبحذر الى الجنب ، فقد كان هناك شىء ما كالظل يعوقه عن التصويب ، الا ان حجرا صغيرا قفز من تحت مرفق كيريسك وتدحرج الى اسفل ، جاذبا معه الاحجار

التى اعترضت طريقه . وندت عن الفقمة المبرقشة صرخة قصيرة كالنباح ، فانتفض القطيع كله وزحف صارخا ومنزلقا الى الماء . وفى تلك اللحظة دوت طلقة لتقطع الطريق على القطيع المنسحب الى البحر ، ولتردى فقمة كبيرة فى طرف القطيع . كان ميلجون هو الذى اطلق النار لينقذ الموقف . اما كيريسك فقد ارتبك .

فأمره امرايين :

— اضرب !

واحس بضربة قوية فى كتفه ، ودوت الطلقة فى اذنيه ، وغاب كل شيء فى الصمم . واحس كيريسك بالخجل الشديـــــد من عدم اصابته الهدف ومن ان الصيد كان على وشك الفشل بسببه . ولكن اباه ناوله طلقة اخرى وهتف :

— لقّم واضرب بسرعة !

وما بدا امرا غير صعب ، اى التلقيم واطلاق النار (فكم قام بذلك بكل سهولـــة عندما كان يتدرب) اصبح الآن صعبـــا . لم يستجب له زناد البندقية على الفور . وفى تلك الاثناء اطلق ميلجون النار مرتين فى اثر الفقمات المنزلقة الى الماء . واصاب احداها فراحت تدور حول نفسها على حافة الشاطئ . وركض الصيادون نحوها . كان القطيع قد غاب فى البحر ، بينما اخذت الفقمة الجريحة الباقية على الشاطئ تحاول بكل قواها الوصول الى الماء . وعندما وصل الصيادون الى موضعها تمكنت الفقمة من بلوغ الماء ، فسبحت وهى تجر وراءها بقعة دموية متموجة . ومضت تحرك زعانفهـــا وتغوص ببطء فى اعماق البحر الشفافة . ولاحت بوضوح عيناها الجاحظتان فى ذعر والخط الليلكى الفاتح الممتد بطول ظهرها من مؤخرة الرأس حتى طرف الذيل . وانزل ميلجون بندقيته المشرعة اذ لم يعد ثمة معنى للاجهاز على الفقمة .

ودمدم امرايين :

— دعها فسوف تغرق على اى حال .

ووقف كيريسك لاهثا ، مهموما ، محنقا . كان يتوقع الشيء الكثير ، فيا له من صياد عظيم !

لزم الصمت ، واستجمع كل قواه كى لا يجهش فجأة بالبكاء من الحنق . كان يشعر بمرارة شديدة .

— لا بأس ، سوف يحالفك الحظ . . . — قال له ميلجون فيما بعد مطيبا خاطره عندما شرعوا يبقرون الفقمة . — سنرحل الآن الى الحلمة الوسطى ، حيث حيوان البحر اكثر .

وبدأ كيريسك يقول :

— انا ببساطة تسرعت . . .

ولكن اباه قاطعه :

— لا داعى للتبرير . لا احد يصبح صيادا من اول طلقة . شد حيلك ، لن تفلت منك الفريسة اذا كنت تجيد الرمى .

وصمت كيريسك ، ولكنه كان فى قرارة نفسه ممتنا للكبار الذين لم يوبخوه . والآن قطـــع على نفسه عهدا بألا يتسرع فى الصيد ، والا يفكر فى اى شىء آخر اثناءه ، وان يطلق النار وهو واثق من اصابة الهدف عندما «ينتقل بصره وانفاسه الى علامـــة التسديد» كما علمه ابوه . وعندها فقط يطلق الرصاصة !

كانت الفقمة كبيرة ، ثقيلة الوزن ، دافئة وكأنها لا تزال حية . وفرك ميلجون راحتيه بسرور ، ثم شق بطنهـــا ، وقال : «انظر ، الدهن سمكه اربع اصابع . فقمة عظيمة !» . ونسى كيريسك ما كان فيه من حزن وراح يساعده بنشاط . اما امراييين فقد توجه الى العجوز اورجان لارساء القارب على الشاطئ .

وسرعان ما عاد على عجل مهموما وقال :

— هيا بسرعة ، ليس لدينا وقت — ثم نظر الى السماء واضاف دون ان يوجه كلامه الى احد — هذا الجو لا يعجبنى . .

ونظفوا بطن الفقمة على عجل واستبقوا الكبد والقلب فقط ، وجروها بالغصون المجدولة الى القارب . ومضى كيريسك فى اثر الرجلين حاملا البندقيتين .

وكان العجوز اورجان فى انتظارهم على الشاطئ بجوار القارب . وظهر السرور على وجهه وقال :

— ليسمع الرب «كورنج» اننا راضون ! لا بأس بهذا كبداية . — وأخذ يردد ذلك وهو يعد سكين الصيد للمأدبة القادمة . كان عليهم الآن ان يقوموا بأهم عمل بعد الصيد : ان يأكلوا كبد الفقمة النيئة قبل الرحيل . وبرك اورجان فوق الفقمـــة المبقورة وقطع الكبـــد شرائح . واخذ الصيادون يزدردون قطع الكبد الرقيقة بعد رشها

بقليل من الملح وهم يمصمصون شفاههم من المتعة . كانت الكبد لذيذة الطعم ، طرية ، دافئة ، دسمة . كانت تذوب فى الفم وهى تلف اللسان بطبقة من الدهن السائل . وهكذا تحقق حلم كيريسك بان يأكل الكبد النيئة اثناء الصيد مثل الرجال الحقيقيين !

ونصح اورجان الصبى قائلا :

— ابلع ، ابلع اكثر ، فالليلة ستكون باردة ، والكبد هى خير ما يدفئ ، وهى انجع دواء لجميع الامراض .

نعم ، كم كان ذلك رائعا ! اكلوا حتى الشبع ، وسرعان ما احسوا بالظمأ . ولكن الماء كان فى الوعاء ، والوعاء فى القارب .

وعندما شبع الجميع قال امرايين وهو يتطلع قلقا الى السماء :

— لن نقطع الفقمة الآن .

فوافق اورجان قائلا :

— نعم ، فيما بعد — ثم اضاف — اما الشاى فسنعده قبل النوم عندما نستقر فى الحلمة الوسطى . اما الآن فسنكتفى بذلك . هيا نشحن ونرحل .

وقبل الاقلاع لم ينس الصيادون ان يطعموا الارض . فقطعوا قلب الفقمة قطعا صغيرة ونثروها وهم يدعون لصاحب الجزيرة كى يهبهم التوفيق فى المرة القادمة . ثم خرجوا الى عرض البحر من جديد .

خلفوا الحلمة الصغرى وراء ظهورهم . وكانت هذه الجزيرة الوحيدة اليتيمة وسط المياه العابسة تثير الاحساس بالشفقة والضياع . ومضوا فى اتجاه الحلمة الوسطى . كان النهار قد مال الى المغيب ، فأعمل الصيادون مجاذيفهم كى يصلوا الى الحلمة الوسطى قبل هبوط الظلام ، حيث كان عليهم ان يجدوا خليجا آمنا ليخبئوا فيه القارب ويقضوا ليلتهم . وسرعان ما غابت الحلمة الصغرى عن الانظار وكأنما غطست فى البحر ، ولكن الحلمة الوسطى لم تظهر بعد . ومن جديد احاطت بهم المياه من كل جانب .

فى الوقت الذى انهمكوا فيه فى صيد الفقمة تغير البحر بوضوح ، واصبحت امواجه اكثر اطرادا وكثافة وصلابة . واستمرت كتلة المياه فى الانسياب فى الاتجاه السابق ، ولكن الريح غيرت اتجاهها . واصبح القارب الآن يهتز ويتأرجح بصورة اقوى بكثير .

الا ان السماء هى التى اثارت قلق الصيادين . مـــا الذى كانت تخبئه لهم ؟ فى مثل هذا الوقت من السنة كان ذلك غريبا وغيـر متوقع ! كانت هناك عكارة فى الجو لا يدرى احد من اين جاءت ، والتفت السماء بغلالة ضبابية بيضاء منسابة تدفعها تيارات الرياح العلوية من الحرائق البعيدة المشتعلة فى مجاهل الغابات القصية . ورغم ان هذه الغلالة الدخانية كانت فقط تلف السماء ولا تعـوق احدا ، الا ان الصيادين صاروا عابسين .

ودمدم اورجان وهو يتطلع بسخط حوله :

— من اين تزحف هذه المصيبة ؟

كانوا يمضون الآن فى توتر ، ومع كل ضربة مجذاف يتوقعون ان تلوح الارض فى الافق . . ارض الحلمة الوسطى ، احسن وآمن مكان بين الحلمات الثلاث .

وفى تلك الاثناء صفت السماء ، بل واطلت الشمس من طرف البحر ، فبـــدت كأنهـــا تطل من طرف الدنيـــا نفسهـــا ، لشـــدة ما كان ذلك بعيـــدا وغير واقعـــى . كان بالامكان النظر الى الشمس ببساطـــة ودون ان تزر عينيـــك . وظهر قرصها محدد المعالم ومضرجا بالحمرة وهى توشك على المغيب فى تلك الناحية الشفقية الضبابية البعيدة . وما ان صفت السماء حتى ساد النور والسكينة العالم . وكان ذلك كافيا ليزول التـوتر . واحس الرجال فى البحر بقرب فرحة الملجأ والراحة على الجزيرة .

وقال اورجان لكيريسك الجالس بجواره وهو يربت على ظهره مشجعا :

— اصبر قليلا ، وستظهر الحلمة الوسطى .

كان الصبى يرغب فى الشرب منذ وقت طويل ، ولكنه كتـــم رغبته بسذاجته الطفولية فى الحفاظ على تعليمات ابيه . فقد قال له ابوه قبيل الرحيل ان كميـــة ماء الشرب فى الرحلة محـــدودة للغاية ، ولا ينبغى ان تشرب كلما عنّ لك ، كما تفعل فى المنزل . وحتى فى الجزر الثلاث جميعا لا توجد قطرة مياه عذبة . كما انهم لا يستطيعون تحميل القارب بحمولة زائدة . وقال له ابوه انه لا يجب ان يشرب الا حينما يشرب الجميع .

وفى تلك الفترة الصافية ، التى اطلت فيها الشمس فجأة من

الافق المشرق ، احس الصبى بطيبة العجوز ، فقال بشجاعة وهو ينظر الى ابيه مبتسما :

— يا جدى ، كم اريد ان اشرب !

فضحك اورجان مدركا وقال :

— آه ، هكذا ! هذا ليس مستغربا بعد تلك الكبد ! مفهوم . ثم اننا جميعا نريد ان نشرب ، أليس كذلك ؟

وهز امرايين وميلجون رأسيهما موافقين ، فابتهج كيريسك لذلك . . اذن فالجميع يريدون ان يشربوا وليس هو وحده .

— حسنا ، فلنمتع انفسنا بالماء ثم ندخن .

وثبت اورجان دفة القارب وهو يقول هذه الكلمات ، ورفع وعاء الماء من قعر القارب ، ووضعه فى متناول يده ، وراح يصب منه فى مغرفة نحاسية مطلية بالقصدير من الداخل . كان الماء باردا ورائقا ، فقد جلبوه من العين الموجودة فى سفح الكلب الابلق من الناحية الاخرى غير المواجهة للبحر . فالماء هناك محبب ، ودائما نظيف ولذيذ الطعم . وفى الصيف تفوح منه رائحة العشب والارض الطرية .

وامسك كيريسك بالمغرفة تحت تيار الماء المنساب . كان متلهفا الى الشرب . وعندما امتلأت المغرفة الى نصفها اغلق العجوز اورجان فم الوعاء بسدادة ، وقال لكيريسك :

— هيا اشرب ! ثم اسق الآخرين — وحذره قائلا — لا تسكب الماء !

فى البداية شرب كيريسك بشراهة ، ثم ابطأ قبل النهاية ، وعندئذ احس بان الماء تفوح منه رائحة خشب الوعاء المنتفخ . وسأل اورجان :

— ارتويت ؟

— نعم .

— ارى من عينيك انك لم ترتو تماما . حسنا ، ليكن . سأعطيك قليلا . الكبد شىء قوى . لو كنا على اليابسة لشربت ولو دلوا — قال العجوز وهو يصب لكيريسك قليلا من الماء .

وعندئذ ارتوى كيريسك تماما ، واحس صدق ما يردده الكبار فى مثل هذه الاحوال عندما يقولون ان نفوسهم اطمأنت .

ثم صب اورجان ثلاثة ارباع مغرفة لكل مجذف ، وقـــدم كيريسك بنفسه المغرفة لكل منهما . فبعد ان شرب حتى ارتوى لم يكن لديه اى مانع فى ان يشرب ابوه وميلجون قدر ما يريدان . ولكن العجوز اورجان رأى من الضرورى ان يشرح له لماذا صب لهما ثلاثة ارباع مغرفة :

— انت ما زلت صغير الجسد ، اما هما فانظر كم همـــا كبيران ! ثم ان عملهما شاق . فعندما تجذف تشعر برغبـــة شديدة فى الشرب !

وبالفعل فقد افرغ هذان الماء فى جوفيهما على الفور ، واضطر اورجان ان يزيدهما قليلا . وهنا وجد العجوز من الضرورى ان يوبخهما فقال :

— على مهلكما يا فتيان ! لستما جالسين على شاطئ نهر !

ورد عليه امرايين وميلجون بابتسامة ، وكأنهما يقـولان : اننا نعرف ، ولكن ما العمل اذا كنا نشعر بظمأ شديد .

ولكن اورجان نفسه ، بعد ان شرب نصيبه هز رأسه وقال ساخرا :

— نعم ، لا بأس لو كنا جالسين على شاطىء نهر . انظر كـم هى قوية هذه الكبد النيئة . . .

ثم حشا غليونه واشعله ، ونفث الدخان باستمتاع وهو لا يخمن انه لن يشعر بهذه المتعة بعد الآن . . .

وكان كيريسك أول من رأى الكارثة ! . .

* * *

قبل ذلك كانت لحظة سكينة رائعة ، عندما اطفأ الجميع ظمأهم واحسوا بالرضا والسعادة .

لقد اصطادوا اول فقمة ، وسرعان ما سينزلون الى الجزيرة للراحة ، وفى الصباح يستأنفون الصيد الكبير . وبعده سيعودون فورا ودون ابطاء . كان كل شىء على ما يرام .

سار القارب كما فى السابق وهو يتهادى فوق الامـــواج . وجلس العجوز اورجان فى المؤخرة ممسكا بالدفة وهـــو يمص غليونه ، وربما كان يفكر فى حورية البحر . اما امرايين وميلجون

فكانا منكبين على المجاذيف يضربان بها بخفة ودقة وجمال وكأنما دون مجهود . ودون ان يشعر اخذ كيريسك يتملى الصيادين باعجاب . وبغريزة صبيانية راح فى تلك اللحظة يتأمل كلا منهم على حدة ويفكر فيه . كان يحبهم عن غير وعى ، ويفخر بأنه معهم وسط البحر فى تلك الساعة .

لم يكن بوسعه ان يتصور هؤلاء الرجال بصورة اخرى . فلا بد ان العجوز اورجان كان دائما هو العجوز اورجان ، بهذه الحرقدة ، والعنق الطويل ، والذراعين الطويلتين المعقدتين كجذور الاشجار ، والعينين الدامعتين اللتين تفهمان كل شيء . وهل كان من الممكن ان يكون ذلك على نحو آخر ؟ هل كان من الممكن ان تمضى الحياة بدون هذا الشيخ ، بدون هذا الرجل الموقر ؟ غريب ، أ حقا كان من الممكن ذلك ؟

امه تقول انه ، اى كيريسك يشبه اباه ، وانه عندما يكبر سيكون نسخة طبق الاصل منه . وتقول ان عينيه كعينى ابيه تماما ، عسليتان كجوز البلوط ، وان اسنانه قوية ، والسنتان الاماميتان بارزتان تماما مثل ابيه . وستكون لحيته مثل لحية ابيه سوداء ، قوية ، كثيفة . ولذلك يسمون اباه «امرايين ابو دقن» . وعندما كان كيريسك صغيرا ، عندما كان ينزل الى النهر عاريا كانت امه تغمز اختها فى جنبها قائلة : انظرى ، مثل ابيه بالضبط . وتضحكان معا من شيء ما ، وتتهامسان بمكر ، وتقول امه انه عندما يكبر ويتزوج بامرأة مثلها هى ، فان زوجته ستكون راضية عنه وستشعر بالسعادة معه ، فأمه تعرف ذلك . اما هو فبدا له غريبا آنذاك : من هى تلك التى ستشعر معه بالسعادة ، وكيف ؟ ولماذا ستكون زوجته راضية اذا ما كان مثل ابيه ؟

ها هو ابوه جالس امامه يجدف . اسود اللحية ، ابيض الاسنان ، عريض الكتفين ، واثقا بنفسه ، هادئ الاعصاب دائما . لا يذكر كيريسك ان اباه صرخ فيه مرة او اشفق عليه وحماه كما يفعل الآخرون . اما عيناه فبالفعل مثل جوزتى بلوط ناضجتين ، صافيتان تشعان بريقا .

وخلفه ، يجلس الى زوج المجاذيف الثانى ، ابن عم ابيه

ميلجون ، الاصغر منه بعامين . وليس لديه لحية تقريبا ، اللهم الا شعيرات متصلبة كشوارب فيل البحر . وهو ايضا يشبه فيل البحر . انه يحب الحديث والجدل اذا كانت الامور على غير ما يتصور . ولا يدع احدا يهضم حقه . وقد تشاجر مرة مع احد التجار الوافدين ، واضطرت العشيرة كلها الى الاعتذار للتاجر وترضيته ، اما ميلجون فلم يرجع عن موقفه باى حال وظل يتهجم بقامته القصيرة المستديرة كجدع الشجرة ويقول انه سيثبت له انه على حق . وشرب حتى ثمل ، فهو يحب الشراب . وحاول عدة رجال ، ومن بينهم امراييين ، ان يكتفوه فلم ينجحوا الا بصعوبة ، فقد اتضح انه قوى كالدب . وهو بالنسبة لكيريسك «عم ميلجون» . وهو صديق لأبيه ، ودائما يخرجان للصيد معا لأن كلا منهما يستطيع الاعتماد على صاحبه وكلاهما صياد قدير . ولميلجون ابن ما زال صغيرا لم يبدأ فى الجرى الا مؤخرا ، وابنتان اكبر منه . وكيريسك لا يدع احدا من الاولاد يمسهما بسوء ، والويل لمن يحاول ذلك . اما والدة كيريسك فتحب البنتين حبا جما ، وكثيرا ما تأتيان للعب مع بسولك .

ولكن اجمل الفتيات هى موزلوك ! ومن المؤسف انها عندما ستكبر سيزوجونها — كما يقال — لقوم آخرين ، فى مكان مجاور . ولكنه قد يستطيع ان يمنع ذلك . . .

نادرا ما كان كيريسك يفكر فى امور كهذه وهو على الشاطئ . اما على البعد فقد اكتسبت كل الاشياء المألوفة مغزى جديدا مؤثرا لم يألفه قبلا .

احس فجأة برغبة شديدة فى العودة الى المنزل ، هناك خلف رابية الكلب الابلق ، فى وادى النهر ، عند طرف الغابة ، حيث يمتد المضرب القديم للنيفخيين ، ابناء حورية البحر . احس بالشوق العارم الى امه الى درجة الالم فى القلب . الا انهم كانوا بعيدين عن الشاطئ الحبيب ، وعن الكلب الابلق العزيز الراكض ابدا عند حافة البحر الخالد لقضاء حاجته . والتفت كيريسك رغما عنه وكأنما ليتأكد من ذلك ، وحينما طاف بنظره فيما حوله رأى شيئا غير متوقع على الاطلاق .

كان جدار رمادي من الضباب الكثيف يزحف في البحر نحوهم

سادا نصف الافق تقريبا ، منقسما الى لسانين عريضين يسيران الى الالتقاء . وراح الضباب يقترب بوضوح وهو يتصاعد بعنف فوق سطح المياه السوداء ويملأ باصرار كل الفضاء المحيط . كان يقترب ككائن حى ، كغول مفترس يبغى الامساك بهم وابتلاعهم بقاربهم وبكل العالم المرئى وغير المرئى . وكان الضباب قادما من تلك الجهة التى رأى فيها كيريسك من قبل كتلة صماء رمادية غير محددة وظنها من بعيد جزيرة . اما الآن فقد انـــدفعت تلك الكتلة كلها ، وهى تنتفخ وتكبر امام اعينهم ، اندفعت نحوهـــم بلا صوت ودون توقف تسوقها الريح .

وصاح كيريسك مذعورا :

— انظروا ! انظروا !

وذهلوا جميعا . وتأرجح القارب فوق الامواج عندما بقـــى لحظة دون توجيه . وفى تلك اللحظة تناهى اليهم صخب المـــوج العظيم المنذر ، المندفع من تحت ستار الضباب الكثيف . كان الموج يتدافع مع الهدير المتزايد للمياه الثائرة ، وهو يغلى ويزبد ويثور عاليا ويتحطم فى آن واحد .

وصاح اورجان بصوت رهيب :

— دوّر ! دوّر بالوجه !

وما ان تمكن المجذفان من ادارة القارب حتى يواجه الموجة بمقدمته حتى كادت اول ضربة من العاصفة تقلب قارب اورجان . ومرت الموجة العاتية مثيرة خلفها هيجان البحر ، وعلى الفـــــور دهمهم الضباب . وعندمـــا لم تبق بينهم وبين حافة الكتلـــة الضبابية الزاحفة سوى مسافة قصيرة ، بدا واضحا بأى ظفـر مكفهر واصرار شرير كانت هذه الظلمة المتصاعدة الحية تتحرك .

ولم يكد اورجان يصيح .

— تذكروا اتجاه الريح ! تذكروا اتجاه الريح ! — حتى غاب كل شىء فى الظلام الدامس . دهمهم الضباب كالانهيار الثلجى فى الجبال ودفنهم فى هوة مظلمة بلا قرار . وفى لمح البصر انتقلوا من عالم الى عالم آخر . واختفى كل شىء . ومنذ تلك اللحظـــة لم يكن هناك شىء اسمه السماء او البحر او القارب . لم يروا حتى بعضهم البعض . ومنذ تلك اللحظة لم يعرفوا للراحة طعما ، فقد

كان البحر يعصف ، والقارب يقفز تارة الى اعلى ، وتارة الى اسفل ، ومرة يطير فجأة ، ومرة يهوى الى اعماق الفجوة المنبثقة بين الامواج . وابتلت ملابسهم من الرذاذ والطرطشة واصبحت ثقيلة . لكن الداهية الكبرى انهم وسط هذا الضباب الكثيف لم يستطيعوا ان يميزوا شيئا حولهم ، ولم يروا اى شيء ، ولم يكن بوسعهم ان يعرفوا ما الذى يحدث فى البحر وما الذى ينبغى عليهم ان يفعلوه . لم يعد امامهم سوى شيء واحد : ان يكافحوا عشوائيا ، على غير هدى ، لمجرد ان يحتفظوا بالقارب فوق سطح الماء بأية وسيلة ويحافظوا عليه من الغرق . ولم يكن ثمة مجال للتفكير فى توجيه القارب نحو هدف ما ، فقد ساقته الامواج حسب هواها الجامح الى حيث لا يدرى احد ، ولم يكن معروفا الى متى سيستمر هذا الحال .

وكان كيريسك قد سمع من قبل عن حوادث تعرض الصيادين لعواصف البحر وعن اختفائهم احيانا الى الابد . وعندئذ كان الحداد يشمل الجميع ، وتقوم النساء والاطفال باشعال النيران على سفوح الكلب الابلق لايام عديدة بأمل لا رجاء فيه : ربما ! ولكن حينذاك لم يكن يتصور حتى ولو تقريبا كم هو رهيب وفظيع ان تموت فى عرض البحر . ولاسيما لم يتصور ان الضباب المسالم ، هذا الوافد الصامت فى فصل الشتاء ، الذى كان يحب مجيئه ، عندما تتلفع الدنيا الغارقة فى الهدوء اللبنى المسحور بغلالة بيضاء منبسطة ، وعندما يبدو وكأن الاشياء تتبخر وتتجمد شفافة فى الهواء ، وتمتلىء النفس رعبا غامضا وقلقا فى انتظار وقوع شيء ما اسطورى . . لم يكن يتصور ان هذا الضباب يمكن ان يتحول الى مثل هذا العدو الرهيب الذى يملأ الدنيا كلها . كانت سحب هذا الضباب الداكنة تتلوى وتنزلق وتنتشر ثم تنكمش من جديد فتبدو مثل ثعابين تتحرك فوق البحر الثائر . . .

تشبث كيريسك بالمقعد وانكمش وهو يرتعد رعبا ملتصقا بساق اورجان .

وصاح اورجان فوق اذنه :

— امسك بى ! امسك بقوة !

ولم يكن فى وسعه ان يقول او يفعل اكثر من ذلك للصبى .

ولم يكن فى استطاعة اى منهم ان يخفف عنه بلواه ، فقد كانوا جميعا على قدم المساواة امام هذه القوة الطبيعية المجنونة . وحتى لو صرخ كيريسك وبكى ، وراح يدعو اباه لما تحرك امرايين من مكانه ، لان القارب لم يبق عائما الا لان امراايين وميلجون كانا يوازنانه بضربات المجاذيف باستماتة وهما يخمنان لطمات الامواج وتفجراتها .

اما الامواج فساقت القارب دون توقف الى ظلمات الضباب الحالكة . وحاول اورجان بشكل ما ان يوجه القارب لكى يحتفظ بتوازنه ، الا ان العاصفة ازدادت عنفا بمرور الوقت .

كان من الصعب تحديد الزمان فى الضباب . ربما كان الوقت الآن منتصف الليل . وكان بوسعهم فقط ان يخمنوا حلول الليل من كثافة الظلمة الحالكة . وفى هذه الظلمة دار لساعات طوال هذا الكفاح غير المتكافئ المستمر المنهك المضنى ذو النهاية الخاسرة تقريبا . ومع ذلك ظل الصيادون صامدين ، ولم يفقدوا الامل المجنون بان العاصفة ربما تنتهى فجأة كما بدأت ، ويتبدد الضباب ، وعندها ينظرون فيما ينبغى عليهم ان يفعلوه . وفى لحظة كاد هذا الامل يتحقق . فقد جاءت فترة بدا فيها ان العاصفة قد بدأت تهدأ ، وخفتت حدة التأرجح ، وهدأ الرذاذ المتطاير وطرطشة الماء . ولكن الظلام ظل محيطا بهم كما كان ، كثيفا ، اسود كالقطران . وكان اورجان اول من نطق ، فعلا صوته فوق هدير البحر :

– انه انا ! كيريسك معى ! هل تسمعاننى ؟

فصاح امراايين بصوت ابح :

– نسمعك ! نحن فى اماكننا !

وصرخ اورجان :

– من الذى تذكر اتجاه الريح ؟

فزعق ميلجون بغل :

– وما الفائدة ؟

صمت العجوز . وبالفعل ، فلم يكن اتجاه الريح يعنى اى شىء لهم الآن . كان من العسير الآن معرفة اين هم ، والى اين ساقتهم الامواج ، وهل هم بعيدون ام قريبون من الجزر التى

يمكن ان تكون علامات مرشدة الى الطريق . وربما سيحملهم التيار الى مكان بعيد جدا بحيث لا يستطيعون الى الابد ان يجدوا «حلماتهم» . صمت العجوز تحت وطأة الظلام والتأرجح . صمت اورجان العظيم مستغرقا فى تفكير مضن . الشىء الوحيد الذى كان يمكن اعتباره من حسن الطالع انهم نجوا من التحطم على صخور الشاطىء عندما ابعدتهم ارادة القدر عن الجزيرة . بيد انه بدون الجزر والنجوم وسط الليل والضباب لا توجد اية وسيلة للاهتداء . كان اورجان عاجزا عن ان يقول اى شىء . ورغم ذلك فقد صاح بعد فترة :

— كانت الريح «تلانجى — لا» * عندما ادرنا القارب !

ولم يرد عليه احد ، فقد كان المجذفان فى شغل عن الرد . وصمت اورجان من جديد . وسرت الرعشة فى بدن كيريسك كله وهو ملتصق فى ساق العجوز . عندئذ قال اورجان للمجذفين :

— انا وكيريسك سننزح الماء ، اما انتما فاصمدا !

وانحنى على كيريسك وتحسسه فى الظلام وقال له بعد ان تأكد انه لم يصب بأذى :

— لا تخف يا كيريسك . هيا ننزح الماء ، والا ساء حالنا . لدينا كوز واحد ، ها هو ، لقد وجدته ، اما انت فخذ المغرفة . . هل انت ماسك ؟ اقول لك خذ المغرفة !

— نعم يا جدى ماسك . هل سيستمر هذا طويلا ؟ اننى خائف .

فقال العجوز اورجان :

— انا ايضا خائف ، ولكننا رجال ، وهذا قدرنا .

— أ لن نغرق يا جدى ؟

— لن نغرق ، واذا غرقنا فهذا اذن حظنا . اما الآن فامسك بى باحدى يديك ، وبالاخرى انزح الماء .

كان من حسن الحظ ان اورجان تنبه فى الوقت المناسب ، وانتهز فرصة الهدوء القصيرة فتمكن مع كيريسك من نزح الماء المتجمع فى القارب . وفى تلك اللحظة التى كانا فيها ينزحان الماء

* «تلانجى-لا» رياح بحرية جنوبية شرقية شديدة وباردة .

متلمسين طريقهما فى الظلام ، لفت اورجان انتباه كيـريسك الى الوعاء الصغير الذى شربا منه فى النهار . وقال له وهو يشد يده :

— يا كيريسك ، ها هو وعاؤنا ، هل تلمسته ؟ تذكر انـه مهما حدث ، فعليك ان تحافظ على الوعاء . امسك به ، تشبث ولا تفلته . اذا حدث شيء فالافضل ان نهلك على ان نبقى بدونه . هل فهمتنى ؟ لا تعتمد فى ذلك على احد . . سامع ؟

وحسنا انه اخبر الصبى بـــذلك ولفت انتباهه فى الـــوقت المناسب . فقريبا جدا سيحتاج الصبى الى ما قاله .

وبعد ان هدأت العاصفة قليلا عادت الى الثورة من جديد ، وبقوة وعنف اشد ، وكأنها تستغل ظلام الليل وعجز الصيادين الذين لم يميزوا شيئا حولهم فى الظلام والضباب . وفى هذه المرة هاجمتهم الامواج بعنف وكأنهـــا فعلا تنتقم من فترة الهــــدوء القصيرة . واختلج قارب اورجان ودار بين الامواج غير المرئية التى كانت تطوح به من جانب الى جانب بلا رحمة . وغطت دفقات الماء القارب فامتلأ به وغاص اكثر . ورغم محاولات اورجـــــان المحمومة لنزح الماء وهو يزحف على ركبتيه فقد كان من المستحيل ان يلاحق تدفق الماء . وعندئذ صرخ المجدفان بغل ويأس :

— ارموا كل شيء ! اننا نغرق ! ارموا !

واجهش كيريسك بصوت عال من الخوف ، ولكن احدا لـم يسمعه ، وكانوا جميعا فى شغل عنه فانزوى فى مؤخرة القــارب متشبثا بوعاء الماء ومال فوقه بجنبه وهو ينتفض من البكاء . كان يذكر ان اهم ما ينبغى ان يفعله هو المحافظة على الوعاء مهمـــا حدث . وكان يدرك انهم يغرقون ولكنه فعل ما أمره به الشيخ اورجان .

كان لا بد من انقاذ عاجل للقارب الموشك على الغرق . وظل ميلجون يضرب بالمجذافين بجنون ، وهو يبذل اقصى جهده لكــى يمنع القارب من الانقلاب ، اما اورجان وامرايين فراحا يلقيـان خارج القارب بكل ما كان فيه . لم يكن ثمة حل آخر . وطارت الى البحر البندقيتان ، والحربة ولفائف الحبال وغيرها من الحاجيات ، بل وحتى غلاية اورجان الصفيح . وكان اصعب شيء القاء جسد الفقمة ، فقد تبلل وثقل واصبح زلقا يفلت من الايدى . وكان لا

بد من رفعه من قاع القارب ودحرجته من فوق حافته . كان عليهم ان يلقوا بالصيد . . بما سعوا اليه فى رحلتهم الى الجزر غير المأهولة . ومضى اورجان وامرايين يدمدمان بصوت متحشرج مطلقين السباب واللعنات ، حتى استطاعا بجهد جهيد ان يدفعا جسد الفقمة فى القاع الضيق الى حافة القارب ويدحرجاه اخيرا الى البحر . وحتى فى هذا الاضطراب والاشتباك الرهيب مع البحر احسوا كيف اهتز القارب بارتياح ، متخففا من ثقل الحمولة . وربما كان ذلك هو ما انقذ الموقف . . .

* * *

كان اورجان اول من استيقظ . لم يستطع ان يدرك للوهلة الاولى وسط هذا الفراغ الابيض الخامد اين هو وما معنى هذا السكون العكر الاصم . كان ذلك هو الضباب .

كان ذلك هو الضباب العظيم ، الذى استقر فى تلك الفترة فوق آماد المحيط بلا منازع وفى سكون ورسوخ . كان الضباب العظيم يمر بفترة جموده العظيم . . .

وعندما الفت عيناه قليلا استطاع العجوز اورجان ان يميز فى الظلام ملامح القارب ، ثم بعد ذلك الاشخاص . كان امرايين وميلجون منطرحين فى مكانيهما قرب المجاذيف . كانا راقدين فى وضع غريب ، بعد ان هدهما التعب من عاصفة الليل ، فبدا وكأنهما خرا صريعين فى موضعهما ، ولم يكن من دليل على انهما على قيد الحياة سوى هذا الشخير الابح المتقطع . ورقد كيريسك منكمشا عند قدمى العجوز ، منكفئا على الوعاء . وكان يرتعد فى رقاده من الرطوبة والبرد . واشفق اورجان عليه ، لكنه لم يكن قادرا على مساعدته .

كان العجوز جالسا فى مؤخرة القارب منكسا رأسه البيضاء وقد اصمته ليلة الامس . وكان جسده كله يؤلمه . وتدلت ذراعاه الطويلتان المعقدتان كالعيدان . لقد مر اورجان فى حياته بكثير من المحن والكروب المختلفة ، ولكن حتى هو لم يعرف مثل هذه الحالة القاسية . لم يكن يتصور اين هم الآن ، والى اين ساقتهم العاصفة ، وعلى اية مسافة هم من اليابسة ، وهل هم فى البحر ام

فى المحيط نفسه . لم يكن يتصور حتى فى اية ساعة هم ، اذ كان من المستحيل تمييز الليل عن النهار فى هذا الضباب الكثيف الاصم المتجمد . ولكن الارجح ، واذا ما راعينا ان العواصف تهدأ عادة فى الصباح ، ان الوقت نهار . وربما النصف الثانى من النهار .

ومهما كان الامر ، ورغم فرحة نجاتهم بمعجزة ، فقد كـان هناك ما يجعل اورجان ينكس رأسه . فبعد ان فقدوا كل ما كان لديهم فى الرحلة ، حتى البنادق التى قايضوا عليها بعض التجار الوافدين بمائة فراء سمور ، لم يعد لديهم سوى قارب واربعـة مجاذيف ووعاء ماء عذب . ترى ما الذى يخبئه المستقبل لهم ؟

بالطبع عندما يستيقظ المجذفان فسوف يتشاورون جميعـا فيما يمكن عمله . ولكن من ذا الذى سيخبرهم بالجهة التى ينبغى عليهم ان يقصدوها . هذا قبل كل شيء . وثانيا اذا ما انتظروا حلول الليل ، وكانت السماء صافية ، فربما امكنهم تحديد موقعهم بواسطة النجوم . ولكن كم من الزمن ستستغرق رحلتهم ؟ وكـم ستتطلب من جهد ووقت ؟ هل سينجحون فى الوصول ؟ وهـــل سيقوون على الصمود ؟

وهذا الضباب ؟ اى ضباب ! يرقد كثيفا راسخا فوق البحر ، وكأنه استقر هنا الى الابد . أمن المعقـــول انه فى كل مكان ؟ أمن المعقول ان العالم كله غرق فى هذا الضباب ؟

شعر برغبة فى التدخين والشرب . بالنسبة للتدخين لم يكن هناك مجال للتفكير ، فكل ما تبقى لديه من تبغ اصابه البلل ، ولا يعرف اين اختفى غليونه . وماذا عن الماء ؟ والطعام ؟ كان اورجان يخشى التفكير فى ذلك . ما زال يستطيع ان يصبر ، واذن فمن الممكن الا يفكر . . .

كانت صفحة البحر ساكنة سكون الموت ، وليس فى الجـو اثر لنسمة . ووقف القارب فى مكانه وهو يتأرجح قليلا . لم يسحبه التيار الى اى مكان فظل ثابتا فى موضعه . واستقرت المجاذيف الملقاة فوق سطح الماء فى استرخاء . كان من الممكن فهم امراييين وميلجون ، فقد بلغا من التعب حدا لم يستطيعا معه رفع المجاذيف الى داخل القارب ، بل غابا فى نوم عميق .

لف السكون كل شيء فى هذه الظلمة والجمود . سكن البحر ،

وسكن القارب ، وسكن الضباب . . لم يكن ثمة داع للعجلة ، ولا وجهة يمضون اليها . . .

اغفى العجوز مع افكاره الحزينة ولم يستيقظ الا والصبي يهزه ويقول :

– يا جدي ، يا جدي ! نريد ان نشرب .

انتفض اورجان ثم ادرك ان ثلاثة من أبناء عشيرته ينتظرون ما سيأمر به لانه كبيرهم ، ادرك ان افظع شيء سيبدأ : تقسيم الماء . . .

وكان الضباب كثيفا وساكنا ، والسكون يلف البحر .

* * *

ظلوا بقية النهار يسبحون في الضباب على مهل . . بلا وجهة ولا غاية معروفة .

فبعد ان عادوا الى رشدهم وادركوا حقيقة وضعهم ، لم يعد في وسعهم ان يبقوا في مكانهم .

فمضوا . . ربما كانوا بذلك يقتربون من اليابسة ، وربما على العكس ، يبتعدون عنها .

على اية حال كان في ذلك نوع من ايهام النفس بأنهم ليسوا واقفين بلا حركة .

وكان كل املهم ان ينقشع الضباب فتتضح الامور .

فعلى اقل تقدير سيرون في الليل النجوم اذا ما انقشع الضباب .

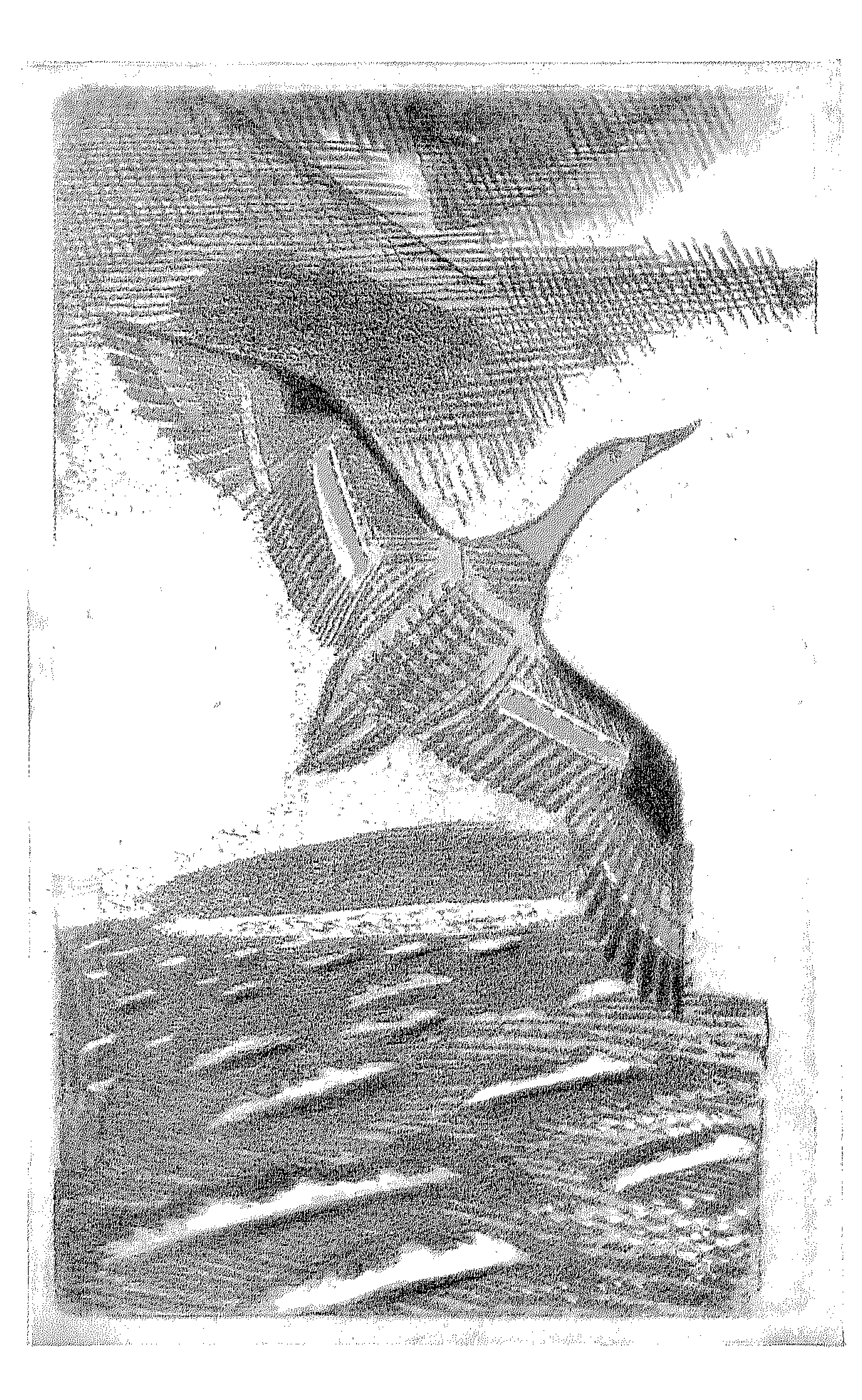
ومن الضروري في المقام الاول ان يمسكوا بالنجوم .

وكان ثمة امل آخر بأن يعثروا على جزيرة ما ، وهناك سيصبح الاهتداء اسهل .

وهكذا مضوا الى المجهول ، والضباب محيط بهم طوال الوقت .

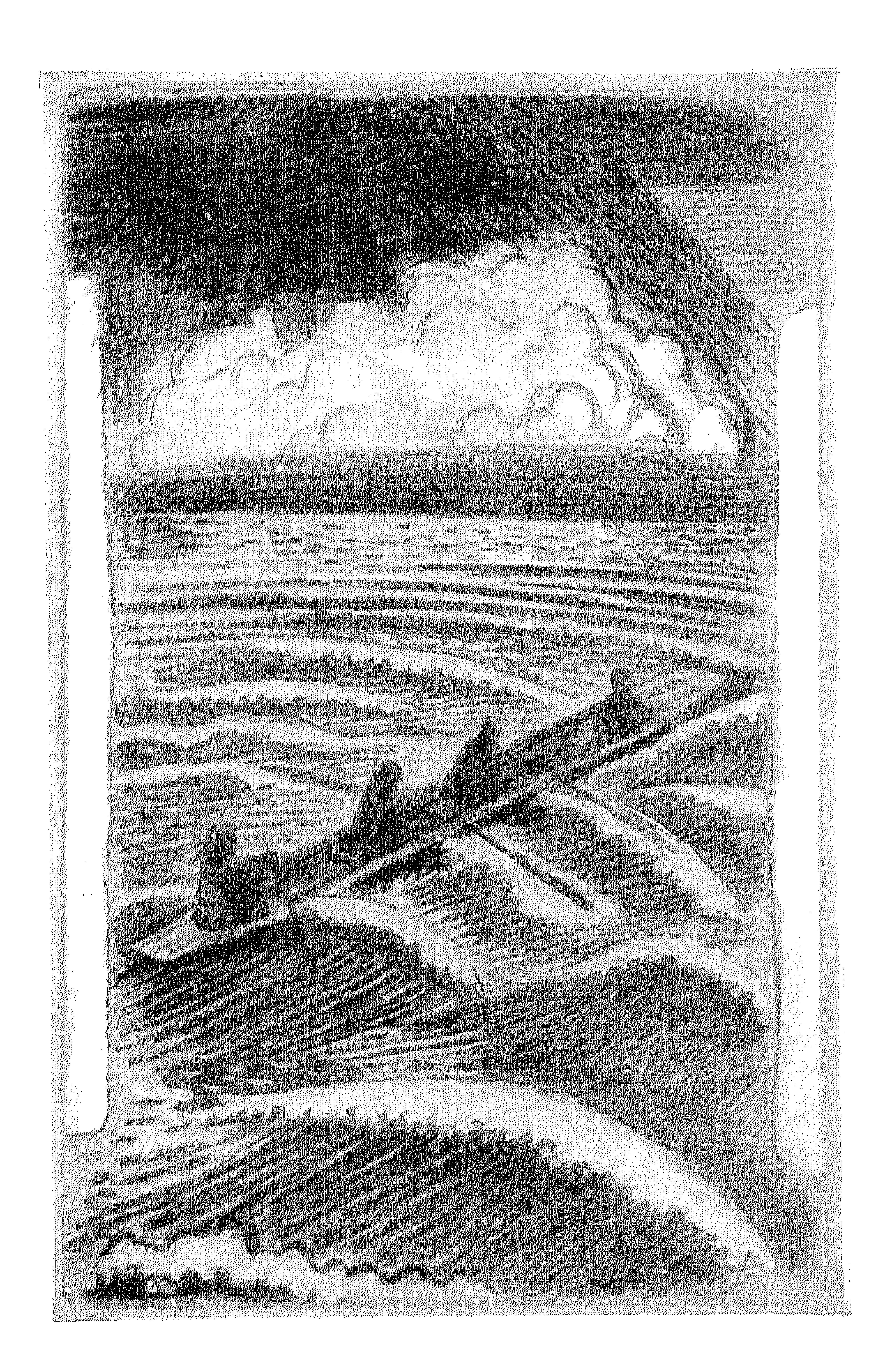
وحتى في هذا الظرف فقد امر اورجان بترتيب الامور في الزورق الى حد ما . فنزحوا بقايا المياه من قاع القارب حتى لا يخوضوا فيها باقدامهم . واجلس كيريسك بجواره في مؤخرة القارب لكي يشعر الصبي بالدفء في كنفه ، ولكي تجف ملابسه اسرع . ووزع الماء على الجميع بالتساوي . في البداية اعطى لكل منهم ثلاثة ارباع مغرفة ، فبعد الليلة العاصفة كان لا بد ان يرتووا ولو مرة .

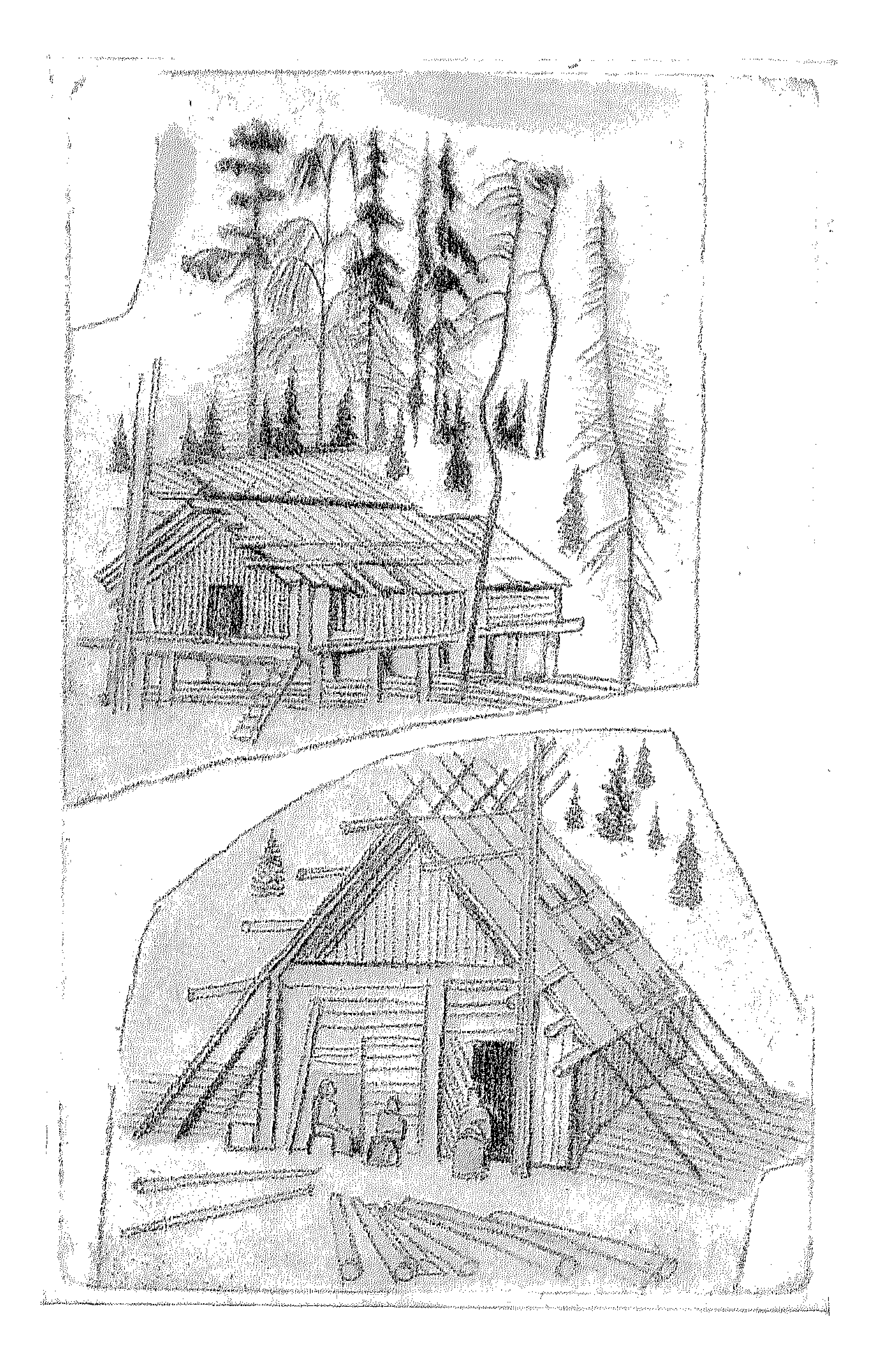
رسوم قصة
«الكلب الابلق الراكض
عند حافة البحر»
بريشة الفنان
يوری کوبیکا



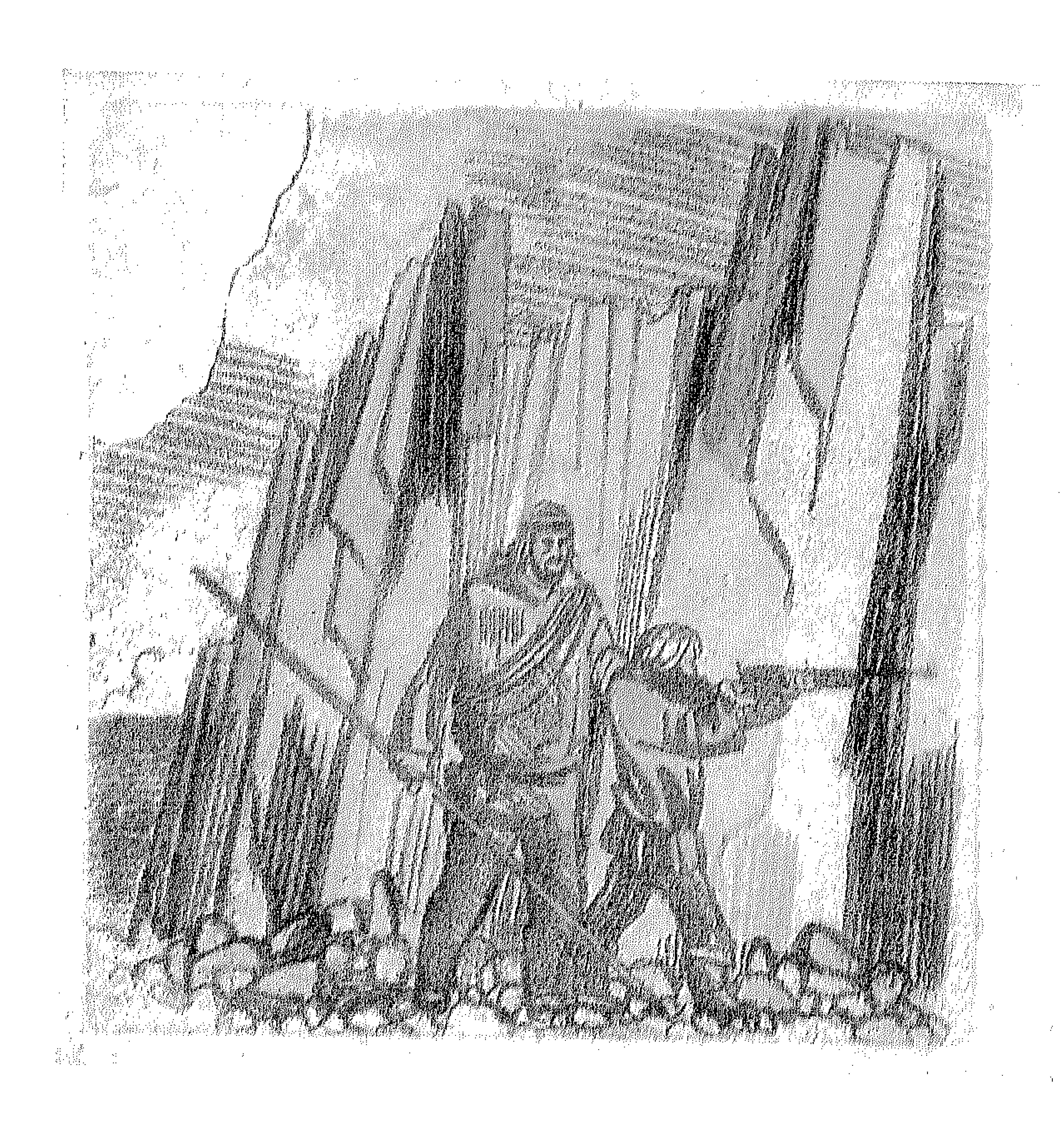










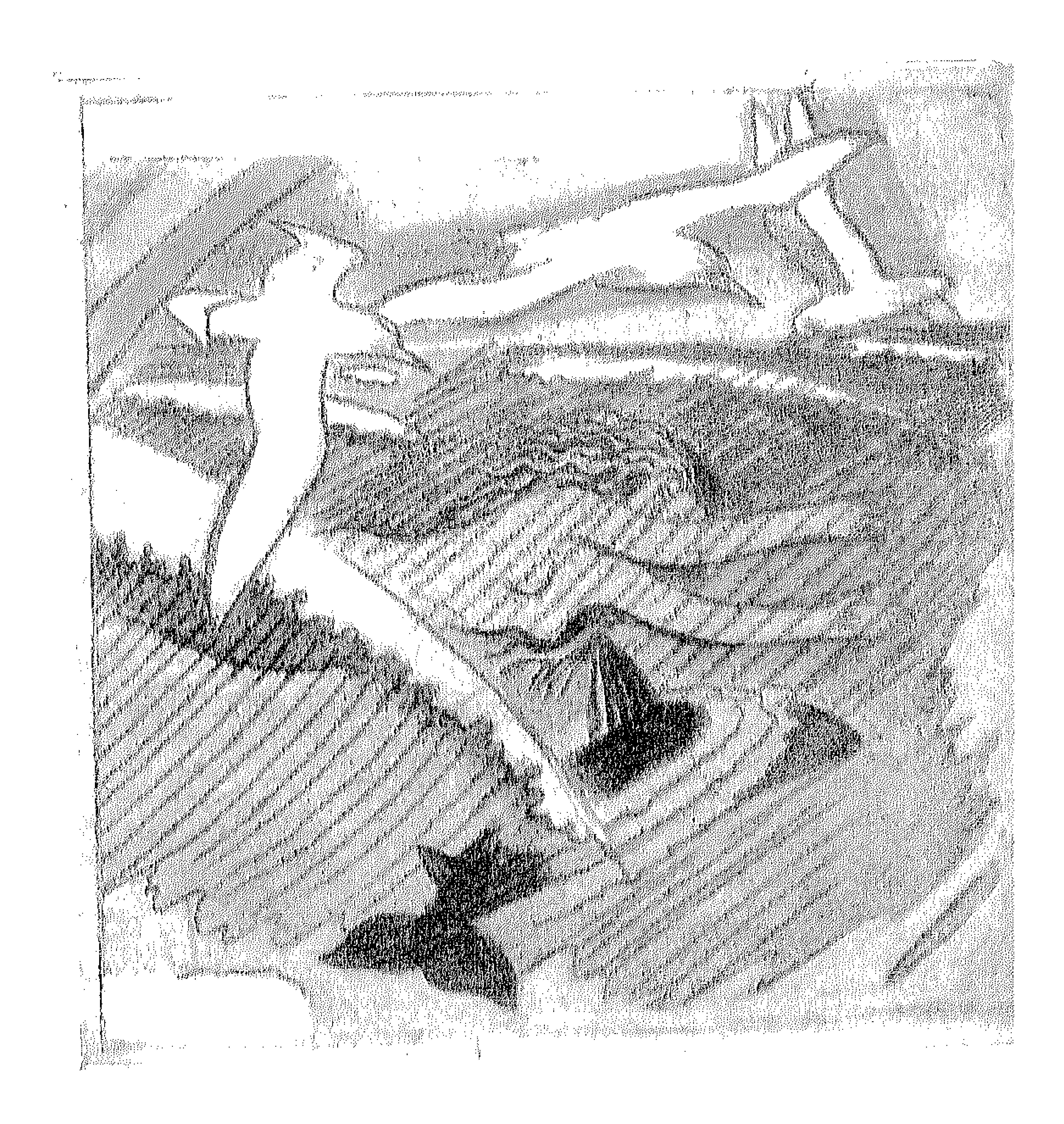


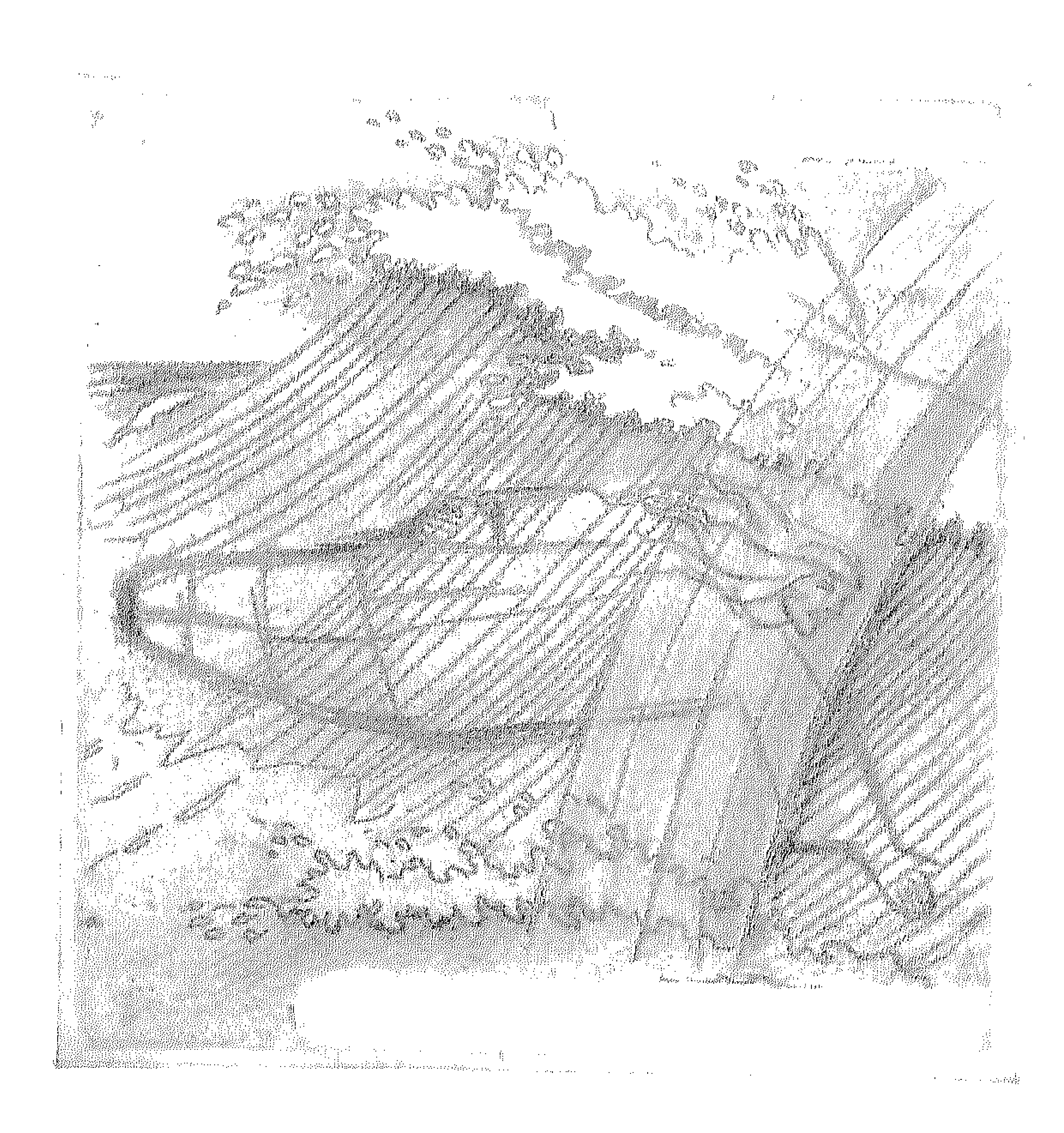




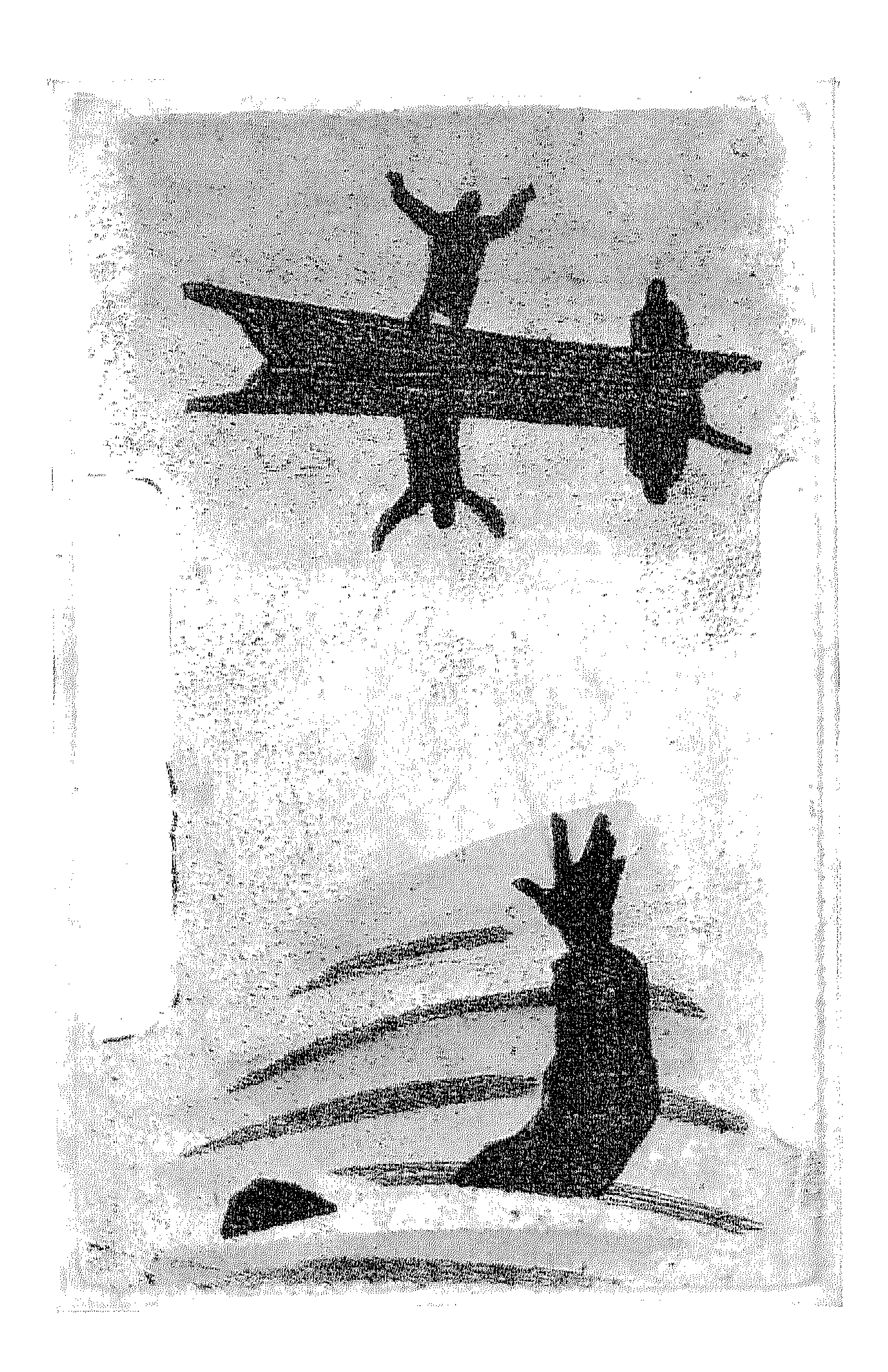




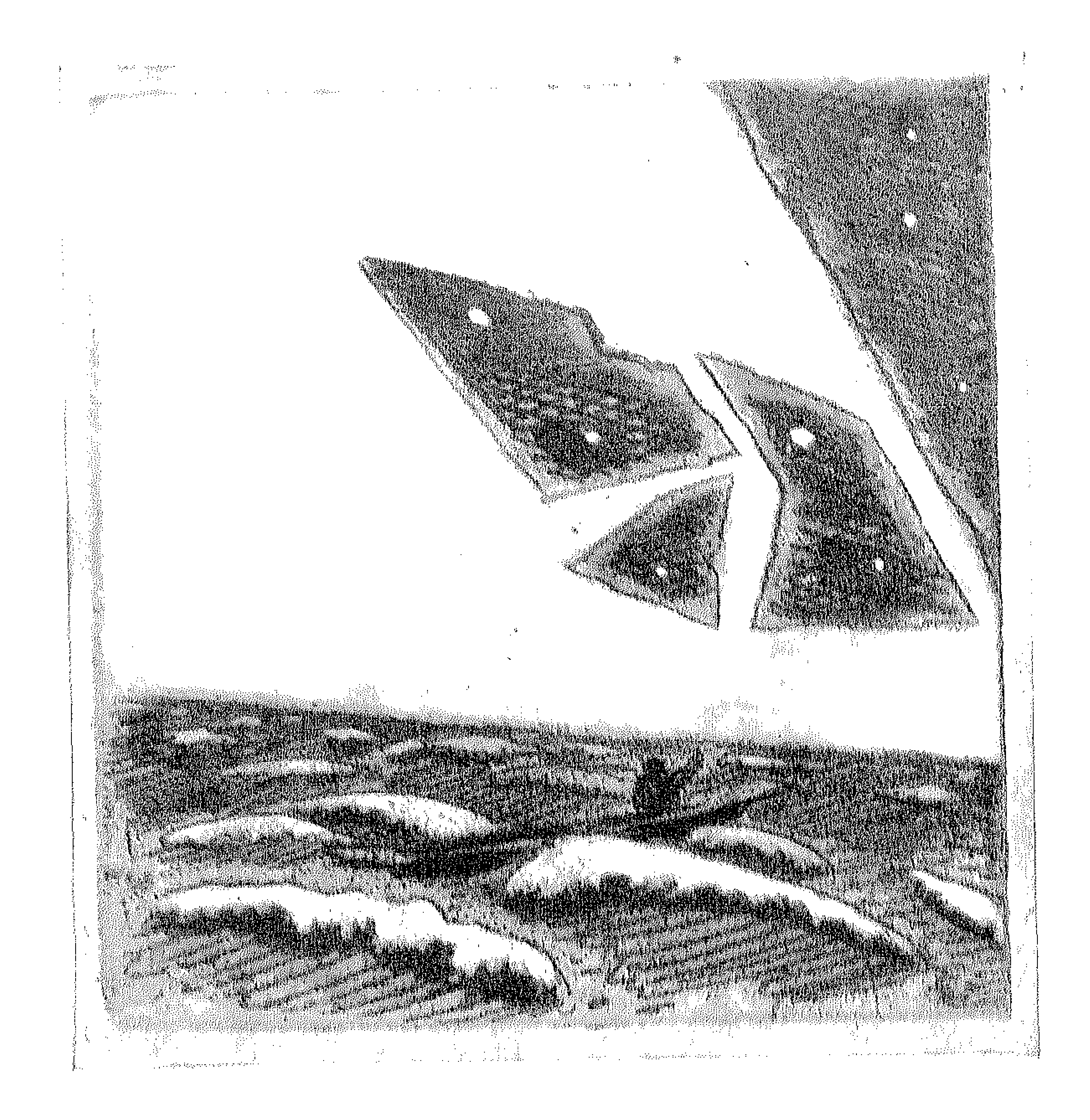














ولكنه نبههم الى انهم لن يشربوا بعد الآن الا اذا وجد هو ذلك ضروريا ، ولن يشربوا الا بالقدر الذى سيحدده . ولمزيد من الاقناع رج الوعاء . . كان نصفه فارغا .

وابتسم لهم الحظ صدفة . . فعندما شرعوا فى توزيع الماء ، وجدوا خلف الوعاء ، فى اقصى مؤخرة القارب تحت المقعد كيسا من جلد الفقمة به سمك مملح . كانوا قد القوا كيس الطعام الكبير فى البحر مع غيره من الاشياء ، اما هذا الكيس الصغير الذى اعدته زوجة ميلجون للطريق ، فقد بقى بالصدفة فى مكانه ، لانه كان تحت المقعد ، خلف الوعاء الذى عهد الى كيريسك بالمحافظة عليه مهما كلف الامر . صحيح ان الكيس كان مملوءا بماء البحر ، ولم يكن من الممكن تذوق السمك المملح لشدة ما تشبع بملح البحر فوق ما فيه من ملح . ولكنهم على اية حال اصبحوا يملكون طعاما . ولو كان لديهم من الماء ما يكفى لكان هذا السمك مناسبا تماما .

ولكن احدا لم يمد بعد يده اليه خوفا من الظمأ . . .

كانوا جميعا ينتظرون شيئا واحدا : ان ينقشع الضباب . . .

وفى الجمود الضبابى الصامت التام لم يتردد الا صرير مفاصل المجاذيف الكئيب . وبدا هذا الصرير وسط السكون العظيم اشبه بأنين متحشرج ضارع لانسان تائه : انا اين ؟ انا اين ؟ والى اين ؟

كانوا جميعا ينتظرون شيئا واحدا : ان ينقشع الضباب . . .

* * *

لكنه لم ينقشع ، ولم يبد فى نيته انه سينقشع . لم يكن يتحرك . وبدا كأن شيئا رهيبا لا يعقل ، كائنا خرافيا من عالم آخر ، ينفث رطوبة قارسة قد ابتلع الكون كله : الارض والسماء والبحر . . .

ومن جديد ولد الليل فى رحم الضباب . وكان من الممكن الحكم على ذلك من ازدياد الظلمة . ولم يكن ثمة اثر للسماء او النجوم فوقهم .

ولم يعد هناك معنى للسباحة بالقارب لمجرد السباحة .

كانوا ينتظرون ويأملون ان تظهر النجوم فى السماء . كانوا ينتظرون ظهورها فى كل لحظة . وكانوا ينتظرون ان تهب الريح

لتطرد هذا الضباب البغيض الملعون . ولم يناموا . واتجهوا برجائهم الى روح السماء لكى تكشف الغطاء عن قبة السمـــاء ، ورفعـــوا ضراعتهم الى سيد الرياح ، الوحش ذى اللبـــدة النافرة ، بـــأن يستيقظ من نومه هناك وراء البحر .

ولكن بلا جدوى . فلم يسمع احـــد توسلاتهم ولم ينقشـــع الضباب .

وكان كيريسك ايضا ينتظر ظهور النجوم . هذه النجوم التى كانت تلمع عادة فى السماء كاللعب ، اصبحت الآن احوج ما يحتاج اليه . لقد زلزل ما وقع بالامس الصبى والقى فى قلبه بالرعب . فليس اسهل من ان تتحطم نفس الطفل وتنسحق الى الابد . الا ان وجود ثلاثة من الكبار فى قارب واحد معه ، وصمودهم رغم الخطر العام المميت ، عندما بدا ان نهاية رحلتهم حلت ، وتغلبهم على قوى الطبيعة المسعورة . . قد عزز فى قلبه الامل بأنهم سيجدون طريق الخلاص فى هذه المرة ايضا . كان مؤمنا تماما بأنه ما ان تظهـــر النجوم فى السماء حتى تنتهى متاعبهم .

وراح يضرع بأن يحدث ذلك بسرعة ، حتى يعودوا بسرعة الى اليابسة ، الى الكلب الابلق ، بسرعة ، بسرعة ، بسرعة ، لأنه كان عطشان ، كان العطش لا يطاق ، ومع مضى الوقت ازدادت حـــدة الرغبة فى الشرب والاكل ، وفى العودة الى البيـــت ، الى الأم ، الى الأقارب ، الى الدور والدخان والجداول والعشب . . .

قضى المساكين ليلهم فى انتظار ممض ، لكن شيئا لم يتغير . . لم يتزحزح الضباب من مكانه ، ولم تظهر النجوم فى السماء ، وظل البحر ملفعا بالظلام .

وعانوا طوال الليل من الظمأ والبرد والبلل ، الا ان الرغبة فى الشرب كانت أقوى من كل شىء آخر . وربما ظن كيريسك انه هـــو وحده الذى يعانى العطش ، ولكن الآخرين كانوا مثله فى المعاناة . بيد انه كان أكثر منهم رغبة فى الشرب ، وكان هذا يعذبه .

ولكن الشيخ اورجان لم يعطهم ماء حتى عندما طلب كيريسك قليلا منه . قال له بحزم :

— لا . . لن نشرب الآن . اصبر .

وآه لو كان العجوز اورجان يدرى كم يود كيريسك ان يشرب

بعد السمك المملح الذى اضطروا الى اكله ، هو وابوه وميلجون ، من شدة الجوع فى آخر النهار . ورغم انهم شربوا بعده قليلا من الماء فقد كان ذلك غير كاف . وبعد فترة عاد الظمأ يعذبهم اكثر من ذى قبل . اما العجوز اورجان فلم يقرب السمك المملح ، بل غالب نفسه ، ولم يشرب ايضا ، لم يذق قطرة لكى يقتصد فى الماء . شربوا فى ذلك اليوم مرتين : فى الصباح ، وفى المساء ، ما عدا اورجان . شربوا فى المساء قليلا . . مجرد قطرات فى قعر المغرفة . بينما تناقصت المياه فى الوعاء .

وكلما استبد بهم الظمأ الحارق اصبح انتظار تغير الجو عذابا مضاعفا .

هكذا استمر الحال طوال الليل . . وطوال الليل جثم الضباب الخامد البارد . ولم يتحرك البحر . . .

* * *

وفى الصباح لم يحدث اى تحول . . اللهم الا ان اعماق الضباب الرمادية الداكنة اشرقت قليلا واتسعت بعض الشيء . اصبح من الممكن الآن تمييز الوجوه والاعين . وعلى بعد عدة اذرع من القارب تراقصت كتلة المياه الراكدة الثقيلة كالزئبق بلون فضى كاب . لم ير كيريسك فى حياته مياها راكدة الى هذا الحد .

ولا أثر لريح ، ولا اشارة الى تحول .

وفى ذلك الصباح ذهل الصبى من التحول الشديد الذى اصاب وجوه الكبار . لقد غارت خدودهم بشدة ، واكتست بشعر قصير خشن ، وانطفأ بريق العيون واحاطت بها دوائر سوداء ، كأنما اصابهم مرض فتاك . حتى ابوه ، القوى الواثق من نفسه ، تغير كثيرا . لم يبق فيه كما هو الا لحيته . كانت شفتاه سوداوين ممزقتين من الكز عليهما . وكان يتطلع الى كيريسك بشفقة رغم انه لزم الصمت ولم ينطق بكلمة . اما العجوز اورجان فقد اصبح اكثرهم ضعفا . تهدلت كتفاه ، وازداد شيبه بياضا ، واستطال عنقه ذو الحرقدة ، ودمعت عيناه اكثر من ذى قبل . ولم يبق من اورجان السابق الا نظرته . . ظلت نظرة

الشيخ الحكيمة الصارمة تنطوى كما فى السابق على معانى هامة لا يعرفها الا هو وحده .

بدأ النهار بأقسى الامور . . بتوزيع بضع جرعات من المياه . وكان اورجان هو الذى يصب . اطبق على الوعاء تحت ابطه ، وراح يصب منه الماء خيطا دقيقا فى قعر المغرفة ، وكانت يداه اثناء ذلك ترتعشان بشدة . واعطى كيريسك اول الجميع ، فاختطف هذا المغرفة بلهفة ، واخذت اسنانه تصطك بحافتها ، وشعر للحظة واحدة وهو يتجرع الماء بالرطوبة تسرى فى داخله وبحمى الظمأ تهدأ ، وبرأسه يدور من الانفعال . ولكن ما ان اعاد المغرفة حتى عادت الحمى ثانية كما فى السابق بل اشد ، كأنما كان فى داخله وحش اثاروا ثائرته . ومن بعده شرب ميلجون ، ثم امرايين . كان منظرهما مرعبا وهما يشربان . اطبقا على المغرفة بايد مرتعشة ، واعاداها دون ان ينظرا الى وجه اورجان ، وكأنه هو المذنب فى قلة الماء . اما اورجان نفسه ، فعندما جاء دوره ، لم يصب لنفسه قطرة . سد الوعاء فى صمت . وبدا ذلك لكيريسك مستحيلا . فلو كان الوعاء بين يديه لصب لنفسه مغرفة كاملة ، ثم ظل يشرب ويشرب الى ان يسقط مغشيا عليه . وليكن بعدها ما يكون . المهم ان يشرب مرة حتى يرتوي . اما العجوز اورجان فقد حرم على نفسه حتى ما هو من حقه . امتنع عن شرب قطرات فى قعر المغرفة .

واخيرا لم يطق امرايين صبرا فقال بصوت ابح وهو يغالب نفسه :

— لماذا يا جدى ! صب لنفسك مثل الجميع ! بالأمس ايضا لم تشرب . اذا كنا سنموت فلنمت معا !

فأجاب اورجان بهدوء :

— لا تهتموا بى !

فرفع امرايين صوته :

— كلا ، هذا ليس صحيحا — واضاف بعصبية : واذن فلن اشرب انا ايضا !

فقال اورجان بمرارة :

— وهل هناك ما يشرب ! ما الداعى للكلام ؟

وهز رأسه قليلا وكأنه يقول : يا لكم من حمقى ، ونزع

السدادة ثانية ، وصب قطرات وقال – فليشرب كيريسك بدلا منى .
وارتبك الصبى ، وصمت الجميع . ومد اورجان المغرفة اليـــه قائلا :
– خذ يا كيريسك ، اشرب . لا تفكر فى شىء .
وصمت كيريسك .
– اشرب . . – قال له ميلجون .
– اشرب . . – قال له امرايين .
– اشرب . . . – قال العجوز اورجان .
تردد كيريسك . كان يموت من العطش ، وبوده لو افرغ فى جوفه هذه القطرات ، ولكنه لم يجرؤ .
وقال مغالبا الرغبة المعربدة فى جوفه :
– لا ، لا يا جدى ، اشرب انت .
واحس بدوار .
ارتعشت ذراع اورجان من هذه الكلمات ، فزفر زفرة عميقة . ورقت نظرته وهى تداعب الصبى برضاء .
– أتدرى كم شربت فى حياتى . . اما انت فيجـــب ان تعيش طويلا لكى . . . – ولم يستطع ان يكمل – هل فهمتنـــــى يـــــا كيريسك ؟ اشرب ، هذا ضرورى ، عليك ان تشرب ، ولا تهتـم بشأنى . خذ !
ومن جديد لم يشعر الا للحظة واحدة وهو يتجرع الماء بالرطوبة تسرى فى داخله ، وبحمى الظمأ تهدأ ، وعلى الفور عاودته الرغبة فى الشرب . وفى هذه المرة احس فى فمه بمذاق الماء العفن . ولكن لم تكن لذلك اية اهمية . المهم ان يوجد الماء ، ايا كان ، شرط ان يكون عذبا . بينما كانت المياه تتناقص . . .
وقال اورجان مخاطبا بنى قومه :
– والآن ما العمل ؟ هل نمضى ؟
حل صمت طويل . وتطلعوا جميعا حولهم ، بيد انه لم يكن فى الدنيا شىء سوى سد الضباب على بعد ذراعين من القارب .
وتنهد امرايين وقطع حبل الصمت قائلا :
– والى اين نمضى ؟
ولكن ميلجون احتد فجأة ولسبب ما :

— ما معنى الى اين نمضى ؟ سنمضى ، فالأفضل ان نمضى من ان ننفق فى مكاننا !

وقال امرايين معارضا :

— وما الفرق ؟ ما الفرق بين ان نمضى او لا نمضى ؟ لا فرق فى ظل هذا الضباب .

فقال ميلجون بمزيد من التحدى :

— اننى ابصق على هذا الضباب ! مفهوم ؟ سنمضى والا قلبت رأسا على عقب هذا القارب الملعون ولنكن طعاما للسمك ! هل فهمتنى يا امرايين ، سنمضى ! هل فهمت ؟ . .

جاشت نفس كيريسك اضطرابا ، وشعر بالخجل من سلوك عم ميلجون . لم يكن تصرفه لائقا ، فهو على اى حال اصغر من ابيه . اذن فقد اهتز فيه شىء ما واختل ، ام ان الخلل اصابهم او ما يمثلونه هم الاربعة فى هذا القارب . اطرق الجميع فى صمت وحزن . وصمت ميلجون ايضا وانفاسه تتعالى فى صخب . ونكس امرايين رأسه . اما العجوز اورجان فكان ينظر الى جهة ما ولا ينم وجهه عن شىء ، مثل هذا الضباب الذى احاطهم بجدار اصم من جميع الجهات .

واخيرا قال امرايين :

— اطمئن يا ميلجون ، لم اكن اقصد شيئا . طبعا الافضل ان نمضى بدلا من الوقوف فى مكاننا . انت محق ، هيا نمضى .

وتحركوا . وصرت مفاصل المجاذيف من جديد ، وعادت المجاذيف ترتفع وتنخفض بضربات خفيفة ، وينفسح الماء من امام القارب بلا صوت ، ثم يضم اطرافه من خلفه على الفور بلا اثر . وساد انطباع بأنهم لا يتحركون بل واقفون فى مكانهم . فمهما تقدموا كان الضباب يحيط بهم كأنهم يدورون فى حلقة مفرغة . وربما كان ذلك هو الذى اثار ثائرة ميلجون من جديد . فقال بعصبية :

— اننى أبصق على ضبابك يا امرايين ، أتسمعنى ؟ وأريد ان نمضى اسرع . هيا تحرك ، جذف ، لا تنم ، أتسمع ؟ اننى ابصق على ضبابك !

وانكب ميلجون على المجاذيف بقوة وحدّة . وراح يطالب امرايين :

— هيا ، هيا ! جذف ، جذف !

ولم يشأ امراييين ان يثير حنقه ، ولكنه احس بالاهانة . ومع ذلك انهمك فى هذه اللعبة الجنونية .

ازدادت سرعة القارب . ومضى يخترق الضباب بقفزات دونما غاية او داع . وراح ميلجون وامراييين يجذفان بوحشية دون ان يتخلف احدهما عن الآخر ، وبقسوة جنونية وكأنما كان بوسعهما ان يسبقا الضباب ويفلتا من نطاقه اللامحدود .

ومضت زعانف المجاذيف وهى تنثر الرذاذ المائل ، وطرطشت المياه بجوار القارب ، وكان وجها المجذفين المبللان بالعـــرق المكشران عن انيابهما يميلان ويرتدان ، وجسداهما تارة ينحنيان ويتقوسان وهما يقذفان بالمجاذيف ، وتارة اخرى يستقيمان بحدة ويرتكزان بالمجاذيف فى الماء . . .

تارة شهيق ، وتـــارة زفير . . شهيق ، وزفير . . شهيق وزفير . . .

والضباب امامهم ، والضباب خلفهم ، والضباب من حولهم .

وراح ميلجون يشجع وكأنه يبصق صارخا :

— هيا ! هيا !

وفى البداية تحمس كيريسك ، وصدق وهم الحركة . ولكنـــه سرعان ما ادرك كم ان ذلك بلا جدوى ورهيب . وتطلع الصبـــى بخوف الى العجوز اورجان منتظرا منه ان يوقف هذا السبـــاق الجنونى . ولكن كان يبدو ان العجوز غير حاضر هنا ، فقد كانت نظراته تهيم فى مكان ما بعيد ، وارتسم على وجهه تعبير انفصام . وكان وجهه مبللا ولم يكن معروفا هل كان يبكى ام ان عينيـــه تدمعان كالعادة . كان جالسا فى مؤخرة القارب بلا حراك وكأنما لا يشعر بما يجرى .

ومضى الزورق يخترق الضباب دونما غاية او داع . . .

وترددت فى الضباب الصيحة اليائسة :

— هيا ، هيا . . هيا ، هيا !

واستمر ذلك طويلا . ولكن تدريجيا بدأ المجذفان يهنـان ، وبالتدريج تناقصت سرعة القارب ، واخيرا نكسا المجاذيف وقـد تعالت انفاسهما وهما يكادان يختنقان . ولم يرفع ميلجون رأسه .

وهكذا جاءت الصحوة المريرة . لم يسبقوا الضباب ، ولم يفلتوا من مداه ، وبقى كل شيء كما كان : المياه الساكنة ، والمجهول ، والظلام الشامل السادر . وظل القارب يتقدم بعض الوقت ويدور بقوة الاندفاع الذاتى . . .

لماذا فعلا ذلك ؟ ما الداعى ؟ وهل كانوا سيكسبون شيئا لو ظلوا مكانهم ؟ ايضا لا شيء .

كان كل منهم على الارجح يفكر فى ذلك . وعندئذ قال اورجان :

— اصغوا الى اذن . . . — وراح يتفوه بكلماته على مهل ، ربما توفيرا لقواه ، فهو لم يشرب ولم يأكل لليوم الثانى — ربما يستمر هذا الضباب اياما كثيرة . يحدث ذلك احيانا ، كما تعلمون . قد ينتشر الضباب فوق البحر سبعة ، او ثمانية ، او حتى عشرة ايام ، كالوباء فى الاقليم ، كالمرض الذى لا يذهب الا حين يحين الأوان . وما هو هذا الحين ؟ لا احد يعلم . واذا كان هذا الضباب من ذلك النوع فمعنى ذلك ان مصيرنا صعب . لم يبق من السمك المملح الا قليل ، كما انه بلا فائدة بدون الماء . وهذا ما لدينا من الماء ! — وهز الوعاء فترجرج الماء فيه بحرية فوق قعر الوعاء بقليل .

لزم الجميع الصمت . وصمت العجوز ايضا . كان جليا لهم جميعا ما كان ينبغى قوله : لن يشربوا الا مرة واحدة فى اليوم قطرات قليلة لكى يطيلوا امد بقائهم ، ولكى يستطيعوا ، ان امكن ، الصبر والتغلب على الضباب . فاذا صفا البحر وانكشفت النجوم او الشمس فى السماء ، فعندئذ ينظرون ، فربما حالفهم الحظ ووصلوا الى البر .

نعم ، هكذا كان حالهم ، ولم يكن هناك حل آخر ! ولكن ما أسهل القول بالصبر ، وما يقبله عقل الانسان كثيرا ما يرفضه جسده . كانوا يريدون الآن ان يشربوا ، فورا ، وليس قطرات فى القعر ، بل الكثير والكثير من الماء .

كان اورجان يدرك ان وضعهم لا امل فيه ، وكان يعانى ذلك اكثر من الآخرين . لقد جف عوده بسرعة ، ومع كل ساعة كان وجهه البنى الداكن المخدد بالتجاعيد والثنايا يزداد سوادا وتحجرا من

شدة الألم المتصاعد من جوفه . وظهر فى عينيه الدامعتين بريــق محموم متوتر ، فقد كان من الصعب على العجوز ان يجبر نفسه على تحمل هذه الآلام . ولكنه ظل محافظا على رباطة جأشه وصامدا كما تصمد الشجرة المحتضرة متشبثة بجذورها . الا ان ذلك لم يكن من الممكن ان يستمر طويلا . فكان من الضرورى ان يقول لهم كل ما يمكن ان تكون له اهمية ولو ضئيلة بالنسبة لنجاتهم .

ومضى يقول :

— اعتقد انه ينبغى علينا ان ندقق النظر ونصيخ السمع الى الجو ، اذ ربما مرت فجأة بومة «أجوكوك» * .انها الطائر الوحيــد الذى يطير فوق البحر فى هذه الفترة . فاذا كنا الآن بين البر وبعض الجزر ، فان اتجاه طيران «أجوكوك» يمكن ان يدلنا على الطريق . فأى طير لا يطير فوق البحر الا فى خط مستقيم . لا يحيد يمينا او يسارا ، بل يمضى مباشرة .و«أجوكوك» ايضا .

فسأل ميلجون عابسا دون ان يرفع رأسه :

— واذا لم نكن بين البر والجزر ؟

فأجاب اورجان بنفس هدوئه السابق :

— عندئذ فلن نراها ابدا .

واراد كيريسك ان يستوضح عن السبب فى تحليق «أجوكوك» فوق البحر ، فما الذى يدفعها الى ذلك ، لكن ميلجون سبقه وسأل بسخرية مرة :

— واذا نسيت «أجوكوك» ان تطير فوقنا يا جدى ؟ ماذا لــو عنّ لها ان تطير بعيدا ، هناك ، فما العمل اذن ؟

فأجاب اورجان بنفس الهدوء :

— عندئذ فلن نراها ابدا .

فقال ميلجون بدهشة وغضب :

— اذن لن نراها ؟ يعنى فى هذه الحالة او تلك لن نــــرى أجوكوك ؟ — وازداد ميلجون غضبا وهو يدمدم — ما الذى يجعلنا اذن نبقى هنا ؟ اننى اسألكم .

ثم قهقه بصوت عال وسكت . وجاشـــــت نفوسهم جميعـــــا

---

* «اجوكوك» هى البومة القطبية .

بالاضطراب ، وخيم الصمت عليهم وهم لا يدرون ماذا يفعلون .

اما ميلجون فكان قد قرر أمرا . ضرب براحته المجذاف فخلعه من المفصلة ، ولأمر ما صعد على مقدمة القارب ووقف هناك بطول قامته وهو يحفظ توازنه بالمجذاف . ولم يقل له احد شيئا . اما هو فلم يعر احدا اهتماما .

وصرخ فى عنفوان غضبه :

– اسمع يا ابن العاهرة ! يا كاهن الريـــاح ! ورفـــع المجذاف مهـــددا وصـــاح باعلى صوتـــه فى الظـــلام الضبابى – اذا كنت سيد الرياح حقا ولست جيفـــة كلب فأين رياحك ؟ أم انك نفقت فى عرينك ، يا ابن العاهرة ، ام أن ذكور كلاب الدنيا كلها احاطت بك فلا تدرى أتعطى مؤخرتك لبعضهـــا ام تتركها لها جميعا ، ولا وقت لديك لتطلق الرياح ، ام انك نسيت يا ابن العاهرة اننا نهلك هنا فى الضباب كأننا فى حفرة ؟ ام انك لا تعرف ان معنا صبيا صغيرا ، فكيف لا ترى ؟ انه يريـــد ان يشرب ، يريد ماء ! ماء ، أتفهم ؟ اقول لك معنـــا صبى صغير ، لأول مرة فى البحر ! فكيف تعاملنا هكذا ؟ ! هل هذا يليق ؟ اجبنى اذا كنت سيد الرياح ولست روث فيل بحر نتن ! ارسل رياحك ، أتسمع ؟ خذ ضبابك وضعه تحت ذيلك . . هل تسمعنى ؟ ارسل علينا عاصفة يا ابن العاهرة ، لتكن ارهب عاصفة ! ارسل علينا رياح تلانجى – لا ، ألق بنا فى البحـــر ولتدفننا الامواج يا ابن العاهرة ! هل تسمع ؟ أتسمعنى ؟ اننى ابصق واتبول على سحنتك الكريهة ! اذا كنت سيد الرياح فلترسل علينا عاصفتك ، ولتغرقنا فى البحر ، واذا لم تفعل فأنت احقر عاهرة ، وأنا ذكر من ذكـــور الكلاب التى احاطت بك ، لكنى لن اطأك ، فلتمت بغيظك . . خذ ، خذ ، خذ !

بهذا السباب المقذع وبخ ميلجون كاهن الرياح الموجود فى مكان لا يعلمه احد والذى يخفى الرياح المرهونة بأمره فى مكان لا يعلمه احد . وظل ميلجون يصيح طويلا حتى بح صوته وخارت قواه وهو يثور ويتهكم ويهين سيد الرياح وفى الوقت نفسه يتوسل منـــه ريحا .

ثم القى بالمجذاف فى البحر بكل قوته ، وجلس فى مكانـــه

السابق وانفجر فجأة بنحيب عال رهيب وقد دس وجهه بين راحتيه . وصمت الجميع فى عجز ، بينما راح ميلجون وهو يشهق بالبكاء يصيح باسماء ابنائه الصغار ، اما كيريسك ، الذى لم ير ابدا رجلا يبكى ، فقد ارتعد بدنه من الخوف ، وقال مخاطبا اورجان والدموع تطفر من عينيه :

— يا جدى ، يا جدى ، لماذا يقول ذلك ؟ لماذا يبكى ؟

فقال العجوز مهدئا الصبى وضاغطا على يده :

— لا تخف ! سيهدأ ! قريبا سيسكت . اما انت فلا تفكر فى ذلك . هذا لا يخصك . سيهدأ .

وبالفعل اخذ ميلجون يهدأ شيئا فشيئا ، الا انه لم يرفع وجهه عن راحتيه وهو يجهش وكتفاه تختلجان . وساق امرايين القارب ببطء الى المجذاف العائم ، وشده الى القارب ، ثم رفعه ووضعه فى المفصلة ، كما كان .

وقال امرايين بعطف :

— اهدأ يا ميلجون . انت محق ، فالأفضل ان تهب العاصفة على ان نتخبط فى الضباب . ولكن لننتظر قليلا ، فربما صفا البحر . ماذا نفعل . . .

لم يجب ميلجون بشىء . واخذ رأسه يتدلى أكثر فأكثر ، وجلس مقوس الظهر كمجنون يخشى النظر امامه .

بينما ظل الضباب كما كان معلقا فوق المحيط بلامبالاة وسكون مخفيا العالم فى ظلام عظيم جامد . ولم تكن هناك اية رياح او ادنى تغيير . ورغم كل التوسل والسباب واللعنات التى وجهها ميلجون الى كاهن الرياح فقد ظل هذا اصم معرضا عن كل ذلك . بل انه حتى لم يغضب ، ولم يتحرك ، ولم يرسل عليهم عاصفة .

وراح امرايين يجذف بهدوء بزوج مجاذيفه حتى لا يبقوا فى مكانهم ، فانزلق القارب فى الماء بصورة لا تكاد تلحظ . وصمت اورجان منفردا بأفكاره ، وربما كان يفكر مرة اخرى ، ربما لآخر مرة فى حياته ، فى حورية البحر .

لكن كيريسك اخرجه من خواطره الكئيبة سائلا بصوت خافت :

— يا جدى ، يا جدى ، ولماذا تطير «أجوكوك» الى الجزر ؟

– آه ، نسيت ان اخبرك . فى مثل هذا الضبـــاب الكبير لا يستطيع ان يطير فوق البحر الا «أجوكوك» . انها تطير الى الجـزر للصيد ، واحيانا تخطف اولاد الفقمات الصغار . فلدى «أجوكوك» عيون ترى فى الضباب وفى الظلام مثلما فى النهار ، فهى بومة . انها اكبر واقوى بومة .

وهمس كيريسك بشفتين جافتين :

– لو ان لى مثل هذه العيون لعرفت الآن الى اية جهة ينبغى ان نمضى ، ولوصلنا الى البر بسرعة ولأخذنـــا نشرب ، نشرب كثيرا ولمدة طويلة . . . لو ان لى مثل هذه العيون . . .

فتنهد اورجان قائلا :

– ايه . . لكل عيونه التى اعطيت له .

وصمتا . وبعد فترة طويلة قال العجوز وهو يحدق فى وجـــه الصبى وكأنه يعود الى الحديث السابق :

– هل تعانى كثيرا ؟ فلتصبر . اذا صمدت فستصبح صيادا عظيما . اصبر يا حبيبى ، لا تفكر فى الماء ، فكر فى شىء آخر . لا تفكر فى الماء .

وحاول كيريسك باخلاص الا يفكر فى الماء . ولكنه لم يستطع . وكلما جاهد كى لا يفكر ازدادت رغبته فى الشرب . وشعر بجـــوع شديد الى درجة الغثيان . ولهذا كان يود ان يصرخ فى الدنيا كلها كما فعل ميلجون .

هكذا انقضى ذلك اليوم . ظلوا طوال الوقت ينتظرون ويؤملون بأن يسمعوا عن بعد صوت الامواج ويهب نسيم بليل فيدفع امامه الضباب الى الطرف الآخر من العالم ويفتح امامهم الطريق الى النجاة . ولكن البحر لفه السكون . . سكون ثقيل لا يتزحزح خانق الى درجة الألم فى الرؤوس والآذان . وطوال الوقت ، وباستمرار ، وبلا نهاية سيطرت عليهم الرغبة فى الشرب . وكان فظيعا ان يشرفوا على الهلاك عطشا وسط محيط من المياه بلا شطآن .

فى المساء ساءت حالة ميلجون . كف عن الكلام تماما واصبحت نظراته زائغة بلا معنى . واضطر اورجان ان يصب له قليلا مـن الماء ليبلل حلقه . وعندما نظر اورجان الى كيريسك الذى لم يستطع ان يحول عينيه عن المغرفة ، لم يتمالك نفسه وصب له قطرات فى

قعر المغرفة ، ثم صب لامرايين ايضا . اما هو فلم يـذق قطرة . وبعد ان وضع الوعاء بما تبقى فيه من ماء تحت المقعد ، جلس طويلا بلا حراك ، مستغرقا في التفكير ، صافي النفس بصورة خاصـة ، مشغولا بأفكار اخرى سامية ، وكأنما لا يعاني مـن اى عطش ولا تضنيه اية احتياجات جسدية . كان جالسا في مؤخرة القارب صامتا ، رزينا ، كصقر وحيد على قمة صخرة . كان يعرف ما الذى سيقدم عليه ، ولهذا هيأ نفسه محافظا على بقية قواه قبل ان يقوم بآخر عمل في حياته . وفي هذه الساعة افتقد الغليون كثيرا . لقـد اراد العجوز ان يشعل الغليون وينفث دخانه قبيل النهاية وهو يحلـق بأفكاره معها ، مع حورية البحر . . .

اين تسبحين يا حورية البحر العظيمة ؟

كان يعرف نفسه ، ويعرف قدر عزمه وشهامته وهو يواجـه ساعته الاخيرة . الشيء الوحيد الذى منعه حتى الآن من تنفيذ مـا عقد العزم عليه كان كيريسك ، الذى تعلق به خلال هذه الأيام الى هذا الحد وظل طوال الوقت ملتصقا به طلبا للحماية والدفء . كان مشفقا على الصبى ، ولكن من اجله كان يجب ان يقدم على ذلك . . .

هكذا انتهى هذا اليوم الطويل التعيس ، آخر يوم في حياة الشيخ اورجان .

وحل المساء . . حلت ليلة اخرى .

ولكن الطقس ظل كما كان بلا تغير . كان الضباب على نفس الحال من السكون اللامبالى . ومن جديد زحفت ظلمة الليل الصماء ، وكان في انتظارهم ليل رهيب لا يحتمل ، طويل بلا نهاية . ولكن لو ان الريح هبت فجأة خلال الليل ، ولتكن حتى عاصفـة ، ليكن اى شيء ، شريطة ان تنجلي السماء وتظهر النجوم ! الا ان الليل لم يبشر بشيء ، ولم يبد اثر لأية امواج على صفحة البحر ، ولا اية حركـة للرياح . . سكن كل شيء في هدوء وظلام بلا نهاية . ودار القارب الوحيد التائه في الظلام برجاله المعذبين المحتضرين من شدة العطش والجوع ، دار ببطء وسط الضباب والمجهول والضياع . . .

لم يذكر كيريسك بالضبط متى نام . ولكنه ظل يقظا فترة

طويلة وقد عذبه العطش وانهكه . وخيل اليه ان هذا العذاب الذى ينهشه لن ينتهى ابدا . لم يكن يريد سوى الماء ! الماء ولا شيء غيره ! وهدأت حدة الجوع تدريجيا ، واصبحت ألما مكتوما غاص فى الباطن ، اما العطش فقد استعر نارا مضت تتأجج أقوى فأقوى بمرور الوقت . ولم يكن هناك ما يخففها .

وتذكر كيريسك انـــه عندما مرض ذات مرة وهو صغير ، وتفصد منه عرق حار ، احس بما يحســـه الآن من آلام وعطش شديد . ولم تترك امه مجلسها عند رأسه ، وراحت تضع الخرقة المبللة على جبينه الملتهب ، وتبكى سرا وتهمس بأصوات ما . وفى الجو شبه المظلم ، وعلى ضوء مصبـــاح الزيت ، فى الغبش المتراقص تدلى فوقه وجه امه القلق — فقد كان ابوه غائبا فى البحر — وكان كيريسك يريد ان يعطوه ماء ليشرب وان يعود ابوه بسرعة . ولكن لم تتحقق رغبته هذه او تلك . كان ابوه بعيدا ، ولم تقدم له امه الماء وقالت انه لا ينبغى ان يشرب ابدا . واخذت ترطب له شفتيه المجففتين بالخرقة ، ولكن ذلك لم يكن يخفف عذابه الا للحظة . ثم تعاوده الرغبة فى الشرب والعذاب الذى لا يطاق .

وتوسلت اليه امه الا يشرب وراحت تلح فى رجائها قائلة انه يجب ان يصبر ، وعندئذ سيزول المرض .

قالت له :

— اصبر يا حبيبى ، وفى الصباح ستتحسن . ردد فى سرك : «يا فأرا ازرق اعطنى ماء» ، وسترى انك ستشعر بتحسن . اطلب يا حبيبى من الفـــأر الازرق ان يحضر لك ماء . . لكن الح فى الرجاء . .

وفى تلك الليلة راح وهو يغالب العطش يردد تلك الرقية منتظرا ان يأتى الفأر الأزرق حقا ويحضر له ماء ليشرب . وظل يردد متوسلا : «يا فأرا ازرق اعطنى ماء ! يا فأرا ازرق اعطنى ماء !» . ثم اخذ يهذى فى الحمى . ولكنه مضى يرجو : «يا فأرا ازرق اعطنى ماء» . ولكن الفأر ظل طويلا لا يأتى ، بينما هـــو يهمس ويدعوه ويبكى ويستعطفه ، حتى جاء اخيرا . كان الفأر الازرق باردا لا يمكن امساكه كنسيم القيلولـــة فوق جدول فى

الغابة . وكان من الصعب رؤيته ، اذ اتضح انه ازرق شفاف يهوم كالفراشة . وحلق فوقه ومس بشعره الناعم وجهه وعنقه وجسده فأحس بالراحة . ويبدو انه اعطاه ماء ليشرب ، فراح يشرب طويلا دون ان يرتوى ، بينما اخذ الماء يتدفق ويبقبق من حوله حتى غمره تماما . . .

وفى الصباح استيقظ بنفس صافية واحساس بالراحة وقد زال عنه المرض ، رغم ما ألم به من ضعف شديد . وبعد ذلك ظل الصبى طويلا يذكر ذلك الفأر الازرق السقاء ، الذى زاره فى تلك الليلة الصعبة لكى يسقيه ويشفيه . . .

تذكر ذلك الآن وهو يحترق ويجف من العطش فى القارب . آه لو يأتى الفأر الساقى الآن ! وفى هذه اللحظة فكر بمرارة وشوق جارف فى امه التى زرعت فى قلبه الأمل فى الفأر الأزرق الساقى . وتذكر باشفاق كيف انحنت امه فوقه عندما ضاق صدره وعذبه الظمأ . كم كان وجهها حزينا ومتفانيا بلا حدود ، وكم كانت تنظر اليه بقلق واستعداد لتفعل من اجله كل ما تستطيع ، وكم حدقت فيه بضراعة وهلع دفين . ترى كيف هى الآن وماذا تفعل ؟ لا بد انها تتفتت حزنا وتنتحب وتنتظر عند شاطئ البحر . . . ولكن البحر لن يقول لها شيئا . . وليس باستطاعة احد ان يساعدها فى هذه النكبة . ليس هناك سوى الاطفال والنساء الذين ما زالوا — ربما — يشعلون النيران على سفوح الكلب الأبلق ، وبذلك يشجعونها ، فمن يدرى ، ربما تهبط السعادة فجأة . . ويعود الضائعون فى البحر .

اما هم فكانوا فى تلك الاثناء يدورون بقاربهم ببطء وسط الفضاء الاسود ، وتتبدد ببطء آخر آمالهم بالنجاة وسط ظلام الضباب الليلى . كلا ، لم تكن القوى متكافئة ابدا بين الظلام السرمدى الموجود قبل ظهور الشمس فى الكون ، وبين اربعة لا حيلة لهم فى قارب عتيق ، بلا ماء ، بلا طعام ، بلا نجوم هادية وسط المحيط . . .

لم ير كيريسك ابدا مثل هذا السواد الفاحم ، ولم يكن يتخيل ابدا فى حياته القصيرة ان عذاب العطش سيكون قاسيا الى هذا

الحد . ولكي يجمع شتات نفسه راح يفكر فى ذلك الفأر الازرق الساقى الذى انقذه ذات مرة فسقاه وشفاه . . .

وراح يردد همسا وبلا كلل تلك الرقية العجيبة التى علمته إياها امه «يا فأرا ازرق اعطنى ماء ! يا فأرا ازرق اعطنى ماء !» ورغم ان المعجزة لم تقع فقـــد مضى يضرع ويدعو الفأر الازرق باصرار . لقد اصبح هذا الفأر الآن امله وتعويذتـــه ضـــد العطش . . .

يا فأرا ازرق اعطنى ماء !

وبينما كان الصبى يردد ذلك ، محاولا ان يصرف تفكيره عن الشرب ، كان ينعس تارة ، وتارة يستيقظ مصغيا عن غير قصد الى اطراف حديث يدور بين اورجان وامرايين . كانا يتحدثان عن شيء ما طويلا وبصوت خافت . وكان حديثهما غريبا غير مفهوم ، تتخلله فترات صمت طويلة وكلمات مبتورة وغامضة المعنى . وميز كيريسك بشكل افضل كلمات اورجان ، فقد كان الصبى ملتصقا بجنبه ، وكان العجوز يتحدث بصعوبـــة وهو يتنفس بصعوبة ، ولكن باصرار متغلبا على البحة والتهدج فى حلقه ، اما امرايين فكان الصبى لا يسمعه جيدا لبعده عنه .

وهمس امرايين بحرارة وكأنما يخشى ان يسمعهما احد هنا :

— لست انا الذى اعلمك يا جدى ، ولكن فكر . انك رجل حكيم .

فأجاب اورجان مصرا فيما يبدو على رأيه :

— لقد فكرت جيدا ، هكذا افضل .

وصمتا قليلا ، ثم عاد امرايين يقول :

— نحن جميعا فى قارب واحد ، وينبغى ان نواجـــه مصيرا واحدا .

فدمدم العجوز بمرارة :

— مصير ، مصير — وقال بصوت متهدج ابح — لا احـــد يستطيع ان يفلت من مصيـــره ، هذا معروف . ولكن يمكنك ان ترضى به او لا ترضى . وطالما اننا جميعا سنهلك فبوسع احدنا

ان يعجل بمصيره لكى يؤجل مصير الآخرين . فكر بنفسك : ماذا لو انقشع الضبــــاب فانطلقت بآخر قواك ، واذا البر يصبح فى متناول البصر ، ولكن تنقصك بضع جرعات ماء لتطيل رمقك ، فهل هذا من الحكمة ؟ أ لن يكون ذلك مؤسفا ؟!

ورد امرايين بكلمات مبهمة ثم صمتا كلاهما .

وحاول كيريسك ان ينام ، وراح يدعو فأره الازرق . وخيل اليه انه سيأتى عندما ينام . . . ولكن النوم جافاه .

يا فأرا ازرق اعطنى ماء !

وسأل اورجان :

– كيف حال ميلجون ؟

فاجاب امرايين :

– كما هو . . راقد .

– راقد اذن . . – وصمت العجوز قليلا ، ثم قال مذكرا – عندما يعود الى وعيه بلغه .

– حسنا يا جدى . . – قال امرايين بصوت متهدج وسعل بجهد – سأبلغه كل ما قلت .

– قل له كنت احترمه . انه صياء كبير ، ورجل طيب . كنت دائما احترمه .

وصمتا من جديد :

يا فأرا ازرق اعطنى ماء !

ثم قال امرايين شيئا ما ولكن كيريسك لم يسمعـــه جيدا ، بينما رد عليه اورجان :

– كلا ، لا استطيع ان انتظر ، الا ترى بنفسك ؟ لن اقوى على ذلك . الكلب الاصيل يموت بعيدا عن الاعين . سأفعل ذلك بنفسى . لقد كنت رجلا عظيما ! اننى اعرف ذلك . كنت دائمـــا احلم بحورية البحر . انت لن تفهـــم هذا . . اريـــد ان اذهب اليها . . .

وواصلا الحديث بعض الوقت ، ولكن كيريسك بدأ ينعس وهو يدعو الفأر الساقى :

يا فأرا ازرق اعطنى ماء !

وكان آخر ما سمعه كلمات ابيه التى قالها بعد ان اقترب من اورجان :

– اتذكر يا جدى عندما جاء التجار على الأيائل وقايضوا الفؤوس بأشياء مختلفة . لقد قال ذلك التاجر الأحمر الطويل انه كان يوجد فى بلد بعيد رجل عظيم عبر البحر مشيا . اذن فقد كان هناك اناس كهؤلاء . . .

فاجاب اورجان :

– اذن فقد كان رجلا عظيما جدا ، اعظم العظماء . اما اعظم العظماء عندنا فهى حورية البحر .

وغاب كيريسك فى النوم ، ولكن بعض الكلمات كانت تتناهى الى ادراكه :

– انتظر . . فكر قليلا . .

– آن الأوان . لقد عشت عمرى . . لا تمنعنى . . قواى خارت ، لن اتحمل . . .

– ولكن الظلام شديد . . .

– وما الفرق . . .

– ولكنى لم اقل لك كل ما أريد . . .

– الكلمات لا تنتهى . وبعدنا لا تنتهى .

– الظلام شديد .

– لا تمنعنى ، قواى تتلاشى ، وانا اريد ان افعل ذلك بنفسى . . .

– الظلام شديد . . .

– ستصمدون . . تبقى قليل من الماء . . .

وتحسست راحة كبيرة خشنة وعريضة رأس الصبى واستقرت بحذر عليه . وادرك وهو نائم انها راحة اورجان . استقرت دافئة ثقيلة فوق رأسه بعض الوقت كأنما تريد ان تحميها وتتذكرها . . .

* * *

حلم كيريسك بأنه يسير فوق البحر على قدميه . كان يسير الى حيث ينبغى ان يكون البر لكى يرتوى . وكان يخطو دون ان تغوص قدماه او يغرق . والمنظر مدهش وغريب من حوله . امتد البحر الصافى اللامع الى مدى النظر . ولم يكن فى الدنيا شىء آخر سوى البحر والمياه . ومضى يسير على هذه المياه كأنما فوق ارض صلبة . وتدافعت الامواج برفق تحت اشعة الشمس متدفقة من كل الارجاء ، حتى انك لا تعرف ولا تخمن من اين تأتى والى اين تمضى .

ومضى يسير فى البحر وحيدا تماما . فى البداية خيل اليه انه ركض امام اورجان وامراپين وميلجون وسبقهم ليجد ماء بسرعة ويدعوهم اليه . ولكنه ادرك فيما بعد انه وحيد تماما هنا . واخذ يصيح ويناديهم فلم يرد عليه احد . . . لا كائن حى ، ولا صوت ولا ظل . . . لم يعرف اين اختفوا . وتولاه الخوف . ولم يستجب أحد لصرخاته . ولم يظهر البر فى اية جهة على الاطلاق . وركض فى البحر وهو يتنفس بصعوبة وقواه تخور ، ولكنه لم يتقدم من أى شىء وظل فى مكانه ، واستبد به الظمأ اقوى وافظع . وهنا رأى طيرا يمر من فوق رأسه . كانت تلك بطة «لوفر» . اندفعت تحلق فوق البحر صارخة وهى تبحث عن موضع لعشها . ولكنها لم تجد شبرا من اليابسة ، ففى كل مكان تراقصت الامواج اللانهائية . وأنّت بطة «لوفر» شاكية حائرة .

وخاطبها كيريسك :

– يا بطة لوفر ! اين البر ، فى اية جهة ، اننى اريد ان اشرب !

فاجابته بطة لوفر :

– ليس هناك بر فى هذه الدنيا بعد . ليس هناك سوى الامواج .

وسألها الصبى عن اقاربه المفقودين :

– واين الآخرون ؟

فاجابته بطة لوفر :

– ليسوا هنا ، لا تبحث عنهم ، ليسوا فى اى مكان .

واستولى على الصبى احساس رهيب لا يوصف بالوحدة والغم . اراد ان يهرب من هنا الى حيث يمتد البصر ، ولكن لم يكن ثمة مهرب ، فقد احاطت به المياه والامواج من كل جانب . واختفت بطة لوفر فى الأفق وتحولت الى نقطة سوداء .

فصاح الصبى متوسلا :

– خذينى معك يا بطة لوفر ، لا تتركينى ! اريد ان اشرب !

ولكنها لم ترد ، ثم سرعان ما اختفت فوق البحر بحثا عن الارض التى لم توجد بعد . وكانت الشمس تغشى البصر .

استيقظ والدموع تسيل من عينيه وهو لا يزال يجهش بالبكاء ويشعر بوطأة الكآبة المطبقة والخوف . وفتح عينيه الدامعتين ببطء فادرك انه كان يحلم . كان الزورق يتأرجح قليلا فوق الماء . وانسدل الظلام الضبابى الرمادى واحاط بهم من جميع الجهات . اذن فقد مر الليل واقترب الصباح . وتحرك الصبى فى مكانه .

ودمدم وهو يمد يده الى العجوز اورجان :

– يا جدى اريد ان اشرب ، لقد رأيت حلما .

ولكن يده لم تعثر على احد ، وكان مكان اورجان فى مؤخرة القارب خاليا .

وصاح كيريسك :

– يا جدى !

فلم يرد احد . فرفع الصبى رأسه وانتفض :

– يا جدى ، يا جدى ، اين انت ؟

– لا تصرخ ! . . – قال امرايين وهو ينتقل الى جانبه . واحتضن ابنه وضمه الى صدره بشده . – لا تصرخ ، جدك ليس هنا ، لا تناده ! لقد ذهب الى حورية البحر .

ولكن كيريسك لم يصغ اليه :

– اين جدى ؟ اين ؟ اين جدى ؟

فحاول ابوه تهدئته :

– قلت لك اسمع ! لا تبك ! اهدأ يا كيريسك ، جدك ليس موجودا . لا تبك . لقد امرنى ان اعطيك ماء . ما زال لدينا القليل

منه . فاذا سكت ساعطيك تشرب . فقط لا تبك . قريبا سيزول الضباب وعندئذ سترى ...

ولكن كيريسك لم يهدأ ، وحاول باستماته ان يفلت من بين ذراعى ابيه . واهتز القارب من الحركة العنيفة . ولم يدر امرايين كيف يتصرف .

– انظر ، سنتحرك الآن ! سنتحرك ! يا ميلجون ، هيا قم ! فلنتحرك ! . .

وبدأ ميلجون يجذف . وانزلق القارب ببطء فوق الماء . ومن جديد مضوا دونما غاية وبلا هدف وسط الضباب اللبنى الكثيف الذى كان يحجب الدنيا كلها بحجاب لا بصيص فيه كما فى السابق .

وهكذا استقبلوا يوما جديدا . كانوا الآن ثلاثة فى القارب .

يا فأرا ازرق اعطنى ماء !

وفيما بعد ، عندما هدأ كيريسـك قليلا ، جلس امرايين وميلجون الى المجاذيف ، وأخذا يعملان بأربعة مجاذيف وتحرك القارب اسرع ، ومن جديد دونما غاية وبلا هدف . اما كيريسك الذى هزه اختفاء العجوز فكان لا يزال يشهق بحرقة وهو جالس كاليتيم فى مؤخرة الزورق . وكان ابوه وميلجون مسحوقين ايضا ولم يكن بوسعهما ان يساعدا نفسيهما او يساعداه . لم يستطيعا الا ان يمسكا بالمجاذيف . وتحركا لمجرد الحركة . وكان وجهاهما اسودين وسط الضباب الابيض . وحاقت بهم جميعا كارثة قاسية لا راد لها : العطش والجوع .

وصمتوا . كانوا يخشون الكلام . ولكن بعد فترة من الوقت القى ميلجون بالمجاذيف وقال لامرايين عابسا :

– قسّم الماء !

وصب امرايين فى قعر المغرفة لكل منهم بضع جرعات . وكان الماء عطنا كريه الرائحة والمذاق . وحتى هذا الماء لم يبق منه الا ما يكفى لتوزيعه ثلاث او اربع مرات لا اكثر . لم يرتو احد ، ولم يخفف عنهم ما شربوه .

ومن جديد عادوا الى الانتظار الممض المبلد للحواس : هل

يتغير الجو ام لا ؟ ولم يعد احد يبدى توقعات متفائلة . لقد هدهم التعب فركنوا لا اراديا الى اللامبالاة ، وراحوا ينتظرون مصيرهم باذعان وهم يدورون بالقارب دونما هدف وسط الضباب المهلك . لم يبق امامهم الا التسليم بمصيرهم . كان الضبـــاب يجثم على صدورهم ويقهر ارادتهم . مرة واحدة فقط قال ميلجون بصـــوت مرتعش حاقد بعد ان اطلق سبابا مقذعا :

— فليختف الضباب وانا مستعد ان اموت . سأقفز بنفسى من القارب ، فقط لو رأت عيناى طرف الدنيا !

ولزم امرايين الصمت ، لم يرفع حتى رأسه . فماذا يمكن ان يقول ؟ لقد اصبح الآن كبيرهم فى القارب . ولكنه لم يستطع ان يقدم شيئا . لم تكن ثمة جهة يقصدونها !

ومضى الوقت . اصبح القارب يسير على هواه ، فتارة يقف فى مكانه ، وتارة يتحرك من جديد .

ومع كل ساعة كان الخطر الذى يتهـــــدد حياتهم يزداد . . فبالاضافة الى الظمأ المستعر كان هناك الجوع القاسى المدمر . وخبت قواهم وهى تتلاشى من اجسادهم .

رقد كيريسك فى مؤخرة القـــارب بعينين نصف مغمضتين . وكان رأسه ثقيلا مصدعا ، وانفاسه متحشرجـــــة ، وبين الحين والحين تنقبض معدته الخاوية . وطوال الوقت استبدت الرغبة فى الشرب . . الرغبة الجامحة .

يا فأرا ازرق اعطنى ماء !

اراد الصبى بدعائه وندائه للفأر الازرق الساقى ان ينسى ، وراح يبحث عن النجاة فى الذكريات عن تلك الحياة التى خلفهـــا عند سفح الكلب الابلق ، والتى اصبحت الآن بعيدة المنـــال كالاساطير .

وهمست شفتاه : «يا فأرا ازرق اعطنى ماء !» ولأن رأسه كان يدور فقد تصور انهم يلعبون ويتدحرجون من الرابية المعشوشبة كجذوع الاشجار . اوه ، كم كانت لعبة مسلية رائعــة ! كان كيريسك اكثرهم مهارة وتحملا فى تلك اللعبـــة . كان يتسلق

الرابية الشديدة الانحدار ويتدحرج من هناك متقلبا حول نفسه كجذع الشجرة المشذب الملقى من اعلى المنحدر . وكان ينبغى ان تضم يديك جيدا الى جسمك . وفى البداية تضطر لان تدفع نفسك حتى تتحرك . وبعد دورتين او ثلاث تجد جسمك يتدحرج رغما عنك ، بينما تضحك انت وتقهقه من السرور ، والسماء تميل الى هذا الجانب تارة ، والى ذاك تارة اخرى ، والسحـــب تدور وتمرق امام ناظريك ، وتدور الاشجار وتسقط ، ويطير كل شيء رأسا على عقب ، اما الشمس فتنفجر ضحكا فى السماء . والصيحات والصرخات تملأ الجو ! وتتدحرج الى اسفل متقلبا بسرعة متزايدة ، وفى تلك اللحظات تمرق فى صور غريبة الوجوه الممطوطة تارة ، والارجل المقوسة للاولاد المتدحرجين خلفك تارة اخرى ، واخيرا ينتهى التدحرج فجأة ! اوه . . لا يبقـــى الا الصخب فى الاذنين . وعلى الفور تأتى اهم لحظة . فقبل ان يبلغ العد ثلاثة ينبغى ان تقفز واقفا على قدميك ودون ان تسقط بسبب الدوار . وعادة ما يسقط الجميع فى المحاولة الاولى . فياللضحك عندئذ ! الجميـــع يضحك ، وانت نفســـك تضحك ! وتحاول ان تقف على قدميك ، ولكن الارض تغوص من تحتك . اما كيريسك فلم يسقط . حشد كل جهده وتماسك . فقد كانت موزلوك بجواره دائما ، فلم يرد امامها ان يسقط مثل اى صبى خائر .

ولكن اجمل شيء ، واكثره مثارا للضحك كان عندما يتسابق مع موزلوك فى التدحرج . فالبنات يستطعن ايضا ان يتدحرجن . ولكنهن جبانات ، كما ان جدائلهن تشتبك فى اشياء ما . ولكن ذلك ليس مهما ، ففى مثل هذه اللعبة المسلية لا يخلو الامر من كدمات .

وعندما يتسابق مع موزلوك كان كيريسك يبسط مرفقيـــه عمدا وبشكل لا يلحظ حتى لا يسبقها . فكانا يصلان فى وقت واحد وسط صيحات الحاضرين وقهقهاتهم ، وفى وقت واحـــد يقفزان واقفين قبل ان يصل العد الى «ثلاثة» ، ولم يكن احد يدرى مدى المتعة التى يحس بها وهو يسند موزلوك ويساعدها على الوقوف . كانا يتعانقان لا اراديا وكأنهما يساعدان بعضهمـــا البعض على الصمود . وكانت موزلوك تضحك بسعادة ، وشفتاها تنقلان اليه

عدوى الضحك ، بينما تأتى هى بحركات تجعل كيريسك يمسك بها . كانت توهمه بانها ستسقط ، فيكون عليه ان يسندهـــا ويحتضنها . ولم يدر احد باية لحظات من السعادة الغامرة والحب المرعب كانا يمران . فتحت الفستان الرقيق كان قلب الفتـــاة العذرى يخفق ، وكان جسداهما يلتقيـــان بين الحين والحين ، فيلمس كيريسك تحت يده نهديها الصغيرين الصلبين البازغين ، وتنتفض الفتاة عند ذلك ثم تلتصق به بسرعة ، ويرى عينيهـــا الغامضتين البراقتين الثملتين من الدوار . وكان العالم كله ، كل ما فى الارض والسماء ، يدور معهما سابحا فى ضحكهما المتصـــل وسعادتهما الغامرة . لم يدر احد بتلك السعادة المدهشة !

حدث مرة واحدة فقط ان فطن احد الصبية الى ذلك . كان اكبر من كيريسك قليلا ، كريها ، حقيرا . وراح يلقى بنفســـه كالاحمق فوق موزلوك متظاهرا بانه لا يقوى على الوقوف بسبب الدوار . وتحاشته موزلوك وركضت مبتعدة عنه ، لكنه ادعى انه يكاد يسقط فلحق بها وسقط فوقها . وتشاجر كيريسك معه . وكان الصبى اقوى منه وطرحه ارضا عدة مرات . ومع ذلك انتهى الشجار بالتعادل ، اذ لم يسلم كيريســـك ولم يسمح لموزلوك بمناصرته . ولكن ذلك لم يحدث الا مرة واحدة . . .

وكانت هناك لحظات سعادة اخرى ، عندما كانا يركضان بعد اللعب ، مبللين بالعرق ، محمرى الوجوه ، ليشربا من الجدول .

يا فأرا ازرق اعطنى ماء !
يا فأرا ازرق اعطنى ماء !

كان الجدول غير بعيد . كان يخرج من الغابة ويمر بالمكان الذى كانوا يلعبون فيه . وكانت مياهه تتسلل بين الاشجـــار محافظة فى تدفقها على عتمة الغابة ورطوبتها . وازدحمت الاعشاب محيطة به فى حلقة محكمة تصل الى مجرى المـــاء . اما تلك التى كانت تنمو على حافة الجدول تماما فكانت تغتســـــل فيه وتقاوم باعوادها الممدودة اندفاع التيار المرح . اما الجدول فكان يندفع خالى البال نحو البحر ، وهو يلمع تحت الشمس تارة ، ويغطس

تحت الشاطئ البارز المنحدر تارة اخرى ، ويختفى بين الاعشاب والاجمات تارة ثالثة .

كانا يصلان الى الجدول فى لحظة واحدة ، وفى لحظة واحدة ينكفئان على الماء وهما يفرقان الاعشاب . لم يكن ثمة مجال لغسل الايدى وغرف الماء بالايدى ، بل كانا يشربان مثل الايائل ، مدليين رأسيهما فوق الماء وغامرين وجهيهما فى التيار المبقلل المدغدغ . اوه يالها من متعة !

يا فأرا ازرق اعطنى ماء !
يا فأرا ازرق اعطنى ماء !
يا فأرا ازرق اعطنى ماء ! . .

يتمددان عند الجدول ورأساهما مدليان الى الماء . وتلتصق اكتافهما ، وتتشابك ايديهما الغائصة فى التيار السريع فيبدو وكأن لهما زوجا واحدا من الايدى . ويشربان وهما يمصان الماء بشفاههما ، ويتوقفان لالتقاط الانفاس ، ويرتويان فى تلذذ ويلهوان ويبقبقان بافواههما فى الماء . كانا يودان لو لم يتركا المكان ولو لم يرفعا رأسيهما عن التيار النقى الذى كانا يريان فيه انعكاسهما المتلاشى السريع فيبسمان لهذه الانعكاسات المشوهة المضحكة ، ويبسمان لبعضهما البعض .

يا فأرا ازرق اعطنى ماء !
يا فأرا ازرق اعطنى ماء !
يا فأرا ازرق اعطنى ماء !
يا فأرا ازرق اعطنى ماء ! . .

ودون ان ترفع موزلوك وجهها عن الجدول تنظر اليه بطرفى عينيها المستطيلتين بمكر ، فينظر اليها بنفس الطريقة ويبتسم بمكر . وتدفعه بكتفها وكأنها تريد ابعاده عنها وهو لا يتزحزح . وعند ذاك تملأ فاها ماء وتطلقه على وجهه ، فيفعل نفس الشيء . . يملأ فاه اكثر ويطلق فى وجهها نفثة قوية . وبذلك يبدأ الهرج

والركض الجامح . كانا يتراكضان وسط الماء ويرشانــــه على بعضهما البعض قدر ما يستطيعان ، وينطلقان جريا فى الجدول رائحين غاديين ، مبللين من رأسيهما حتى اخمص القدمين بينما تدوى ضحكاتهما وصياحهما . . .

يا فأرا ازرق اعطنى ماء !

كان من المحزن لكيريسك ان يدرك ان هذا لن يتكرر ابدا . اصبح التنفس اكثر صعوبة ، وازدادت تقلصـــات المعدة . راح يبكى بصوت خافت ويتلوى من الالم ، ويخاطب ذلك الفأر الازرق :

يا فأرا ازرق اعطنى ماء !

وهكذا استلقى ممددا . وهو يحاول ان ينسى الامــــه فى الاحلام . ولم يتغير شىء من حولهم . ظلت غلالة الضباب البيضاء مسدلة بلا حراك . وكانوا مطوحين فى الزورق بلا حول ، كل فى مكانه . ولم يكن معروفا ما الذى يخبئه لهم المستقبل . وفجـــأة اهتز القارب ، وسمع الصبى صوت أبيه المذعور :

— ميلجون ! يا ميلجون ! ماذا تفعل ؟ كفى !

رفع كيريسك رأسه فذهل . كان ميلجون قد دلى رأسه فوق حاجز القارب وراح يغرف ماء البحر بالمغرفة ويشرب .

وانقض عليه امرايين لينتزع منه المغرفة وصاح :

— كفى !

ولكن ميلجون تحفز مهددا :

— اياك ان تقترب ! سأقتلك !

وراح يشرب ذلك الماء المالح المر الذى كان من المستحيل تذوقه . وكان الماء يسيل على صدره وذراعيه ، بينما هو يشرب ويغص ويجبر نفسه على الشرب ويهيل على وجهه المغرفة بذراعين مرتعشتين . وكان وجهه اثناء ذلك مكشرا كسحنة وحش .

ثم طوح المغرفة فى قاع القـــارب ، وارتمى على ظهره وهو ينتحب بحشرجة مخنوقة . وهكذا ظل ممددا دون ان يكون باستطاعة

احد ان يقدم له اى عون . اما كيريسك فقد انكمش رعبا واحس بمزيد من العطش والآلام الحادة فى بطنه . وعاد امراايين المقهور الى التجذيف ، وساق القارب على مهل وسط الضبـــاب على غير هدى . ولم يكن فى وسعه ان يفعل شيئا آخر .

وكان ميلجون يهدأ تارة ، وتارة اخرى يرتعش فى تقلصات عصبية وهو يتحشرج مشرفا على الموت من نوبة العطش . الا انه بعد فترة رفع رأسه وصاح وهو يمزق ثوبة عند صدره :

– النار ! النار تأكل احشائى .

– قل لى كيـــف اساعدك ؟ ماذا افعل لك ؟ – قال امراايين ثـــم اومـأ برأســـــه الى وعـاء المـــاء – هناك القليـــــل منه ، هل اصب لك ؟

فرفض ميلجون :

– كلا . الآن لا . أردت ان اصبر حتى الليل ثم أفعل مثلما فعل جدنا المرحوم ، ولكننى لم استطع . فليكن ، والا ارتكبت شيئا ما . والا شربت الماء كلـــه . اما الآن فقد حلت نهايتى ، وسوف ارحل . الآن حلت نهايتى . . . وسأفعل ذلك بنفسى . . ما زلت قادرا . . .

وسط البحر الخاوى والضباب الذى لم تكن له حدود او نهاية بدت رهيبة وغير محتملة كلمات رجل حكم على نفســـه بالموت البطئ . وحاول امراايين بصورة ما ان يهدىء صديقه وأخـــاه ميلجون ، ان يقول له شيئا ما ، لكن الاخير لم يشأ ان يصغى اليه ، فقد كان يتعجل انهاء عذابه بضربة واحدة .

ودمدم كالمجنون :

– لا تقل لى شيئا يا امراايين ، فات الاوان ! سأفعلهـــا بنفسى . سأذهب . اما انتما ، الاب والابن ، فقررا ما تريانه . هكذا افضل . ولتعذرانى على هذا التصرف . انتما اب وابن فلتبقيا ، ما زال هناك القليل من الماء . . اما انا فسأعبر . . . وبهـــذه الكلمات نهض ميلجون منحنيـــا ومستندا الى جانب القـــارب . واستجمع كل قواه وهو يترنح ، وقال لامراايين وهو ينظر شذرا :

– اياك ان تمنعنى يا رجل ! لا بـــد من ذلك . اياك ان تمنعنى . وداعا . ربما تصلون . . اما انا فحالا . . وعليك ان

تبتعد بالقارب بسرعة بعدها . . . على الفور ، لا تنتظر . . لو اقتربت منى سأقلب القـــارب . اما الآن فجذف ، جذف يا رجل بقوة . . أتسمعنى ، والا قلبت القارب . . .

ولم يكن امام امرايين الا ان يصدع لتهديدات ميلجـــون وتوسلاته . فمضى القارب فى خط مستقيم وهو يشـــق الضباب الساكن والمياه الساكنة . وبكى كيريسك متوسلا :

— يا عم ميلجون ، يا عم ميلجون ، لا داعى !

وفى هذه اللحظة بالذات تدلى ميلجون عبر جانب القارب . ومال القارب بشدة ثم اعتدل .

وصاح ميلجون وهو يتخبط فى المياه الثلجية :

— ابتعد ، ابتعد بالقارب !

وعلى الفور اختفى عن الاعين فى الضباب . وهدأ كل شىء ، ثم دوى صوته فى السكون الحاد . . كانت اخر صرخة من غريق . ولم يتمالك أمرايين نفسه فهتف :

— ميلجون ! ميلجون ! — واستـــدار بالقارب وهو يجهش بالبكاء .

وعادا بسرعة ، الا ان ميلجون لم يكن هنـــاك . كان سطح المياه أملس هادئا ، كأنما لم يحدث شىء . واصبح من الصعب تحديد المكان الذى غرق فيه الرجل .

وظلا بقية النهار يدوران بالقارب هنا دون ان يقصدا مكانا آخر . وراحا يبكيان وقد هدتهما الفجيعة . كانت تلك اول مرة يرى فيها كيريسك أباه يبكى ، اذ لم يحدث له ذلك من قبل أبدا.

ودمدم امرايين وهو يمسح الدموع من ذقنه ولا يستطيـــع السيطرة على نفسه :

— ها نحن قد اصبحنا وحدنا — ومضى يهمس وهو يجهش — ميلجون ، يا اخى المخلص ميلجون !

ومال النهار الى المغيب . او هكذا خيل اليهمـــا . فلو ان الشمس موجودة فى مكان ما ، ولو انها تسير فى السمـــاء فوق البحار والضباب ، فلا شـــك انها الآن مضت الى مستقرها فى سكون . اما هنا ، تحت ستار الضباب الكثيف الذى مال بالتدريج الى اللون الداكن بعد ان تشبع بعتمة الغسق ، فقد دار فى البحر

قارب تائه وحيد ، لم يبق فيه الآن سوى شخصين : أب وابنه .

وقبل ذلك ، قبل ان يقول امراايين لنفسه ان المســـاء قد اقترب ، قرر اخيرا ان الاوان قد آن لكى يشربا قليلا . ورأى كيف كان كيريسك ينتظر هذه اللحظة وهو يكابد العذاب ، وأدرك مدى المشقة التى تحملها ابنه وهو يغالب العطش والجوع ويصارع نفسه دون ان ينبس ببنت شفة . وبدا كأنما طغى مصرع ميلجون على اى تفكير فى الماء لامد طويل . بيد ان العطش اخذ يفصح عن نفسه تدريجيا حتى استعر من جديد بصورة مضاعفة ، منتقمـــا بقسوة مما حدث من نسيان عفوى له .

وبحذر بالغ ، وحتى لا يهدر قطرة واحدة ، صب امراايين قليلا من الماء المعطن لكيريسك اولا . وقبض الصبى على المغرفة وافرغ فى جوفه على الفور نصيبه من الماء كمن اصابه مس . ثم صـــب امراايين لنفسه ، واكتشف ان ما بقى فى الوعاء بعد ذلك لا يكاد يغطى القعر . وفهم كيريسك ذلك ايضا وهو ينظر الى الوعـــاء المائل فى يدى أبيه . وعلت وجه امراايين صفرة الموت عندمـــا اكتشف ذلك مصعوقا ، بالرغم من انه كان يتوقعه . وعندئذ لم يتعجل امراايين شرب نصيبه . امسك بالمغرفة فى يديه مستغرقا فى التفكير ، وقد هزت كيانه فكرة داهمته فجأة . . فكرة لم يعد ارواء الظمأ بعد ظهورها يعنى شيئا .

وقال وهو يناول المغرفة لابنه :

– خذ ، امسك . . .

لم يكن ينبغى ان يفعل ذلك . فامساك المغرفة الملأى بالماء مع الامتناع عن شربه كان عذابا حقيقيا بالنسبة للصبى . وعندما اصبحت يداه حرة اغلق امراايين الوعاء شبه الفارغ جيدا ووضعه فى مكانه .

وقال لابنه :

– اشرب .

فدهش الصبى وسأله :

– وانت ؟

فأجاب الاب بهدوء :

– فيما بعد . لا تفكر فى شىء . اشرب .

ومن جديد افرغ كيريسك فى جوفه على الفور هذه الجرعة من الماء العطن . ولم ينطفئ الظمأ كما كان كيريسك يود ، الا انه احس ببعض الراحة .

وسأل الأب :

— كيف الحال ؟

فهمس الصبى بامتنان :

— احسن قليلا .

— لا تخف . وتذكر ان الانسان يستطيع ان يعيش يومين او ثلاثة دون قطرة ماء . ومهما حدث فلا تخش شيئا . . .

وقاطعه الصبى :

— ولهذا لم تشرب ؟

ارتبك امرايين وقد فاجأه هذا السؤال . وبعد ان فكر قليلا اجاب باقتضاب :

— نعم .

— وكم يستطيع الانسان ان يعيش دون طعام ؟ اننا لم نأكل منذ زمن طويل .

— المهم ان يكون لديه ماء . ولكن لا تفكر فى ذلك . هيا بنا نمضى قليلا . اننى اود ان اتحدث معك .

حرك امرايين المجذافين فمضى الزورق ببطء وسط الضباب ، وكأنما لم يكن من الممكن ان يتحدثا فى المكان الذى كانا فيه . كان على الاب ان يستجمع رباطة جأشه . وخيل اليه انه مع الحركة سيكون من الاسهل عليه ان يركز افكاره ويعد نفسه لذلك الحديث ، الذى كان مجرد التفكير فيه يعصر قلبه . ولم يكتف بالتجذيف وحده ، بل أمر ابنه ان يمسك بالمجذافين الآخرين . ولم يكن ثمة اى داع لذلك ، كما لم يكن اى داع للمضى الى جهة ما . وراح الصبى يحرك بصعوبة المجذافين البحريين الكبيرين جدا بالنسبة له . لو كان مجذافا واحدا لتمكن منه ، اما بالنسبة لمجذافين فقد كان صغيرا بعد . كما كان واضحا ان الصبى قد ضعف مثلما كان أبوه يضعف من ساعة لاخرى . وهذا ما جعل الاب يستعجل الاحداث . كان الوقت يمضى . . كان يوشك ان ينتهى .

حرك كيريسك المجذافين بلا انتظام ، صامتا ودون ان يتلفت.

ولم يكن ذلك هو ما يعذب امرايين . راح ينظر الى ظهر ابنه ، الى جسده المنكمش الذى لاحظ الآن انه نحيل ضعيف كأجساد الاطفال، واخذ يعض شفتيه ، بينما نزف قلبه دما - وقد احس ذلك بحدة -تيارا حارا دافقا بالالم . ولم يجرؤ على فتح الحديث ، رغم انه لم يكن امامه خيار آخر . . .

وشيئا فشيئا انخفض مدى الرؤية فى عمق الضباب ، بينما راح امرايين يجذف والافكار الثقيلة تعصره ، والوقت يمضى ولم يعد لديه منه الا القليل بالفعل . وبالرغم من تجلده ، بالرغم من قوته الخارقة التى وهبته اياها الطبيعة ، فقد تغلب عليه الظمأ والجوع بسرعة ، واستهلكا قواه . كان عليه ان يسرع ليعد ابنه ليتقبل ما عقد عليه العزم فى هذه اللحظة . كان عليه ان يقوم بذلك وهو بعد متمالك لنفسه وارادته .

كان يدرك ان عليه ان يترك القارب مثلما فعل اورجان وميلجون ، وتلك هى الفرصة الوحيدة ان لم يكن للحفاظ على حياة ابنه فعلى الاقل لاطالتها بقدر ما تسمح به كمية المياه القليلة التى تبقت فى قعر الوعاء . ولم يكن فى وسعه ان يقطع لنفسه بأن الضباب سينقشع هذه الليلة ، او نهار غد ، بل ولم يكن فى وسعه ابدا ان يحدد لنفسه ما الذى سيواجه ابنه مستقبلا ، حتى لو تحسن الجو عاجلا ام آجلا ، وكيف سيبقى على قيد الحياة وينجو بعد ان يصبح وحيدا فى البحر . لم تكن هناك اجابة على هذا السؤال . والامل الوحيد الضعيف ، او ربما المستحيل التحقيق ، والذى حاول ان يقنع به نفسه ، هو انه اذا ما صفا البحر فربما التقى الصبى صدفة بقارب كبير من قوارب الرجال البيض . كان يعرف مما سمعه ان الرجال البيض يظهرون احيانا فى هذه المياه . فقد كانوا يمخرون المحيط ، بعيدا عن شواطئهم ، لقضاء شئون خاصة بهم ، قادمين من بلدان بعيدة وقاصدين اخرى بعيدة . اما هو نفسه فلم يقابلهم ابدا ، لكنه سمع بذلك من التجار الذين يعرفون كل شىء فى الدنيا ، بل ان بعضهم ركب هذه القوارب الضخمة كالجبال التى يركبها البيض . ولو صفا الجو ، ولو تقابلت الدروب ، ولو لاحظ الرجال البيض هذا الزورق الخشبى الصغير

فى المحيط ، فتلك هى المعجزة التى يمكن ان تكون املا ، واهيا ، غير معقول ، مستحيلا تقريبا ، الا انه امل على كل حال .

هذا ما اراد امرايين ان يقوله لابنه قبل ان يفارقه . كان لا بد ايضا ان يقنع كيريسك وان يوصيه ويؤكد عليه بأن يبقى فى القارب حتى آخر رمق وما دام فى وعيه . واذا ما قدر له ان يموت بعد نفاد الماء ، فليمت فى القارب ولا يلق بنفسه فى البحر كما اضطر الى ذلك العجوز اورجان وميلجون وكما سيضطر اليه هو أبوه . لم يكن ثمة اى بديل آخر . لا بد من الاذعان والتسليم بالقدر القاسى . . . الا ان الرعدة سرت فى اوصال امرايين عندما فكر فى ان صبيا صغيرا ، فى الحادية عشرة من عمره ، سيبقى فى القارب وحده وجها لوجه مع الدنيا كلها ، فى ذلك الضباب الاصم ، فى البحر اللانهائى ، لكى يموت ببطء من العطش والجوع . كان من المستحيل التسليم بذلك ، كان ذلك اكبر من ان تتحمله طاقته . وفى هذه اللحظة فطن الى انه يفكر بأنه لن يستطيع ان يترك ابنه بمفرده ، وان من الافضل ان يموتا معا . . .

وسرعان ما اطبق الظلام . ومن جديد شمل البحر ليل ضبابى حالك السواد . واذا كان السير بالقارب دون وجهة محددة فى الضباب نهارا لا معنى له ، فان ذلك ليلا لا معنى له اكثر . وراح القارب يتأرجح فى مكانه على مهل . ولم تبد اية بوادر تشير الى ان الجو سيتغير . كان البحر ممددا بلا حياة .

استقر الاب وابنه متلاصقين فى قاع القارب ليقضيا الليلة ، ولم ينم اى منهما . كان كل منهما يفكر فيما ينتظرهما وقد عذبهما الجوع والعطش . . .

شعر كيريسك وهو راقد بجوار ابيه بأن اباه قد هزل بشدة وضعف خلال هذه الايام ، وبأن جسمه تضاءل ووهن . لم تبق الا لحيته خشنة ومرنة كما كانت . وعندما التصق الصبى بأبيه وهو يذرف الدموع اشفاقا عليه ، ادرك فى تلك الليلة احاسيس لم تراوده من قبل ، احاسيس الارتباط الفطرى بالاب . ولو اراد ان يعبر عنها بالكلمات لما استطاع . . . فقد كانت كامنة فى اعماق روحه ، وفى دمه ، وخفقات قلبه . كان من قبل يعتز دائما بأنه يشبه اباه ، وكان يقلده ، ويحلم بأن يصبح مثله . اما الآن

فقد ادرك ان اباه ليس الا هو ، كيريسك نفسه ، ادرك ان اباه هو البداية ، اما هو فامتداد له . ولهذا شعر بالالم والاشفاق على ابيه كما لو كان يتألم ويشفق على نفسه . وراح يضرع حقا الى الفأر الازرق كى يجلب لهما الماء . . له ولابيه :

يا فأرا ازرق اعطنا ماء !
يا فأرا ازرق اعطنا ماء !

اما الاب فلم يعد يفكر فى الماء لنفسه ، بالرغم من انه مع كل ساعة تمر كان يحس اكثر بوطأة العذاب من جراء الظمأ المستبد المتزايد ، الذى لم يعد من الممكن تحمله بدنيا . كان كل ما فى جوفه يحترق ويجف وينكمش غصة حديدية لا ترتد . وارتفع فى رأسه طنين . لقد ادرك الآن عذاب اللحظات الاخيرة فى حياة ميلجون . ومع ذلك لم تكن افكاره تدور حول ذلك . لم يكن ثمة معنى للتفكير الآن فى الماء والرغبة فى الارتواء . ولولا ابنه ، ولو كان قادرا على ترك هذا الصبى الراقد فى كنفه هذه الليلة الظلماء الاخيرة ، لوضع منذ وقت بعيد حدا لهذه الآلام اللامجدية . فمن اجل ابنه ، حتى وان لم يكن لديه ادنى امل فى النجاة ، ومع ذلك ، وبالرغم من ذلك سيظل يحميه حتى آخر لحظة ، من اجل ان يطيل عمره بقدر ما يستطيع ، وهو ما تجسد فيه الآن صراع الاب وامله ، وما رأى فيه الآن رجاءه الاخير وخطوته الاخيرة ، من اجل كل هذا ينبغى عليه ان يترك القارب بأسرع ما يمكن . الا انه بسبب ابنه بالذات لم يستطع ان يحسم الامر خشية ان يتركه لعبث الاقدار . بيد ان التباطؤ والتسويف كان ايضا خطرا . . فقد كانت تفارقه آخر قواه التى كان بحاجة اليها ليحزم امره . . .

كان الزمن الباقى من عمر الاب يتلاشى . . .

كيف يشرح ذلك لابنه ، وبأية كلمات ؟ كيف يقول له انه يفارقه من اجله ؟ . . .

كان الزمن الباقى من عمر الاب يتلاشى . . .

وفجأة همس كيريسك : «يا أبى !» وكأنه يحدس أفكار ابيه ، وازداد به التصاقا وهو يضرع الى فأره :

يا فأرا أزرق اعطنا ماء !
يا فأرا أزرق اعطنا ماء !

وعض امرايين على اسنانه وأنّ من الالم ولكنه لم يجرؤ ان يقول شيئا . وودع ابنه بينه وبين نفسه ، وكلما طالت فترة الوداع اصبح اصعب عليه واشد ايلاما ان ينهض ليقدم على الخطوة الاخيرة . لقد ادرك فى هذه الليلة ان كل حياته السابقة كانت مقدمة لهذه الليلة . لقد ولد وها هو يموت كى يطيل حياته فى ابنه بكل ما تبقى لديه من قوة . كان يفكر فى ذلك فى تلك اللحظة وهو يودع ابنه فى صمت . لقد اكتشف امرايين لنفسه اكتشافا : فقد كان طوال حياته ماكانه لكى يواصل نفسه فى ابنه حتى آخر رمق . واذا لم يكن قد فكر فى ذلك من قبل فانما لانه لم تكن ثمة اسباب لذلك .

وهنا تذكر انه مر من قبل بأحوال طافت فيها هذه الفكـرة بذهنه كما يومض البرق فى السماء . تذكر ذلك وادرك الآن ما حدث له ذات مرة ، عندما اجتث هو والمرحوم ميلجون ونفر من بنى عشيرتهم شجرة عظيمة فى الغابة . بدأت الشجرة تتهاوى ، وبمحض الصدفة كان هو فى الجانب الذى مالت نحوه تلك الشجرة العملاقة المتهاوية وهى تحطم كل ما فى طريقها . وصاح الجميع بصوت واحد :

— احترس !

وتجمد امرايين فى مكانه وقد اذهلته المفاجأة . لم يكن هناك وقت للتراجع ، فقد اخذت الشجرة تسقط نحـــوه ببطء ودون حيدة ، وهى تصر وتزمجر بذؤابتها المتكسرة وتقلب معها السماء نازعة قطعة من سقف الغابة الاخضر . وفى تلك اللحظة الخاطفة لم يفكر الا فى شىء واحد ، وهو ان كيريسك — وكان آنذاك ابنه الصغير الوحيد ، اذ لم تكن بسولك قد ولدت بعد — هو مـــا سيكونه امرايين نفسه بعد موته . هذا هو ما فكر فيه ولم يكن لديه الوقت للتفكير فى غيره فى تلك الثوانى المعدودة وهو على عتبة الموت الاكيد . وسقطت الشجرة بجواره مثيرة دويا رهيبا

ولفحته بموجة من الاوراق والغبار . وصرخ الجميع بارتياح ، فقد نجا امرايين ولم يمسسه سوء !

وعندما تذكر ذلك الآن ادرك ان مولد ابنه بالذات هو الذى جعل منه ما هو عليه ، ولم يشعر امرايين فى حياته بمشاعر اقوى او انبل من مشاعر الابوة . وكان ممتنا على ذلك لابنائه ، وفى المقام الاول لابنه كيريسك . واراد امرايين ان يخبر كيريسك بذلك ، لكنه احجم عن ازعاجه ، اذ يكفى الصبى ما يلاقيه من مشقة . . .

كان الزمن الباقى من عمر الاب يتلاشى . . .

يا فأرا ازرق اعطنا ماء !
يا فأرا ازرق اعطنا ماء !

كان الزمن الباقى من عمر الاب يتلاشى . . .

بقيت لديه اثنتان او ثلاث ذكريات غاليات كان من الصعب عليه ان يفارقها . ولم يشأ ان يرحل دون ان يسترجعها ، رغم ان الوقت لم يدع له متسعا . وراح الآن يودع ذكرياته وهو يفكر فى نفس الوقت بأن عليه ان يترك القارب . . .

احب زوجته منذ الايام الاولى . والامر المدهش انه كان يفكر وهو فى البحر فى نفس ما تفكر فيه وهى فى البيت . هكذا كان منذ الايام الاولى . كانت تعرف ما يفكر فيه وهو فى البحر ، كما كان هو يعرف افكارها . . . وكانت هذه المعرفة عن بعد سرهما وسعادة الوصال التى لم يذق مثلها احد .

وقبل ان يولد كيريسك ، وقد ظهرت الدلائل الاولى والتى كان من الممكن ان تصدق او لا تصدق ، سأل امرايين زوجته فور عودته :

— هل سنرزق بصبى ؟

— هس ، قد تسمعك الارواح ! — قالت مذعورة بينما امتلأت عيناها بالفرحة — من اين عرفت ؟

— أنت فكرت اليوم فى ذلك . انت ترغبين فى ذلك بشدة .

— وأنت ؟

– أنت تعرفين اننى اعرف فيم كنت تفكرين ، وانا ايضا كنت افكر فى ذلك .

– وأنا فكرت فى ذلك لانك فكرت فيه وكنت ترغب فى ذلك بشدة . . .

وهذا ما حدث . . . تحقق حدسهما . ولم يكن كيريسك قد ظهر بعد ولكنه كان ينبغى ان يظهر قريبا . واخذ الموعد يقترب . وفى تلك الفترة كانت زوجته ترتدى سرواله الجلدى القديم المرقع ، الذى أكل عليه الدهر وشرب . واوضحت سبب ذلك بأن روح زوجها الرجولية ينبغى ان تكون موجودة عندما يكون هو غائبا فى البحر ، والا فلن يكبر جيدا المولود القادم . وفى تلك الايام كانت زوجته ، فى سرواله الجلدى القديم ، اجمل النساء واكثرهن جاذبية !

يالها من ايام حلوة سارة ومقلقة تلك التى كانا يفكران خلالها فيمن سيجعل منهما أبا وأما . . .

وكان ذلك هو كيريسك . . .

والآن كان عليه ان يفارقه ويفارق كل ما يرتبط به ، الى الابد .

نعم ، ثمة شىء آخر – فعندما كبر كيريسك ، قالت له امه ذات مرة ، وقد اغضبها ، انها كانت تنعم بالراحة بدونه قبل ان يوجد .

وأحس الصبى باهانة شديدة .

وعندما عاد أبوه من البحر ألح عليه بالسؤال :

– وأين كنت انا عندما لم اكن موجودا ؟

وكم ضحكا من ذلك . . ضحكا ولكن بالاعين فقط . وامتعها بصفة خاصة انه لم يعرف كيف يرد ولا كيف يتصرف ، وكيف يشرح للصبى اين كان عندما لم يكن موجودا .

والآن كان بوسع الاب ان يقول له ، انه كان فيه عندما لم يكن موجودا فى الدنيا ، انه كان فى دمه ، فى ظهره ، ومنه تسرب الى رحم الام ، وظهر مكررا أباه ، وعندما يرحل الاب الآن ويختفى ، فسوف يبقى فى ابنه ، لكى يتكرر فى أبناء ابنائه . . .

نعم ، كان فى وسعه ان يقول له ، وسيكون سعيدا لو قال

ذلك بالتحديد قبيل الموت ، ولكن النهاية حلت . نهاية نسلهم كله . فحياة كيريسك يمكن ان تطول يوما او يومين ، لا اكثر وكان الاب يدرك ذلك جيدا . وكانت المأساة والفاجعة التى لا ترحم هى هذا ، وليست هى اضطراره الى ترك القارب من اجل ابنه . . .

واراد امرايين ان يوصى ابنه فى الختام بأن يفكر بامتنان خلال ما تبقى له من عمر فى العجوز أورجان والعم ميلجون . انهما الآن ليسا على قيد الحياة ، وسيان لديهما ان يتذكرهما احـــد أم لا يتذكر ، ولكنه ينبغى ان يفكر فيهما على هذا النحو من اجل نفسه . وحتى قبيل الموت بلحظة ينبغى على المرء ان يفكر فى ذلك من اجل نفسه . وساعة الموت ينبغى عليك ان تفكر فى امثال هؤلاء الناس من اجل نفسك .

ولكنه قرر فيما بعد ان ابنه ربما توصل الى ذلك من تلقاء نفسه . . .

* * *

عندما استيقظ كيريسك ادهشه ان مضجعه كان أدفأ مــن الليالى السابقة . كان متدثرا بسترة ابيه . وفتح الصبى عينيه ، ورفع رأسه ، لم ير أباه فى القارب . واندفع من مكانه باحثا عنه فى القارب ، وند عنه صراخ رهيب دوى بلوعة فى صمت البحـــر الضبابى المقفر . وظل صراخه الوحيد المفعم يأسا وألما يتردد طويلا . كان يبكى بحرقة ، الى درجة الاعياء ، ثم ارتمى فى قاع القارب وهو يتحشرج ويدق برأسه . كان ذلك ضريبة يدفعهـا للآباء الذين انحدر من صلبهم ، وكان ذلك حبه ولوعته ونديبه عليهم . . .

ظل الصبى ممددا فى قاع القارب دون ان يرفع رأسه او يفتح عينيه . . لم يكن ثمة ما ينظر اليه او يلجأ اليه . فمن حوله امتد نفس الضباب الباهت ، اما البحر فقد اهتز قليلا هذه المرة وهو يؤرجح القارب ويدور به فى مكانه .

بكى كيريسك وهو يتحسر ويبكت نفسه على انه نام ، ولولا ذلك لما ترك اباه يرحل ، ولتشبث به بيديه واسنانه ومنعه من

الرحيل ، فليموتا معا ، وليهلكا من العطش والجوع ، على ان يبقى وحده فى وحدة رهيبة مطلقة . اخذ يوبخ نفسه ويلومها باكيا لانه لم يستيقظ ولم يهب من نومه ويصرخ عندما احس فجأة فى الليل بالقارب يهتز بشدة ويتأرجح اثر دفعة حادة . فهل كان يسمح بأن يلقى أبوه بنفسه فى البحر ! او لم يكن ليلقى بنفسه معه فى هذه الاعماق السوداء !

وبعد ذلك غاب عن وعيه شيئا فشيئا وهو يختلج ويبكى . وبعد زمن قليل انتابته نوبة عطش أقوى من السابق ، وكأنما العطش ينتقم من الصبى الذى نسيه فترة بسبب حزنه . وحتى وهو غائب عن وعيه احس بالعذاب والمعاناة من الجفاف . كان العطش يصرعه ويمزقه ويخنقه . وعندئذ زحف كالاعمى حتى الوعاء ، فاكتشف ان غطاءه مخلخل قليلا حتى يسهل نزعه ، وكانت المغرفة بقربه . وصب لنفسه ماء ، وشرب وهو لا يفكر فى شىء ، وفك بذلك شفتيه الملتصقتين وانقباض زوره . واراد ان يصب مرة اخرى ويشرب ، ولكنه عدل واستطاع ان يكبح نفسه . لم يبق من الماء الا ما يكفى لمرة او مرتين . . .

ثم جلس مهموما وهو يفكر لماذا رحل أبوه دون ان يقول كلمة . لقد كان من الاسهل عليه ان يغرق مع ابيه من ان يفعل هذا الآن عندما قيدت أغلال الوحدة والخوف يديه وقدميه وعندما يخشى الى هذا الحد ا نيعبر حاجز القارب وحده . ولكنه قرر ان يفعل ذلك بمجرد ان يستجمع قواه . . .

كان الوقت منتصف النهار او ربما بعده بقليل . هكذا خيل لكيريسك استنتاجا من لون الضباب المائل الى الاشراق . واذن فالشمس فى مكان ما من السمت . الا ان اشعتها لم تخترق بعد جدار الضباب العظيم الجامد فوق المحيط . اصبح الضباب أخف ، مائلا الى الزرقة ، مثل الدخان المتصاعد من أحطاب جافة . ومع ذلك فلم يكن يلوح منه شىء لاكثر من عشرين او ثلاثين ذراعا ، اللهم الا المياه الداكنة الرجراجة .

لم تكن ثمة وجهة يقصدها ، ولو اراد ان يمضى لما استطاع ان يسيطر على المجاذيف . ونظر بأسى الى مجاذيف ابيه وميلجون الموضوعة بترتيب على حافتى القارب . وكان الزورق الآن يسبح

تلقائيا ، قاصدا فى الضباب وجهة غير معروفة . ومن كل الانحاء اطبقت على الصبى الوحدة ، ومن حوله ساد رعب طاغ يقبض النفس.

وقبيل المساء احس برغبة ممضة فى الشرب . ودار رأسه من الجوع والضعف . لم يجد فى نفسه اى ميل لان يتحرك او ينظر الى ما حوله . ثم انه لم يكن هناك ما ينظر اليه . حتى الوصول الى الوعاء اصبح صعبا . زحف على ركبتيه ثم توقف من التعب . وادرك انه عما قريب سيعجز عن الحركة . ورفع يديه الى عينيه وصعق . . فقد هزلت وصغرت واصبحت كجلد السنجاب الجاف .

شرب فى هذه المرة اكثر مما ينبغى . ولم يتبق من الماء الا مقدار يسير فى قعر الوعاء ، لا يكفى الا لمرة واحدة ، وبعدها يصبح بلا شراب . بلا قطرة ماء . الا انه لم يعد يبالى . فرغما عن اى شىء كان يريد ان يشرب ، وكان الظمأ نهما لا يشبـــع . وخفت حدة الجوع ، واستقر فى معدته ألم متواصل ثقيل ناخر .

غاب عن وعيه وافاق عدة مرات ، بينما سار القارب تلقائيا وسط الضباب وقد دفعته التيارات التى دبت فيها الحياة .

وفى لحظة ما قرر عن جد ان يلقى بنفسه الى البحر . ولكن قواه لم تسعفه . فقد جثا على ركبتيه وتدلى فوق جنب الزورق . وظل هكذا مدلى ، مادا يديه فوق الحاجز ، عاجزا عن القاء جسده خارج القارب . ثم خارت قواه الى درجة انه لم يحاول شرب ما تبقى من ماء فى الوعاء .

رقد فى قاع القارب وبكـــى بصوت خافت وهـــو يدعو فأره الساقى :

يا فأرا ازرق اعطنى ماء ! . .

لكن الفأر الازرق لم يأت ، وازدادت الرغبة فى الشرب . ومن جديد تذكر ذلك الصيف الذى استحم فيه عريانا فى الجدول . لم يكن قد تجاوز السابعة . وكان الصيف من ذلك العام حارا . وفى طرف الغابة كانت حرارة الشمس شديدة . كانوا هناك يجمعون الثمار البرية . ثم استحموا . واستحمت امه وخالته ايضا . لم تخجلا منه ، خلعتا ملابسهما فظهرت سمرة افخاذهما اللامعة ، ونزلتا الى الجدول بتهيب وهما تستران اثداءهما بأيديهما . وصرختا بصوت

غريب ، وتصايحتا وطرطشتا الماء . وعندما ركض بحذاء الجدول وقفز فيه من الشاطئ ضحكتا منه بشدة ، وخاصة امه . وقالت لخالته : «انظرى ، انظرى ، كيف يشبهه ، مثله تماما !» . وقالتا اشياء اخرى وهما تتهامسان بخبث وتضحكان بدلع . . . اما الماء فقد انساب فى الجدول تيارا لا ينتهى ، وكان من الممكن ان تشرب حتى الارتواء وتستحم فيه قدر ما تشاء . . .

يا فأرا ازرق اعطنى ماء ! . .

وخيل اليه انه عند ذلك الجدول ثانية . وكأنما يستحم فيه من جديد عاريا فى الصيف الحار . ها هو يجرى على الشاطئ ، ويقفز فى الماء ولكنه لا يشعر ببرودة التيـــــار . كان ماء لا يُحس ولا يلمس . . كان ضبابا . انه يستحم فى الضباب . وشعر بالقشعريرة فى هذه المياه . اما امه فلا تضحك ، بل تبكى . وتقول لشخص ما : «انظر ، انظر كيف يشبهه !» وتبكى ، تبكى بحرقة . . . ودموعها مالحة ، تسيل على وجهها . . .

* * *

استيقظ كيريسك ليلا من تأرجح القارب وهدير الامواج من حولـــه . وصرخ الصبى بصوت واهن . . لقد رأى النجــوم فوق رأسه ! لاول مرة طوال هذه الايام . كانت تلمع عاليا فى السماء المظلمة فى فجوات السحب الراكضة فوق البحر . حتى القمر ظهر عدة مرات وهو يغوص بسرعة فى السحب .

كان الصبى مذهولا . . فالنجوم ، والقمر ، والريح ، والامواج هى الحياة والحركة ! ورغم ان الضباب كان لا يزال منتشرا فى كتل ، وعندما يدخلها القارب يعود كل شىء مسربلا بالظلام العكر ، الا ان ذلك لم يكن يستمر طويلا . لقد تحرك الضباب العظيم وخرج من جموده واخذ ينتشر فى الدنيا تسوقه الرياح والامواج .

نظر الصبى الى النجوم وقد اغرورقت عيناه بالدموع . لم يكن قادرا على الامساك بالمجاذيف ولم يكن يعرف كيف يجد الطريق مسترشدا بالنجوم ، ولم يكن يعرف الى اين يمضى ، ولم يكن يعرف اين هو ولا ماذا يخبئ له المستقبل ، لكنه كان سعيـــدا بسماع

صوت الامواج الراكضة وبعودة الحياة الى الرياح وبانسياب القارب مع الامواج .

كان يبكـــى من الفرحـــة والاسى ، لان الدنيــــا صفت ، ولان الحركة دبت فى البحر ، ولانه لو كان معه ماء للشرب وطعام ما ، لكان فى وسعه ان يحب هذه الحياة . لكنه كان يدرك انه لن يستطيع الآن ان ينهض من مكانه ، وان ايامه معدودة ، وانـــه سيموت قريبا من العطش . . . بينما سار الزورق مع الامواج اسرع فاسرع . سار مع التيار بلا دفة او مجاذيف . وبدأت معالم الافق تلوح مبهمة فوق البحر ، واتضحت اكثر الآماد الليلية، وندرت فى الطريق كتل الضباب . وحتى الظلام لم يعد هو الظلام السابق ، الظلام الاصم الطاغى . وخيل اليه الآن ان مخلوقات خرافية تركض دون صوت فى الضباب . كانت تظهر وتختفى مع الرياح من تلقاء نفسها ، وهى تذيب الضباب وتبدده فى شتى الانحاء .

ومـــا ان ظهر القمر من وراء السحب حتى ارتعش سطح البحر بحيوية ، ولمع ، وانطفأ ثانية ، ثم عاد فانتعش . ونظر الصبى الى النجوم المضيئة فى صمت وفكر : «ترى اى منها النجوم الحارسة ؟ ايها نجمة الجد أورجان ، وايها نجمة العم ميلجون ، وايها نجمة ابى امرايين ؟ لم نركن طوال هذه الايام ، وانتن ايتها النجوم لم تستطعن رؤيتنا فى الضباب . وها انا ذا وحدى ، ولا ادرى الى اين امضى . ولكننى لم اعد اخاف لانى اراكن جميعا فى السماء . غير انى لا اعرف ايكن نجمة من . ولكنكن لستن مذنبات فيما حدث ، اذ لم تستطعن رؤيتنا فى البحر . الضباب العظيم اخفانا عنكن . وها آنذا وحدى . اما هم فقد مضوا ، ثلاثتهم مضوا . كانوا يحبونكن جدا ايتهـــا النجوم . كم انتظروا ، وكم ارادوا ان يروكن ليجدوا الطريق الى البر . كان جدى أورجان يقول ان النجوم لا تخدع ابدا . واراد ان يعلمنى . . . ولكنكن لستن مذنبات فيما حدث . انا ايضا سأموت عما قريب . ليس عندى ماء ، وخارت قواى تماما ، ولا اعرف الى اين امضى . . . بقى لدى قليل من الماء ، قليل جدا ، سوف اشرب الآن ، فلم اعد قادرا على التحمل ، لا استطيع ان اصبر اكثر من ذلك . اليوم مضغت قطعة من الكيس الجلدى . ولكننى لا استطيع ان اتحمـــل اكثر ، فذلك يثير فىّ الغثيان ويقلب امعائى . . .

سأشرب الآن آخر ما عندى من ماء . واذا لم نلتق بعد ذلك فانى اريد ان اقول لكُنّ ايتها النجوم ان جدى أورجان ، وعمى ميلجون وابى امرايين كانوا يحبونكن جدا . . . اذا ما عشت حتى الصباح فسوف اودعكن فيما بعد . . .»

ومن جديد دخل القارب منطقة ضبابية واسعة . واختفى كل شيء ثانية وانعدمت الرؤية . لكن الزورق استمر سائرا تدفعه الرياح والامواج . كان الامر سيان بالنسبة لكيريسك الآن . فبعد ان شرب ما تبقى من الماء المتعطن تماما ، بقى راقدا بجوار الوعاء الفارغ فى مؤخرة الزورق ، فى المكان الذى كان يحتله العجوز أورجان عادة . كان يستعد للموت ، ولم يعد الضباب الآن يخيفه . لم يأسف الا على شيء واحد . . على غياب النجوم وعلى انه ربما لن يتمكن من وداعها . . . وساءت حالته اكثر فأكثر . . .

وهكذا رقد كالغائب عن الوعى او كالنائم ، ومر زمن لا يعرف مقداره . ربما كان الوقت الآن بعد منتصف الليل ، او ربما كان الليل على وشك الانتهاء . كان من الصعب تحديد ذلك . فقد انتشرت فوق البحر عتمة خفيفة كالدخان فى الريح .

لكن الاقدار تختلف . وكان من الممكن ان يسمع الصبى ، او الا يسمع . ولكنه سمع . سمع كيف خفق فوق رأسه فجأة جناحان ، وطار شيء ما فى الظلام فوق القارب على ارتفاع منخفض . وانتفض الصبى وفى لحظة خاطفة استطاع ان يرى ان ذلك كان طائرا كبيرا ، قويا ، يخفق بجناحين كبيرين .

وصاح الصبى :

— أجوكوك ! أجوكوك !

واستطاع ان يرصد اتجاه طيران البومة القطبيـــة وان يتذكر اتجاه الريح . كانت الريح تأتى من يساره . . من يساره ناحية قفاه ، الى الخلف قليلا من اذنه اليسرى !

وصاح فى اثر الطائر :

— أجوكوك !

وامسك بدفة أورجان ، موجها القارب الى حيث طارت البومة أجوكوك .

توتر كيريسك وهو قابض على الدفة ، واستنفر كل ما تبقى

لديه من قوة ، ولم يفكر فى اى شىء آخر بل تذكر فقط اتجاه الريح والبومة .

لم يكن معروفا الى اين اتجهت البومة القطبية ومن اين جاءت . اترى جاءت من جزيرة الى القارة ام من القارة الى جزيرة ما . ولكن كيريسك لم ينس ما رواه له العجوز أورجان من ان هذا الطائر لا يطير فوق البحر الا فى خط مستقيم . انها اقوى طائر ، وتطير ليلا وفى الضباب . وها هو الآن يتبعها .

امـــا القارب فكان يثب من موجـــة الى موجة ، وكانت الريح منتظمـــة . وشحب الظلام ، وتلاشى ، ولاح بصيص نـــور فى طرف السماء . اما فى الامام مباشرة ، فقد اضاءت بسطوع فى قبة السماء الزرقاء الداكنة الكثيفة نجمة وحيدة براقة . ولاحظ كيريسك ان النجمة تقف تماما فى الناحية التى وجه اليها مقدمة القارب . وفطن الى انه ينبغى ان يسترشد بها ، ان يتبعها ويتجه نحوها ، لان البومة طارت فى ذلك الاتجاه . لم يكن يعرف هذه النجمة ، لكنه الآن لم يحول عنها عينيه ، وبقفاه تذكر اتجاه الريح وقوتها وتيارها .

«اثبتى يا ريح ولا تغيبى . انا لا اعرف مـــا اسمك ، فالجد أورجان هو الذى كان بوسعه ان يقول لى ذلك . كونى لى كالاخ . لا تغيبى يا ريح ولا تنحرفى فى اتجاه آخر . أليس بوسعك ان تبقى مدة طويلة . فلتساعدينى اذن ولا تغيبى . وسوف اعرف اسمك وادعوك به . أتريدين ان اسميك ريح أورجان ؟ على اسم جدى أورجان . وسوف ادعوك دائمـــا بريح أورجان ، وانت سوف تعرفيننى . . .»

هكذا ناجى الريح المواتية وراح يقنعها بالثبات وينفخ فيها من ارادته وروحه . ولم يحول عينيه عن النجم الهادى الذى سار بالقارب نحوه . ومضى يقول : «انا احبك يا نجمى . كم انت عال وبعيد . انت اكبر واجمل نجم . أرجوك لا تغرب ، قف مكانك ولا تنطفئ . اننى سائر اليك . فنحوك طارت أجوكوك . انـــا لا اعرف الى اين طارت ، الى الجزيـــرة ام الى الارض الكبيرة . فلتكن طارت الى الجزيرة ، اذن لأمت فى جزيرة . لا تغب يا نجم ، لا تنطفئ . انا لا اعرف ما اسمك فلا تغضب منى . لم اتمكن من معرفة اسمك . كان بوسع ابى امرايين ان يقول لى ما اسمك . فان اردت دعوتك

باسم ابى ، سأدعوك بنجم امرايين . وعندما تظهر فى السماء سوف احييك واهمس باسمك . فلتساعدنى يا نجم امرايين ، لا تغب قبل الاوان ولا تنطفئ ، لا تختف فجأة خلف سحابة . . .»

هكذا ناجى نجمه الهادى . وناجى ايضا الامواج : «يا امواج ، انك تدفعين الآن قاربى فما احلاك . سوف اسميـــك امواج العم ميلجون . انك تمضين الى حيث طارت أجوكوك . أليس بوسعك ان تتدفقى طويلا الى حيث تشائين . لا تذهبى يا امواج العم ميلجون ولا تضلى الطريق . لو كنت اقدر لجذفت ولكننى منهك تماما . انك ترين اننى امضى بمشيئتك . ولو قدرت لى النجاة فسوف اعرف دائما انك تسيرين بريح أورجان الى نجم امرايين . وسأبلغ الجميع ان امواج العم ميلجون تحمل فى البحر الخيرا فلتساعدينى يا امواج العم ميلجون . لا تغيبى ، لا تتركينى . . .»

* * *

من بين كل النجوم اضاء نجم امرايين اطول فترة . وقبيل الفجر بقى وحده فى صفحة السماء . وفى الفجر اشرق بنور قوى رقراق ، ثم اخذ يخبو تدريجيا فى جو الصباح الرمادى ، وظل يلوح طويلا فى السماء بقعة بيضاء ناعمة .

هكذا حل الصبـــاح . ثم صعدت الشمس فوق البحر . وفرح كيريسك وجزع . فرح لظهور الشمس وجزع من لانهائية البحر . وتلألأ البحر بزرقته المرتعشة تحت اشعة الشمس ، فبدا اسود تقريبا ومقفرا بلا حدود . واطبق الصبى بعصبية على الدفة محاولا ان يوجه القارب حسب الذاكرة ودون ان ينحرف عن اتجاه الريح . وكان ذلك شيئا مضنيا . . .

وظل متذكرا حتى دار رأسه وغامت عيناه . . .

واصبح القارب الآن يسير على هواه . . .

* * *

عندما عاد الصبى الى وعيه كانت الشمس قد تحولت الى الناحية الاخرى من السماء . وشد نفسه وتحامل على ذراعيه المرتعشتين

وصعد بصعوبة الى مؤخرة القارب ، وجمد بلا حراك مغمض العينين حتى يتغلب على دوار الرأس . ثم فتح عينيه . كان الزورق يسير مع الامواج . وامتد البحر الى مدى البصر بمياهه الحية الهدارة . ونظر كيريسك الى الامام ثم فرك عينيه مذهولا . فمن خلف منحنى مياه البحر الخضراء الداكنة سبح نحوه مباشرة الكلب الابلق . كان الكلب الابلق يركض لملاقاته ! الكلب الابلق العظيم !

ولاح الشاطئ شريطا جبليا رماديا ازرق عند حافة البحر . لكن الكلب الابلق ، الابيض الاذن والابيض ما بين الفخذين ، تسامى فوق كل الروابى ، وبدت واضحة حلقة الزبد من تكسر الامواج الابدى عند سفح الكلب الابلق . وسمعت فى الجو اصوات نوارس الشاطئ . وكانت النوارس اول من لاحظه . وفوق الرابية تصاعد دخان ازرق من نار اشارة خابية على منحدر الصخرة . . .

ايها الكلب الابلق ، الراكض عند حافة البحر
ها أنا ذا أعود اليك وحيدا .
بدون جدى اورجان
بدون أبى امرايين
بدون عمى ميلجون .
فلتسألنى اين هم
لكن فى البداية اعطنى ماء لاشرب . . .

وادرك كيريسك ان ذلك مطلع اغنيته التى ستصاحبه حتى آخر ايام عمره . . .

* * *

وفى الظلام كان البحر يهدر ويتململ ، وهو ينقض ويتحطم على الصخور . وتأوهت الارض الصخرية الصلبة بلوعة وهى تصد ضربات البحر .

وهكذا هما فى الصراع منذ بدء الخليقة ، منذ ان اصبح النهار نهارا والليل ليلا ، وسيظلان هكذا ابدا ، طوال الايام والليالى ما

بقيت الارض والمياه فى الزمن اللامتناهى . . .
طوال الايام والليالى . . .

* * *

. . . ومرت ليلة اخرى . . .
دوى فى البحر هزيم ريح أورجان ، وتدفقت فى البحر امواج العم ميلجون ، وتلألأ فى طرف السماء المشرق نجم امراييين الوضاء .
. . . وحل يوم آخر . . .

قرية بايتيك . ديسمبر ١٩٧٦ - يناير ١٩٧٧ .

محتويات

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب وترجمته ، وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .
العنوان : زوبوفسكي بولفار ، ١٧
موسكو – الاتحاد السوفييتي

ИБ № 8314

Редактор русского текста *К. Д. Потапова*
Контрольный редактор *Т. А. Правдина*
Художник *Ю. В. Копейко*
Художественный редактор *С. Е. Барабаш*
Технический редактор *Т. И. Воскресенская*
Корректор *Л. Г. Князева*

Сдано в набор 8.02.80. Подписано в печать 19.01.81.
Формат 84×108¹/₃₂. Бумага типогр. № 1.
Гарнитура каирская. Печать высокая.
Условн. печ. л. 12,6+2,31 печ. л. вклеек. Уч.-изд. л. 19,26.
Тираж 8050 экз. Заказ № 1996. Цена 2 руб. 90 коп. Изд. № 27794.

Ордена Трудового Красного Знамени
издательство «Прогресс»
Государственного Комитета
СССР по делам издательств,
полиграфии и книжной торговли.
Москва 119021, Зубовский бульвар, 17.

Ордена Трудового Красного Знамени
Московская типография № 7 «Искра революции»
«Союзполиграфпрома» Государственного
Комитета СССР по делам издательств,
полиграфии и книжной торговли.
Москва [illegible]019, пер. Аксакова, 13.

